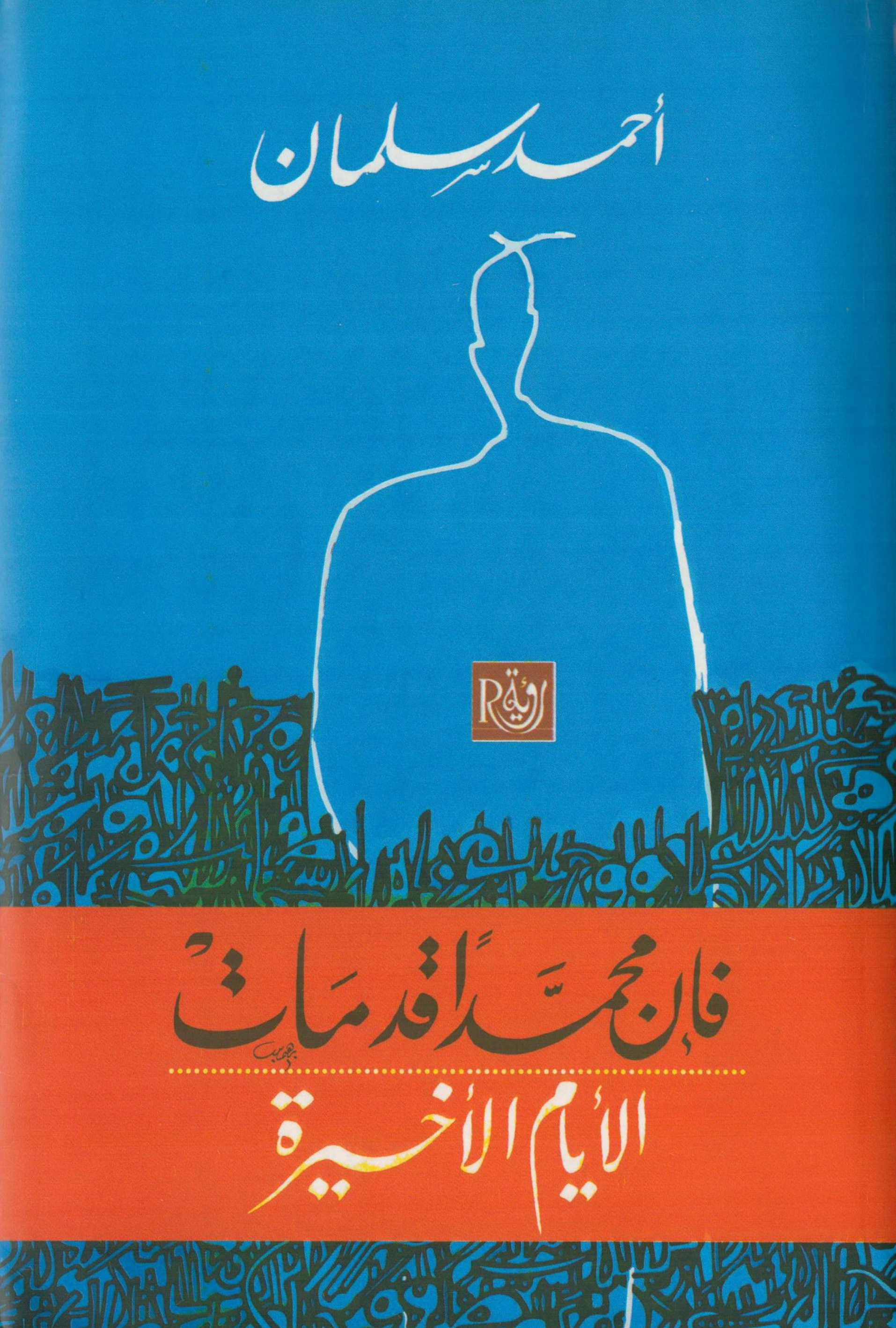

أحمد سلمان
فإن محمداً قد مات
الأيام الأخيرة

فإن محمداً قد مات

الأيام الأخيرة

أحمد سلمان

فإن محمداً قد مات
الأيام الأخيرة



للنشر والتوزيع

2021

الكتـــاب: فإن محمدًا قد مات
الأيام الأخيرة
تأليــــف: أحمد سلمان
المدير العـام: رضا عوض
دار رؤية للنشر والتوزيع
8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين – القاهرة – مصر
Email: Roueyapublishing@gmail.com
فاكـــــس : 25754123 (202) +
هـــــاتف: 23953150 (202) +
الإخراج الداخلي: القسم الفني بالدار
تصميم الغـلاف: حسين جبيل
خطوط الغـلاف: إبراهيم بدر
الطبعـــة الأولى: 2021
رقـــم الإيـــداع: 2020/5760
الترقيـــم الدولي: 978-977-499-433-3

المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

مقدمة

ذكروا أنَّ في مولده سقطت بعض شُرفات إيوان كسرى...

وخمدت نار مجوس فارس التي لم تخمد منذ آلاف السنين...

وظهرت نجوم في السماء أذهبت ألباب المنجِّمين وتركتهم حيارى...

كلُّ هذه الأحداث يحفظها كلُّ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتُتلى على مسامعهم كلُّ سنة عند سرد قصَّة مولد النبي ﷺ التي تبدأ بذكر أهمِّ ما جرى في عام الفيل وصولًا إلى الليلة المباركة التي وُلِدَ فيها، وما زامنها من أحداث عظام في السموات والأرض!

لكن ماذا عن وفاته ﷺ؟

كيف توفِّي رسول الله ﷺ؟

كيف كان تجهيزه ودفنه ﷺ؟

كيف انتقلت السلطة لمن بعده؟

هذه مجموعة من الأسئلة المشروعة والاستفسارات الملحّة التي لازالت طيّ الكتمان، فمن حقّ كلّ مسلم الاطّلاع على حقيقة ما جرى في تلك الحقبة ومعرفة أحداث انتقال نبيّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ بل إنّ الإحاطة بهذه الأمور أهمّ بكثير من معرفة أحداث مولده ﷺ، إذ إنّ لهذه الأحداث تأثيرًا مباشرًا على مستقبل المسلمين، وما نعانيه اليوم من تفرُّق وتشرذم يرجع بالدرجة الأولى إلى ما جرى في تلك الأيّام الأخيرة من حياة النبي ﷺ وما صاحبها من متغيِّرات عصفت بالمجتمع الإسلامي وامتدَّت إلى يومنا هذا.

أمّا بعد

إنَّ هذا الكِتَاب هو محاولة لفتح تحقيق في هـذا الملـف الخطـير والذي تعمَّدت الأيـادي إبعـاده عـن المشهد التـاريخي، وَسَـعَتْ الأقلام إلى تحييده عن عقول المسلمين، ودخلت السياسة على الخـط فرسمت خطوطًا حمراء حول هـذا الموضـوع تخويفًـا لكـلِّ باحـث وردعًا له عن الخوض في غمار هذا الأمر الخطير!

قد لا أكون استوفيت كـلَّ مـا يتعلَّـق بهـذا الخطـب الجلـل، ولا غطَّيت جميع ما بُثَّ في كتب التاريخ والسير، إلَّا أنِّي حاولت استيفاء ما وسعني من معلومات خطيرة حول أعظم مصيبة حلَّت بالمسلمين بـل بالبشريَّة جمعاء وهي وفاة خاتم الأنبياء وسيِّد المرسلين ﷺ.

ودفعا لما قد يتهَّمني به البعض من الانحياز لهذه الجهة أو تلـك -وذلك لأنَّ أيَّ قراءة تاريخيَّـة تقـدِّم لهـذه الأحـداث سينـصبُّ في مصلحة مـذهب مـن المـذاهب الإسـلاميَّة- فـإنِّي لم أذكـر في هـذا الكتاب إلَّا الأحداث التي اشترك في نقلها كـلّ المـسلمين وأجمعـوا على صحّتها، أو مـا قـاد التحليـل التـاريخيِّ والقـرائن المعـضِّدة إلى الإذعان بصدقه.

قد لا يتفق معي القارئ الكريم في النتـائج التـي وصـلت إليهـا، لكن لابدَّ أن يعلم أنَّ ما سيمرُّ به في هذا الكتاب ليس نظرة سـوداوية لتاريخنا، بل هو الواقع بلا أيِّ تزيين ولا تجميل، ولابدَّ أن نتعاطى مـع حاضرنا طبقا لهذا الواقع المغيَّب لا واقعنا المزيَّـف الـذي خـدعوا بـه الأجيال السابقة، ولازالوا يخدعون به هذا الجيل، وما حاضرنا اليـوم إلَّا نتيجة لتراكمات ذلك الواقع الذي لازلنا نجهل خفاياه.

أحمد سلمان

في 13 جمادى الأوّل 1439هـ

مدخل

من يقدم على قراءة تاريخنا الإسلامي لابدَّ له من فهم جملة من الأمور التي يستطيع من خلالها الوقوف على حقيقة الحال، فكلُّ المراحل التاريخيَّة التي مرَّ بها المسلمون كانت خاضعة لمجموعة من المتغيِّرات التي أعطت لكلِّ مرحلة طابعا خاصًّا وبالتالي فكلُّ مرحلة تاريخيَّة لها طريقتها الخاصة في التعاطي معها، إلَّا أنَّه توجد خطوط عامَّة يمكن جعلها كقاعدة أساسيَّة لفهم كلِّ هذه المراحل والبناء عليها:

الإعلام والواقع:

من يراقب الساحة الإعلامية في المئة سنة الأخيرة يعلم يقينا أنَّه لا وجود لإعلام حرٍّ مستقلٍّ، بل كلُّ ما يوجد في الساحة هو (إعلام موجَّه) يخدم "أجندات" خاصَّة، ولذلك قد يحدِّثنا الإعلام

عن وجود حروب واضطرابات في مكان ما، ولكن عندما ننظر إلى الواقع لا نجد لها عينًا ولا أثرًا، وقد يحدِّثنا عن أمن واستقرار في مكان آخر. والحال أنَّ الحرب فيه مستعرة على قدم وساق!

كذلك تاريخنا الإسلامي فإنّه كان في الأعمِّ الأغلب تاريخًا مصطنعًا لخدمة هذه الجهة أو تلك، فتصاغ الأحداث فيه بطريقة تصبُّ في مصلحة الجهة الراعية والمؤثّرة في من يكتب التاريخ، وعليه فمن أدرك كيف يتعامل إعلامنا العربي اليوم مع الواقع سيفهم بدقَّة حقيقة ما نُقل في كتب التاريخ وطريقة تلاعب المؤرّخين بالوقائع والأحداث.

السياسة وتغيير الحقائق:

ولعلَّ أهمَّ جهة قامت بهذه المهمَّة هي الحكومات المتعاقبة جيلًا

بعد جيل: فكما أنَّ لهذه الحكومات اليوم دور في توجيه الإعلام عبر الرقابة التي تضربها على وسائله المقروءة والمسموعة والمرئية، فقد كان لها بالأمس دور كبير في التحكُّم فيما يُكتب ويُنشر ويتداول بين الناس!

بل لم يكن ينشر في ذلك الزمن إلَّا ما يكون محلًّا لرضا الحاكم وموافقًا لإرادته، وذلك لأنّ مجرّد المخالفة ولو في أمر بسيط قد تؤدِّي بالمؤرّخ إلى السجن أو الموت تحت عدَّة ذرائع كتهمة الزندقة أو الخروج على السلطان، وهي التُّهم الجاهزة التي يمكن أن تلصق بأيِّ فرد خالف وليَّ أمره ولو في شيء بسيط، وستأتيك عدَّة أمثلة في مطاوي هذا الكتاب تثبت صحَّة ما ذكرناه.

فتح ملفَّات الماضي:

إنّ حالة النضج التي بلغها المسلمون بعد 1400 سنة من وفاة نبيِّهم كفيلةً بأن يفتح هذا الملف ويوضع على طاولة البحث بدون أيّ قيود. ففي الماضي وضعت عدَّة خطوط حمراء أمام التطرُّق لهذا الموضوع كسنِّ قاعدة (الكفِّ عمَّا شجر بين الصحابة) أو التخويف بـ(الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) أو اعتبار التعرّض لهذه الأحداث هو (مدخل إلى التشيُّع) أو (طعن في الصحابة)...!!

فلم تعد هذه الخطوط حمراء في نظر القارئ اللبيب أمام سيل الأسئلة التي تختلج في الذهن وتعصف بالقلب: فما المانع أن توضع أحداث وفاة رسول الله ﷺ على طاولة البحث، وتحلَّل تحليلًا موضوعيًّا للوقوف على حقيقة الأمر؟ خصوصًا وأنَّ هذه الأيّام

العصبية وما حملته من أحداث خطيرة مثّلت منعرجًا خطيرًا انعكس على مستقبل الأمّة إلى يومنا هذا وجعلها فرقًا وشيعًا!

وفاة النبي ﷺ بين قراءتين:

من يطّلع على ما أثبت في طيّات كتب التاريخ يجد قراءتين متباينتين لأحداث وفاة رسول الله ﷺ:

الأولى: هي القراءة الشائعة بين عامّة المسلمين والسائدة في الكتب التي تطرّقت ولو بشكل جزئي لهذه الأحداث، ويمكنني وصف هذه النظرة بـ"الورديّة" لكونها مبنيّة على أنّ دعوى استقرار الوضع في أيّامه ﷺ الأخيرة كما كان قبلها، وأنّ انتقال السلطة إلى أبي بكر كان انتقالًا سلميًّا سلسا لم يعتره أيُّ شكل من أشكال الاضطراب.

الثانية: هي القراءة التي تعتبر أنّ أحداث وفاة رسول الله ﷺ كانت أحداثًا مأساويّة، وأنّ انتقال السلطة إلى الخليفة اللاحق لم يكن بتلك الصورة الورديّة التي تتداول، بل كانت هناك اضطرابات داخليّة وخارجيّة زامنت هذا الانتقال، وكلّ هذه الأحداث لم تكن وليدة الساعة بل سبقها تخطيط مسبق وتنفيذ محكم بدأ في السنوات الأخيرة من حياة النبي ﷺ واستمرّ إلى حين وفاته.

لن نُرجّح الآن أيّ نظريّة على الأخرى لكي لا نتّهم بالكتابة بنتائج مسبقة، أو أنّ ما سيأتي هي إسقاطات شخصيّة على التاريخ، بل سأبدأ بتكوين صورة عامّة في عقل القارئ تحكي الطريقة التي كُتِبَ بها تاريخنا، ثم أبدأ في بيان المقدّمات الضروريّة لهذا البحث التي ستكون ركيزة مهمّة فيما بعد.

1

كيف كُتِبَ تاريخنا؟

نقف الآن أمام كمٍّ هائل من الكتب والموسوعات التاريخيَّة التي تضمَّنت عشرات إن لم يكن مئات الروايات توثِّق الأحداث التي نحن بصدد التعرُّض لها، وعادةً ما تطرح عدَّة تساؤلات حول كيفيَّة التعامل مع الخبر التاريخي وآليَّة قبوله أو ردِّه، إلَّا أنَّ هذا الموضوع قد أشبع بحثًا وكتبت الدراسات في بيان منهج المؤرِّخين والتفريق بينه وبين طريقة المحدِّثين.

إلَّا أنِّي في مستهلِّ هذا البحث أريد أن أرجع للوراء قليلًا

لأطرح سؤالًا آخر وهو: كيف كُتبت الموسوعات التاريخيَّة؟ وهل راعى أصحابها الموضوعيَّة أم كانت كتاباتهم خاضعة لظروف تحتّم عليهم الكتابة بصورة خاصَّة؟ وهل يمكننا اعتبار حركة التأريخ للأحداث "إعلامًا حرًّا" أم "إعلامًا موجَّها"؟

إنَّ الناظر إلى تاريخ كتابة تاريخنا الإسلامي يجد أنَّه مرَّ بثلاث مراحل أساسيَّة: منع/ إذن / تنقيح، وهذه المراحل الثلاث هي التي أنتجت لنا هذه الكتب المتداولة، والتي صارت مصدرًا أساسيًّا لمعرفة تاريخنا وما جرى في سالف الزمن، ومن هنا يتحتَّم علينا دراسة كلٍّ مرحلة منها على حدة.

المرحلة الأولى: المنع

عند الرجوع لكتب التاريخ والحديث نجد أنَّ أوَّل قرار سياسي اتُّخذ بعد وفاة النبي ﷺ هو المنع من تداول الحديث وتدوينه: فقد روى الذهبي عن ابن أبي مليكة: «أنَّ الصدِّيق جمع الناس بعد وفاة نبيِّهم، فقال: إنّكم تحدِّثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدُّ اختلافًا، فلا تحدِّثوا عن رسول الله شيئًا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه»[1].

وهذا الأثر واضح صريح في أن أوَّل خليفة للمسلمين قد نهى عن التحديث نهيًا صريحًا لا يقبل التأويل والتبديل، حيث قال: «فلا

---

(1) تذكرة الحفاظ 1/ 3؛ وقد استدلَّ الذهبي بهذا الأثر وبنى عليه.

تحدِّثوا عن رسول الله شيئًا»، وأمرهم بالرجوع إلى كتاب الله وحصر التشريع فيه بقوله: «فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه».

وما فعله أبو بكر قد حذَّر منه النبي ﷺ في حياته، ونبَّه أمَّته من حدوثه: فقد روى الحاكم[1] والدارمي[2] وابن ماجة[3] وأبو داود[4] وأحمد واللفظ له بعدّة طرق عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ألا إنّي أوتيت الكتاب، ومثله معه، ألا إنّي أوتيت القرآن، ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعانًا على أريكته، يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه[5].

وفي هذا الحديث عدة أمور مهمّة لابدّ من الوقوف عندها:

الأمر الأول: عبَّر النبي ﷺ بلفظ: «يوشك»، ولم يقل: «سيكون» أو «سيحصل كذا وكذا»، وفي هذا دلالة على قرب ووقوع هذا الأمر، فإنَّ فعل أوشك يدلُّ على الإسراع المفضي إلى القرب كما نصَّ على ذلك أهل اللغة، ولا يوجد أقرب من هذه الحادثة مصداقًا لهذا التحذير!

---

(1) المستدرك على الصحيحين 1/ 108.

(2) سنن الدارمي 1/ 153.

(3) سنن ابن ماجة 1/ 106.

(4) سنن أبي داود 2/ 392.

(5) مسند أحمد 4/ 131؛ قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

الأمر الثاني: من أهمِّ الألفاظ المهمَّة في هـذا الحـديث، التعبـير بـ(الأريكة)، وهي كما قال ابن الأثير: السرير في الحجلـة مـن دونـه ستر، ولا يسمَّى منفردًا أريكة، وقيل: هو كل مـا اتُّكـئ عليـه مـن سرير أو فراش أو منصَّة[1].. وهي في هذا الخبر كناية عـن الـسلطة والحكم، فالشخص الذي يمنع من الحديث ليس إنسانًا مـن عـوام الناس، بل هو رجل مبسوط اليد وصاحب نفوذ، وهو ما يتلاءم مع فعل أبي بكر المذكور.

الأمر الثالث: تطابق لفظ الحـديث النبـوي مـع قـول أبي بكـر مطابقة تامَّة، بحيث لا تدع مجالًا للشكِّ في كون الثاني هـو مـصداق للأوَّل، ففي الحـديث النبـوي عـبَّر بقولـه: «علـيكم بـالقرآن، فـما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه»، وأمَّا في كلام أبي بكر فقوله: «بيننـا وبيـنكم كتـاب الله، فاسـتحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه»، وهذا من دلائـل النبـوة ومـن معجـزات الرسالة.

وهذا المنع شبيه بقوانين "منع النشر" في بعض الدول، فـبعض الحكومات إذا أرادت أن تغلق موضوعًا وتمنع النـاس مـن تداولـه تصدر منعًا عامًّا مـن النـشر فيـه وتعاقـب كـل مـن يتعـرَّض لهـذا الموضوع، وهذا عين ما حصل بعد وفاة النبي ﷺ، إذ إنّ الأحـاديث كانت بمثابة السلاح المضادّ الذي من شأنه إعطاء شرعيّة لفـلان أو سحبها عن آخر، فلذلك حسم الأمر بمنع هذا الأمر منعًا صارمًا.

---

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر، 1/ 40.

وقد واصل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على هذا النهج: فقد روى الحاكم في المستدرك عن قرظة بن كعب، قال: خرجنا نريد العراق، فمشى معنا عمر بن الخطاب إلى صرار، فتوضأ، ثم قال: أتدرون لما مشيت معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا؟ قال: إنّكم تأتون أهل قرية لهم دويٌّ بالقرآن كدويِّ النحل، فلا تبدونهم بالأحاديث، فيشغلونكم، جرِّدوا القرآن، وأقلُّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وامضوا وأنا شريككم. فلما قدم قرظة قالوا: حدِّثْنا. قال: نهانا ابن الخطاب[1].

وروى ابن سعد في طبقاته حادثة مهمّة تؤكِّد هذه الحقيقة، حيث قال: أرسل عمر أُبيًّا، قال: وأقبل أبيّ على عمر، فقال: يا عمر أتتهمني على حديث رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: يا أبا المنذر لا والله، ما اتّهمتك عليه، ولكنِّي كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله ﷺ ظاهرًا[2].

وقال ابن كثير تأييدًا لما تقدَّم: ولهذا لّما بعث أبا موسى إلى العراق قال له: إنَّك تأتي قوما لهم في مساجدهم دويٌّ بالقرآن كدويِّ النحل، فدعهم على ما هم عليه، ولا تشغلهم بالأحاديث، وأنا شريكك في ذلك. هذا معروف عن عمر[3].

---

(1) المستدرك على الصحيحين 1/ 102؛ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد وله طرق. ووافقه الذهبي في التلخيص، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة 100.

(2) الطبقات الكبرى 4/ 22.

(3) البداية والنهاية 8/ 115.

وقال الذهبي: هكذا هو كان عمر يقول: أقلُّوا الحديث عن رسول الله ﷺ، وزجر غير واحد من الصحابة عن بثِّ الحديث، وهذا مذهب لعمر ولغيره[1].

ومن هنا عاقب عمر بن الخطاب كل من خالف سياسته في منع التحديث بأشد العقوبات كائنًا من كان، واتخذ عدَّة إجراءات:

منها: حبسه لبعض كبار الصحابة: كما روى الطبراني بسنده عن سعد بن إبراهيم عن أبيه، قال: بعث عمر بن الخطاب إلى ابن مسعود وأبي مسعود الأنصاري وأبي الدرداء، فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ﷺ؟! فحبسهم بالمدينة حتى استشهد[2].

وروي عن إبراهيم عبد الرحمن بن عوف، قال: والله ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فجمعهم من الآفاق: عبد الله بن حذافة وأبا الدرداء وأبا ذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي قد أفشيتم عن رسول الله ﷺ في الآفاق؟ قالوا: أتنهانا؟ قال: لا، أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت، فنحن أعلم، نأخذ ونردُّ عليكم. فما فارقوه حتى مات[3].

ومنها: ضربه لمن يجاهر بالتحديث بدرّته الشهيرة، ولذلك قال

---

(1) سير أعلام النبلاء 2/ 601.

(2) المعجم الأوسط 3/ 378.

(3) كنز العمال 10/ 293.

أبو هريرة أكبر المحدِّثين وأشهرهم: ما كنَّا نستطيع أن نقول: «قال رسول الله ﷺ» حتى قُبض عمر، كنَّا نخاف السياط[1].

وروي عنه أيضًا قوله: أفإن كنت محدِّثكم بهذه الأحاديث وعمر حيٌّ؟ أما والله إذًا لألفيت المخفقة ستباشر ظهري[2].

وروى الذهبي بسنده عن ابن عجلان: أنَّ أبا هريرة كان يقول: إنِّي لأحدِّث أحاديث، لو تكلَّمت بها في زمن عمر، لشَجَّ رأسي[3].

وهذا التصريح من أبي هريرة فيه إقرار بأن العقوبة التي كانت تطال من ينشر أحاديث النبي ﷺ هي الضرب بالدرّة والسياط على الظهر والرأس وكأنَّ حديث رسول الله جريمة تستوجب إقامة الحدّ!

ومنها: النفي والإبعاد عن مركز الخلافة الإسلامية وهي المدينة: فقد روي عن عمر بن الخطاب بإسناد صحيح أنَّه قال لأبي هريرة: لتتركنَّ الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنَّك بأرض دوس[4].

---

(1) البداية والنهاية 8/ 115

(2) جامع معمر بن راشد الملحق بمصنَّف عبد الرزاق 11/ 262.

(3) سير أعلام النبلاء 2/ 601.

(4) البداية والنهاية 8/ 115؛ صحَّح الخبر شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسير أعلام النبلاء 2/ 601.

وقال أيضًا لكعب الأحبار: لتتركنَّ الحديث عن الأُول أو لألحقنَّك بأرض القردة[1].

والذين جاؤوا من الحكّام والخلفاء بعدهما لم يجدوا صعوبة في السير على هذا المنوال وواصلوا قانون منع التحديث والتدوين:

فمثلًا صرَّح الخليفة الثالث عثمان بن عفان باتِّباعه لسياسة عمر ابن الخطاب في تعامله مع الحديث ورواته بقوله: لا يحلُّ لأحد يروي حديثًا لم يُسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر[2].

وجاء بعده معاوية بن أبي سفيان مترسِّما لخطى أسلافه، فقال للناس كما نقل مسلم في صحيحه: إيَّاكم وأحاديث إلَّا حديثًا كان في عهد عمر، فإنّ عمر كان يخيف الناس في الله ﷻ[3].

وهنا يحقّ لكلّ منصف أن يطرح هذه الأسئلة:

أليست السنَّة مصدرًا من مصادر التشريع الرئيسيّة؟

لماذا مُنعت سُنَّة رسول الله ﷺ من التداول بين الناس؟

---

(1) البداية والنهاية 8/ 115؛ صحَّح الخبر شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لسير أعلام النبلاء 2/ 601.

(2) تاريخ مدينة دمشق 39/ 180، ومن المعلوم أنّ الرواية كانت ممنوعة في عهد الشيخين، فكيف لا يسمح إلَّا بما روي في عهدهما؟

(3) صحيح مسلم 3/ 95.

وما هي خلفيَّات هذا الإصرار على منع انتشار سيرة النبي ﷺ؟[1]

المرحلة الثانية: الإذن

تواصل هذا المنع سنين طويلة تكاد تبلغ المائة سنة، ولم يرفع هذا المنع إلَّا في زمن بني أميَّة وتحديدًا حقبة حكم عمر بن عبد العزيز، وقد أشار البخاري في صحيحه إلى صدور الإذن منه، قال: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنِّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يقبل إلَّا حديث النبي ﷺ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرًّا"[2].

وقد علَّق ابن حجر العسقلاني على هذه الحادثة بقوله: يُستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ، فلمَّا خاف عمر بن عبد العزيز -وكان على رأس المِئة الأولى- من ذهاب العلم بموت العلماء، رأى أنَّ في تدوينه ضبطا له وابقاءً، وقد روى أبو نعيم في تاريخ أصبهان هذه القصة بلفظ:

---

(1) حاول البعض التبرير للخلفاء بأنَّ منعهم للرواية والتدوين قد استند إلى أحاديث وردت عن النبي ﷺ، لكنّ العجيب أنّ كلَّ هذه الأحاديث قد أسقطت ولم نسمع بأحد عمل بها منذ زمن بني أميَّة، وكأنَّ أمر عمر بن العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء كان بمثابة الناسخ لمنع النبي ﷺ المزعوم!

(2) صحيح البخاري 1/ 33.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق انظروا حـديث رسـول الله ﷺ فاجمعوه[1].

فالبداية الفعليَّة لكتابة حديث النبي ﷺ وسـيرته كـان في سـنة 100هـ، وكانت النواة الأولى لكتب السيرة هي ما جمعه الزهري في كتبه، وفي ذلك يقول ابن حجر: وأوَّل من دوَّن الحديث ابن شهاب الزهري[2] على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التـدوين ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير فللَّه الحمد[3].

ورغم هذه الانطلاقة إلَّا أنَّ حركة التدوين كانـت ضـعيفة ولم يشتدَّ عودها إلّا بعد عقود من هذا الإذن، ومن هنا يقـول الـذهبي: وفي هذا العصر –سنة 143هـ– شرع علماء الإسلام في هذا العـصر في تدوين الحـديث والفقـه والتفسير، فـصنَّف ابـن جـريج بمكَّـة ومالك الموطأ بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحمـاد بـن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر بـاليمن وسـفيان الثـوري بالكوفـة وصنَّف ابن إسحاق المغـازي وصـنَّف أبـو حنيفـة رحمـه الله الفقـه والرأي ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه[4].

---

(1) فتح الباري 1/ 174.

(2) سيأتي الحديث عن هذه الشخصيَّة مفصَّلًا في الفصول المقبلة من الكتاب.

(3) فتح الباري 1/ 185.

(4) تاريخ الخلفاء 285.

والذي يهمُّنا ممّا تقدَّم هو:

أوّلًا: وجود فاصلة زمنيّة كبيرة بين زمن وقوع الأحداث التي سنتعرَّض لها تباعا وزمن تدوينها وإثباتها في الكتب، حيث نتحدَّث عن أكثر من قرن من المنع السياسي الذي سبَّب فراغًا في هذا الجانب من شأنه أن يكون منشأ لعدم الوثوق بالأحداث المثبتة في الكتب التي دوَّنت فيما بعد وارتفاع احتماليَّة الكذب والدسِّ فيها.

ثانيًا: أنَّ الإذن الذي حصل في سنة 100 هـ لم يكن إذنا عامًّا، بل كان إذنا مشروطا بأن تكون عمليَّة التدوين تحت إشراف مباشر من الحكومة، أي وجود رقابة قويَّة تمنع من إثبات ما لا يتلاءم مع سياسات الدولة، وهذا ما يأتيك بيانه.

المرحلة الثالثة: الإشراف الحكومي

تبيَّن ممَّا تقدَّم أنَّ الحكومة قد أذنت في كتابة السيرة مع فرض رقابة شديدة على ما يكتب، لكن تبقى مجموعة من الأسئلة المهمَّة التي لا بدَّ من الإجابة عنها: ماهي حقيقة هذا الإشراف الحكومي؟ وما هو تأثيره على من قام بكتابة السيرة النبويَّة؟

إنَّ عمليَّة الإشراف الحكومي على كتابة السيرة النبويَّة خاصَّة والتاريخ عامَّة يمكن حصرها في أمور:

الأمر الأوَّل: اختصَّت فئة محدَّدة بعمليَّة كتابة السيرة وهي فئة العلماء الذين كانوا يسيرون في ركاب الخليفة ويمثِّلون أعمدة حكمه وأساطين بلاطه، وقد رُوِّج لهؤلاء ترويجًا كبيرًا في أوساط

المسلمين، واعتبر ما يثبتونه في كتبهم ومصنَّفاتهم بمثابة الرواية المعتمدة التي لا يخالجها شكٌّ، ولعلّ الأمر أشبه ما يكون الآن في هذا الزمن بالصحف الحكوميَّة الرسميَّة!

فمثلًا "أبو بكر بن حزم" الذي تقدَّم ذكره عند الحديث عن بدء التدوين، كان من أمراء المدينة ومن كبار قضاة بني أميّة مدّة من الزمن[1]، وكان ممّن يسير في ركابهم ويعيش حياتهم حتَّى أنَّه قد نقلوا أنَّه كان يرتدي خاتمًا من ذهب[2]، ويمشي معه الحرس يحملون السياط[3]!

ومن يقرأ أخبار قضائه المسطَّرة في كتب التاريخ تكشف عن مدى تلاعب الرجل بالأحكام الشرعيَّة وجهله بالدين[4]، فهل مثل هذا يستأمن على سيرة رسول الله ﷺ؟!

بل نقلوا أنَّه كان يأخذ شهريًّا 300 دينار[5]، والدينار يعادل تقريبا 4.25 جرامات من الذهب في هذا العصر، فإذا اعتبرنا أنَّ سعر الجرام الواحد هو 40 دولارًا كما في مثل هذه الأيَّام فإنَّ مرتَّبه

---

(1) الطبقات الكبرى 5/ 335.

(2) الطبقات الكبرى 5/ 335؛ والعجيب من الذهبي كيف برَّر له بقوله: لعلَّه ما بلغه التحريم ويجوز أن يكون تاب من فعله! (سير أعلام النبلاء 6/ 60) فإن كان الرجل قاضيًا فكيف لا يبلغه التحريم؟!

(3) أخبار القضاة 1/ 145.

(4) أخبار القضاة 1/ 145.

(5) سير أعلام النبلاء 6/ 60.

الشهري يتجاوز 50 ألف دولار وهو ما يعادل رواتب رؤساء بعض الدول الآن!

هذه عيِّنة فقط لمن افتتح عمليَّة التدوين الرسمي، وسيأتيك لاحقًا أنَّ جلَّ من كتب في السيرة والتاريخ كان مرتبطا بنحو من الأنحاء مع حكومات عصره!

الأمر الثاني: إنَّ هؤلاء المَنصَّبين من قِبَل الحكومة يتلقَّون الأوامر مباشرة منها، بحيث يتحكَّم الخليفة في كلِّ ما يكتبه هؤلاء، ولا يثبتون في هذه الكتب إلَّا ما طُلب منهم، والمخالف يعاقب إمَّا بقطع رزقه لكونهم يتلقَّون جوائز ماليَّة قبال هذه الخدمات، وإمَّا بترهيبهم بالضرب والجلد والقتل كما نقل لنا التاريخ ذلك، وسنسوق للقارىء الكريم بعض الشواهد التي تثبت ما ذكرناه:

الشاهد الأوَّل: ما نقله ابن أبي الحديد المعتزلي عن المؤرّخ المعروف أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني –تُوفِّي 225هـ– في كتاب (الأحداث)، قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمَّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممَّن روى شيئًا من فضل أبي تراب و أهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليًّا ويبرءون منه و يقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدُّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي، فاستعمل عليهم زياد ابن سميَّة وضمَّ إليه البصرة، فكان يتتبَّع الشيعة وهو بهم عارف لأنَّه كان منهم أيَّام علي، فقتلهم تحت كل

حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم و شرَّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألَّا يجيزوا لأحد من شيعة عليٍّ وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان و محبِّيه و أهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم و قرِّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكلِّ ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته؛ ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات و الكساء و الحباء و القطائع، ويفيضه في العرب منهم و الموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلَّا كتب اسمه وقرَّبه وشفَّعه فلبثوا بذلك حينًا؛ ثم كتب إلى عمّاله: أنَّ الحديث في عثمان قد كثر و فَشَا في كل مصر وفي كل وجه و ناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبرًا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلَّا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإنَّ هذا أحبُّ إلي وأقرُّ لعيني وأدحض لحجَّة أبي تراب وشيعته وأشدُّ عليهم من مناقب عثمان و فضله؛ فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدَّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتَّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب

فعلَّموا صبيانهم و غلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتَّى رووه وتعلَّموه كما يتعلَّمون القرآن، وحتَّى علَّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله؛ ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيِّنة أنَّه يحبّ عليًّا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفَّع ذلك بنسخة أخرى: من اتَّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم: فنكِّلوا به وأهدموا داره، فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولاسيما بالكوفة، حتَّى أنّ الرجل من شيعة علي ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته فيلقي إليه سرَّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنَّ عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة...[1].

وهذا الشاهد يبيِّن لنا أنَّه في أيَّام معاوية بن أبي سفيان - مؤسّس دولة بني أميّة - رُسمت خارطة العمل التي سار عليها خلفاء هذه الدولة طيلة حكمهم، وجوهر هذه الخطّة إيجاد الفضائل لبني أميَّة وحزبهم ولو كان بالكذب والاختلاق، وفي المقابل طمس كلّ منقبة وفضيلة للبيت العلوي الذي يُعَدُّ أشدَّ معارض لحكمهم في تلك الحقبة، بل تحريف السيرة بأخذ فضائلهم ونسبتها لغيرهم!

الشاهد الثاني: ما نقله الطبراني في الكبير: عن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور

---

(1) شرح نهج البلاغة 11/ 29.

مستلقيـًا، فلمّا بلـــغ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ حتّـى بلـغ ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ جلس ثم قال: يا أبـا بكـر من تولَّى كبره، أليس عليَّ بن أبي طالب؟ قلت في نفسي: ماذا أقول؟ إذا قلت لا لقد خشيت أن ألقى منه شرًّا، ولئن قلت نعم لقد جئت بأمر عظيم قلت لرجل من أصحاب رسول الله ما لم يقل، ثم قلـت في نفسي: لقد عوَّدني الله على الصدق خيرًا، لا يا أمير المؤمنين، قال: فضرب بقضيبه السرير مرّتين أو ثلاثًا ثم قال: فمن؟ حتّى ردّد ذلك مرارا، قلت: يا أمير المؤمنين، عبد الله بن أبي بن سلول[1].

وهذا الخبر يحكي أحد تطبيقات تلك الخطّة المرسـومة مـسبقا، فالوليد بن عبد الملك بن مروان يسعى لتحريف قـضيّة مـشهورة في السيرة النبويّة بجعلها مثلبة لعلي بـن أبي طالـب، بـل يغـضب لأنّ كاتب السيرة الأموي لم يستجب لهذا الطلب!

نعم قد يقول قائل بأنَّ الزهري لم يستجب لضغوطات الوليـد بن عبد الملك وآثر الصدق، إلّا أنّ هذا الأمـر لا يكفـي لـدفع هـذا الاتهام لأنَّ تزكية المرء لنفسه غير مقبولة لا شرعًا ولا عرفًا، والأهمُّ من هذا أنَّ الخبر يتحدَّث عن واقعة، فـما الـذي يـدرينا أنَّ الزهـري صدق في كلّ الموارد ولم يضعف أمام ضغوط الخليفة الأموي؟ ولـو سلَّمنا بأنَّ الزهري كان يقول الصدق ولا يضعف فما الذي يـضمن لنا صمود معاصريـه مـن رواة الـسيرة والتـاريخ،أمـام ضـغوطات

(1) المعجم الكبير 23/ 79؛ وأصل هذا الخبر في صحيح البخاري 5/ 60.

الخليفة؟ كلُّ هذه أسئلة مشروعة لا يمكن أن نتجاوزها بمجـرَّد أنَّ أحد القدماء عبّر عن الزهري أو غيره بالثقة أو الثبت...

الشاهد الثالث: ما ذكره الذهبي في ترجمة الفقيه الأوزاعي إمام أهل الشام، حيث نقل مسندًا: سمعت الأوزاعي يقول: مـا أخـذنا العطاء حتَّى شهدنا على عليٍّ بالنفاق، وتبرَّأنا منه، وأخذ علينا بذلك الطلاق والعتاق وأيمان البيعة[1].

وهذا النصُّ صريح جدًّا في إثبات الضغوط التي كان يمارسـها بنو أميَّة على علماء ذلك العصر وربط الآراء الدينيَّة بالجانـب المـالي، فكلُّ من يخالف في هذا الأمر ويُبدي تعاطفـه مـع جبهـة المعارضـة المتمثّلة - في نظر الأمويين- بالبيت العلوي يلقى هذا المصير، وعليه فمن الطبيعيَّ جدًّا أن يتحرَّز هؤلاء عن كتابة أيّ شيء من شـأنه أن يقوّي هذا الجبهة أو يظهر جانبًا من فضائلها ومكانتها في الإسلام.

ومن مجموع هذه الشواهد نخلص إلى حقيقـة مهمَّـة وهـي أنَّ السيرة والتاريخ لا يمكن أن يدرس دراسة صحيحة إلَّا إذا سـلَّطنا الضوء أوّلا وبالذات على الـسياسة الأمويَّـة التـي رسـمها معاويـة للتعامل مع معارضيه من البيت العلوي تحديدًا.

كلُّ ما تقدَّم كان في العهد الأموي، أمَّا في العهد العبَّـاسي فلـم يتغيَّر الأمر كثيرًا بل بقي على ما هو عليه، والسبب في ذلك أنَّه رغم

---

(1) سير أعلام النبلاء 7/ 130.

تغيَّر نظام الحكم إلَّا أنَّ العدوَّ السياسي المشترك بين العائلتين – الأمويون والعبَّاسيون- هو البيت العلويُّ، ولهذا أبقى النظام الجديد الحاكم على السياسة القديمة التي استخدمها خصومهم لما رأوه من فاعليّتها وتأثيرها في الواقع الاجتماعي.

ومن باب التمثيل لا الاستقراء ننقل للقارئ هذا الشاهد ليعلم عظم المصيبة التى ابتلى بها تاريخ المسلمين: فقد نقل الذهبى في تاريخه: وفيها – سنة 234هـ- أظهر المتوكِّل السنَّة في مجلسه، وتحدّث بها، ووضع المحنة ونهى عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الآفاق، واستقدم المحدِّثين إلى سامراء، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم أن يحدِّثوا بأحاديث الصفات والرؤية[1].

وهذا النصُّ التاريخي يكشف أمورًا خطيرة جدًّا:

الأوَّل: الارتباط المباشر والمعلن بين المحدّثين وبين رأس السلطة المتمثِّل في الخليفة في ذلك الزمن بحيث يأخذ المحدِّثون والرواة أموالًا من الحكومة في مقابل تحديثهم!

الثاني: التدخُّل المباشر من الخليفة فيما يرويه هؤلاء بحيث هو الذي يحدِّد لهم ما يجوز وما لا يجوز أن يحدَّث به، وبالتالي فنحن أمام "إعلام موجَّه" مرتبط برأس هرم السلطة وليس حتّى بوزارة إعلام كما هو الآن في بعض الدول!

---

(1) تاريخ الإسلام 17/ 13.

الثالث: خطورة المضامين التي وجّه المتوكّل الرواة للتحديث بها وهي أحاديث "الرؤية والصفات" وكذلك ما نهى عن القول به وهي قضيَّة "خلق القرآن" وكلُّ هذه الأمور تمسُّ أصل العقيدة وأركان الإيمان لا مجرّد قضايا جانبيّة!

وقد اعترف من ترجم له أنَّه كان ناصبيًّا[1] مبغضًا لأهل البيت، ونقلوا عنه كثيرًا من المواقف التي كان يعاقب فيها كلّ من نقل فضيلة لهم أو تجاهر بحبّه وودِّه للبيت العلوي:

فمن الأمور التي نقلوها ضربه لأحد علماء بلاطه لمجرَّد أنَّه حدَّث بفضيلة لآل محمد: ما رواه الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده: عن نصر بن علي، قال: أخبرني علي بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي، قال: حدثني أخي موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن حسين، عن أبيه، عن جدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ أخذ بيد حسن وحسين، فقال: من أحبَّني وأحبَّ هذين وأباهما وأمَّهما، كان معي في درجتي يوم القيامة(2).

ثمَّ ذكر بعد هذا الحديث هذه القصَّة: قال أبو عبد الرحمن عبد الله: لّما حدَّث بهذا الحديث نصر بن علي، أمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلَّمه جعفر بن عبد الواحد وجعل يقول له: هذا الرجل من أهل السنَّة، ولم يزل به حتى تركه، وكان له أرزاق فوفَّرها عليه

(1) سير أعلام النبلاء 9/ 502.

(2) تاريخ بغداد 15/ 389.

موسى، قلت: إنّما أمر المتوكل بضربه لأنّه ظنّه رافضيًّا، فلمّا علم أنّه من أهل السنة تركه[1].

ومن الأمور التي نقلت قتله لأحد كبار علماء عصره لمجاهرته بتفضيل الحسن والحسين على أبناءه، قال الذهبي: ويروى أنّ المتوكل نظر إلى ابنيه المعتز والمؤيد، فقال لابن السكّيت: من أحبّ إليك، هما أو الحسن والحسين؟ فقال: بل قنبر، فأمر الأتراك فداسوا بطنه، فمات بعد يوم، وقيل: حمل ميتًا في بساط[2].

علمًا أنّ كبار المحدِّثين كأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وابنا أبي شيبة ومحمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجّاج وغيرهم كانوا في عهد المتوكِّل العبّاسي، وقد أصبحت كتبهم بسبب هذا الدعم الحكومي المنقطع النظير مصدرا رئيسيًّا للمعارف الإسلاميَّة، وصارت هي المكوِّن للعقليَّة الشعبيَّة للمسلمين.

ولم تكن هذه الحالة خاصَّة بالمتوكِّل بل كان كلٌّ من سبقه على هذه الشاكلة، بل إنَّ التصدِّي للإشراف على ما يكتب كان قائمًا منذ بداية هذه الدولة. ودونك أبو جعفر المنصور وحادثته المعروفة مع مالك بن أنس صاحب المذهب حيث قال لمالك: اجعل العلم يا أبا عبد الله علمًا واحدًا، قال فقلت له: يا أمير المؤمنين إنّ أصحاب رسول الله ﷺ تفرّقوا في البلاد فأفتى كلٌّ في مصره بما رآه، وفي

(1) تاريخ بغداد 15/ 389.

(2) سير أعلام النبلاء 9/ 437.

طريق، إنَّ لأهل هذه البلاد قولًا ولأهل المدينة قولا ولأهل العراق قولًا تعدُّوا فيه طورهم، فقال: أمَّا أهل العراق فلست أقبل منهم صرفًا ولا عدلًا، وإنّما العلم علم أهل المدينة فضع للناس العلم، وفي رواية فقلت له: إنّ أهل العراق لا يرضون علمنا، فقال أبو جعفر: يضرب عليه عامّتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط[1].

كتبه المنتصرون:

بعد هذا العرض المطوّل تبيَّن للقارىء أنّ كتابة التاريخ كانت خاضعة بالدرجة الأولى للأجندات السياسيَّة التي يرسمها بلاط الحاكم، بل كان الخليفة يتدخَّل بنفسه ويشرف على كتابة التاريخ والسيرة والأحاديث، لأنَّ الدين كان رأس حربة في كلِّ النزاعات والصراعات السياسيّة التي حصلت في الإسلام، ومن أهمِّ هذه الصراعات قضيَّة "الإمامة"، التي كانت ولازالت محور اهتمام المسلمين وسبب اختلافهم، ونعم ما قاله الشهرستاني: الخلاف الخامس في الإمامة وأعظم خلاف بين الأمَّة خلاف الإمامة إذ ما سلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلَّ على الإمامة في كل زمان[2].

---

(1) ترتيب المدارك 2/ 71.

(2) الملل والنحل 1/ 24.

ومن ثمَّ فإنَّ التاريخ الإسلامى هو من أجلى مصاديق المقولة الشهيرة "التاريخ يكتبه المنتصرون"؛ إذ إنَّ إشراف هؤلاء الخلفاء على كتابة التاريخ وتدخُّلهم في كلِّ صغيرة وكبيرة فيه لم يكن إلَّا لأجل إعطاء الشرعيَّة لحكمهم وتثبيت عروشهم، وعلى هذا لا يمكننا الفصل بين الظروف السياسيَّة التى عايشها المسلمون وبين ما كُتب في تاريخهم ونُسب لنبيِّهم ﷺ.

2

المؤرِّخون بين التأثير والتأثُّر

تقدَّم الكلام حول التأثير الحكومي في عمليَّـة تـدوين التـاريخ والسيرة النبويَّة، لكن هل كان العامل السياسي هو العامل الوحيـد المؤثِّر في عمليَّة كتابة التـاريخ أم توجـد عوامـل أخـرى لهـا دخالـة وتأثير في هذه العمليَّة الخطيرة؟

إنَّ الوقوف على المؤثِّرات المختلفـة التـي لعبـت دورًا كبـيرًا في عمليَّة كتابة التاريخ أمر مهمٌّ جدّا لفهم ما كتب بل حتّى لمعرفة ما لم يُكتب، فليس كلُّ ما حصل في التاريخ دوِّن، بل هنـاك عـددًا كبـيرًا

من الأحداث التاريخيَّة أهمل أو تُعمِّد إهماله بسبب هذه العوامل المؤثِّرة التي نحن بصدد التعرُّض لها، فما تقدَّم كان العوامل الخارجيَّة التي تُؤَثر على المؤرِّخ وكاتب السيرة، أمَّا في هذا الفصل فنتعرَّض للعوامل الذاتيَّة النفسيَّة المؤثِّرة.

لعبة الركح المسرحي

لعلَّ كلُّ من حضر المسرح الكلاسيكي أدرك لعبة الضوء التي يقوم بها المخرج على الركح المسرحي وهي تسليط الضوء على خصوص الأشياء التي يريد منك أن تراها، فكلُّ "ديكور" المشاهد المختلفة موجود على ركح المسرح إلَّا أنَّ لعبة تسليط الأضواء تمنعك من ملاحظة ذلك وتجذب نظرك إلى بقعة الضوء فقط.

وهذا ما حصل في كتب التاريخ، حيث إنَّ المؤرّخين قد لعبوا هذه اللعبة بتركيز كتاباتهم على جانب من الأحداث، وإهمال متعمَّد لجوانب أخرى يرى المؤرِّخ أنّه ليس من مصلحته الشخصيّة أو المصلحة العامّة أن يبثّها بين الناس، ولذلك فإنَّه يتعمَّد إسقاطها وتجنُّب التعرُّض لها، وحتَّى لو ذكرها في كتبه فإنَّه يدرجها بصورة لا ينتبه لها القارىء البسيط.

ومن أشمِّ الأمثلة على ذلك كتاب "السيرة النبويّة" لـ(ابن هشام الحميري) الذي يُعتبر المصدر الأشهر للسيرة النبويَّة عند المسلمين اليوم، وبالرجوع إلى مقدِّمة هذا الكتاب نقف على حقيقة مهمَّة جدًّا: وهي أنَّ هذا الكتاب المتداول ليس إلَّا اختصارًا مخلًّا

لكتاب السيرة النبويَّة لـ(محمد ابن إسحاق المطلبي) وليس كتابًا ألَّفه ابن هشام!

قال في المقدِّمة: وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، ممَّا ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارًا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته[1].

وهذا الكلام المتقدِّم يعتبر اعترافًا خطيرًا يبيِّن لنا خطورة الواقع التاريخي الذي نقل لنا:

فما الأشياء التي يشنع الحديث بها؟

وما الأشياء التي يسوء بعض الناس ذكرها؟

وما الأشياء التي لم يقرُّ البكائي -راوي السيرة- بروايتها[2]؟

كلُّ هذه الأسئلة تُعتبر أسئلة مفصليَّة في البحث التاريخي، إذ

---

(1) السيرة النبويّة 1/ 3.

(2) كلامه يدلُّ على أنَّ سيرة ابن إسحاق قد هذِّبت مرتين: الأولى على يد زياد البكَّائي والثانية على يد ابن هشام الحميري، وعليه فكتاب السيرة النبويّة المتداول اليوم تحت عنوان سيرة ابن هشام ليس إلَّا سيرة ابن إسحاق بعد خضوعها لمقصِّ الرقابة مرَّتين أو أكثر.

أنّه يدلُّ على تدخُّل المؤرَّخين أنفسهم في التلاعب بالأحداث التاريخيَّة وعدم أمانتهم في نقل ما وصل إليهم، فالمؤرَّخون وكُتّاب السيرة لم يكن همُّهم النقل التاريخي بل كانت عندهم عمليّة انتقاء لما يجوز وما لا يجوز نقله، والأهمُّ من هذا أنّه لا توجد ضوابط واضحة يعتمد عليها في مثل هذا الانتقاء سوى الذوق الشخصي، وللقارىء أن يتخيَّل كمَّ الأحداث التي أسقطها المؤرِّخون بناء على أهوائهم الشخصيّة!!

العامل المذهبي

إنَّ من كتب تاريخ المسلمين هم أفراد لا مجموعات أو مؤسَّسات كما في عصرنا هذا، ومن الطبيعيِّ أنّ الفرد هو ابن بيئته حيث إنَّ الإطار الزماني والمكاني الذي يعايشه يؤثِّر فيه تأثيرًا مباشرًا، ومن أهمَّ الأمور التي تُؤثر في نظرة المؤرّخ للتاريخ هي خلفيّته المذهبيَّة: إذ أنَّ أغلب الاختلافات المذهبيَّة في الداخل الإسلامي مردّها إلى بعض الأحداث التاريخيَّة، وبالتالي فإنَّ التسليم بصحّتها أو قراءتها قراءة موضوعيَّة قد تؤدِّي إلى هدم كلِّ البناء المذهبي القائم على قراءة أخرى لهذه الأحداث.

ولكي لا يكون كلامنا مجرَّد تنظير، نذكر لكم بعض الشواهد على ذلك:

فمن الشواهد ما رواه الحاكم في مستدركه بسنده: عن أبي الأزهر، قال: ثنا عبد الرزاق، أنبأ معمر، عن الزهري، عن عبيد الله

بن عبد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نظر النبي ﷺ إلى عليّ فقال: «يا علي، أنت سيِّد في الدنيا، سيّد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوُّي، وعدوّي عدوّ الله، والويل لمن أبغضك بعدي» صحيح على شرط الشيخين، وأبو الأزهر بإجماعهم ثقة، وإذا تفرَّد الثقة بحديث فهو على أصلهم صحيح[1].

والمهمُّ في هذا الخبر القصَّة التي أردف بها الحاكم النيسابوري هذا الحديث، قال: سمعت أبا عبد الله القرشي يقول: سمعت أحمد بن يحيى الحلواني يقول: لما ورد أبو الأزهر من صنعاء وذاكر أهل بغداد بهذا الحديث أنكره يحيى بن معين، فلمَّا كان يوم مجلسه، قال في آخر المجلس: أين هذا الكذَّاب النيسابوري الذي يذكر عن عبد الرزاق هذا الحديث؟ فقام أبو الأزهر، فقال: هو ذا أنا، فضحك يحيى بن معين من قوله وقيامه في المجلس فقرَّبه وأدناه[2].

وهناك نموذج آخر للتعامل مع هذا الحديث نفسه وهو جواب "أبو حامد بن الشرقي" حين سئل عنه، قال: هذا حديث باطل، والسبب فيه أنّ معمرا كان له ابن أخ رافضي، وكان معمر يمكّنه من كتبه فأدخل عليه هذا الحديث، وكان معمر رجلًا مهيبا لا يقدر

---

(1) المستدرك 3/ 138.

(2) المستدرك 3/ 138.

عليه أحد في السؤال والمراجعة، فسمعه عبد الرزاق في كتاب ابن أخي معمر[1].

والسؤال المهمُّ هنا:

لماذا سارع يحيى بن معين إلى إنكار الخبر مع جهله بالراوي؟

ومن أين علم ابن الشرقي بدسِّ هذا المجهول الحديث في الكتاب؟

إنَّ الجواب على هذه الأسئلة في تعليق الذهبي على هذا الخبر في بعض كتبه، قال: مع كونه ليس بصحيح فمعناه صحيح سوى آخره، ففي النفس منها شيء، وما اكتفى بها حتَّى زاد: "وحبيبك حبيب الله، وبغيضك بغيض الله، والويل لمن أبغضك"، فالويل لمن أبغضه، هذا لا ريب فيه، بل الويل لمن يغضّ منه أو غضّ من رتبته ولم يحبه كحب نظرائه أهل الشورى رضي الله عنهم أجمعين[2].

فالباعث على إنكار الخبر هو باعث نفسيٌّ وليس باعثا علميا، وسبب هذه الحالة النفسيّة هو الانتماء المذهبي لشمس الدين الذهبي الذي رأى من هذا الحديث تفضيلًا للإمام عليٍّ بن أبي طالب على بقيَّة الخلفاء والعشرة المبشَّرين بالجنَّة ولهذا سارع بإنكار هذا الحديث رغم صحَّة سنده بحسب علم الحديث.

---

(1) تاريخ بغداد 4/ 161.

(2) ميزان الاعتدال 2/ 613.

بل هناك حديث آخر بالمضمون نفسه تقريبًا لكن بدرجة أعلى من الصحَّة وهو قول النبى ﷺ للإمام علىّ: "لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلَّا منافق[1]"، فرغم وجوده في صحيح مسلم -المجمع على صحَّته- إلّا أنَّ ذلك لم يشفع له من التوقُّف فيه لنفس النكتة الأولى وهى الخلفيَّة المذهبيَّة للمؤرِّخ، حيث قال الذهبى تعليقًا عليه: وأصحُّ منهما ما أخرجه مسلم عن على قال: إنَّه لعهد النبى الأمىِّ ﷺ إليَّ: "إنَّه لا يحبُّك إلَّا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق"، وهذا أشكل الثلاثة فقد أحبَّه قوم لا خلاق لهم، وأبغضه بجهل قوم من النواصب، فالله أعلم[2].

فهذا الحديث لا إشكال فيه من ناحية الصحَّة، إلّا أنّ المشكلة فيه هو اصطدامه بالواقع المذهبى الذي يتبنّاه الذهبى، لأنَّ لازم هذا الحديث أنَّ كلَّ من أبغض على بن أبي طالب هو منافق، والمشكلة أنّ التاريخ قد نقل لنا وجود مجموعة من الشخصيات المقدّسة بحسب المنظومة المذهبيّة عند الذهبى قد أبغضوه بل شهروا سيوفهم عليه وقاتلوه، وهؤلاء لا يمكن اعتبارهم من المنافقين بأيّ حال من الأحوال!

من هنا نفهم أنَّ الانتماء المذهبى كان عاملًا مهمًّا في عمليَّة تدوين الأحداث التاريخيَّة، ولذلك فإنَّ تحليل شخصيَّة المؤرِّخ

(1) صحيح مسلم 1/ 61.

(2) سير أعلام النبلاء 12/ 571.

ومدى تعصُّبه الدينى يُعتبر أمرًا ضروريًا لتقييم صحّة النقل وسلامة التحليل التاريخى، إذ أنّ الذي يتعصَّب لمذهبه ولم يسلك طريق الموضوعيّة في البحث لا يمكن الركون لما يرويه من أحداث تقوّي توجُّهه المذهبى، والعكس صحيح فإنَّ رواية المؤرِّخ لما يخالف توجُّهه المذهبي يصلح أن يكون قرينة تؤيِّد صحَّة النقل والوثوق به.

الخطوط الحمراء:

إنَّ العامل المذهبي المتقدِّم كانت له تبعات كثيرة على كتب التاريخ والسيرة من أهمِّها رسم خطوط حمراء لا يمكن للمؤرِّخ أن يتجاوزها أو حتَّى أن يقترب منها، ومن أخطر هذه الخطوط المرسومة ما اصطلح عليه بقاعدة (الكفِّ عمَّا شجر بين الصحابة).

وهذه القاعدة لها جذور أمويَّة وهي قول عمر بن عبد العزيز – الذي تقدّم أنّه أوّل من فتح باب التدوين– عندما سُئل عن الجمل وصفِّين: تلك دماء كفَّ الله يدي عنها وأنا أكره أن أغمس لساني فيها[1]؛ ومنها تمّ التوسُّع في هذا الأمر وتأسيس هذه القاعدة عليه، وأصبحت القضيَّة أصلًا من أصول أهل السنَّة والجماعة بحيث تذكر في متون العقائد، ويكفينا نقل هذا النصِّ الجامع عن الآجري ليعلم القارىء خطورة الأمر:

فقد بوَّب في كتابه "الشريعة" بابًا كاملًا بسط فيه الكلام حول

---

(1) الطبقات الكبرى 5/ 394.

القاعدة: ينبغي لمن تدبَّر ما رسمناه من فضائل أصحاب رسـول الله ﷺ وفضائل أهل بيته رضى الله عـنهم أجمعـين أن يحـبَّهم ويـترحَّم عليهم ويـستغفر لهـم، ويتوسَّـل إلى الله الكـريم بهـم، ويـشكر الله العظيم إذ وفقه لهذا، ولا يذكر مـا شـجر بيـنهم ولا ينقـر عنـه ولا يبحث، فإن عارضنا جاهل مفتون قد خطئ به عـن طريـق الرشـاد فقال: لم قاتل فلان لفلان ولم قتل فلان لفلان وفلان؟ قيل له: ما بنا وبك إلى ذكر هذا حاجة تنفعنا ولا اضطررنا إلى علمها، فـإن قـال: ولم؟ قيل له: لأنَّها فتن شاهدها الصحابة رضى الله عنهم فكانوا فيها على حسب ما أراهم العلم بها وكانوا أعلـم بتأويلهـا مـن غـيرهم، وكانوا أهدى سبيلًا ممَّن جاء بعدهم لأنهم أهل الجنة، علـيهم نـزل القرآن وشاهدوا الرسول ﷺ وجاهدوا معه وشهد لهم الله عز وجل بالرضوان والمغفرة والأجر العظيم، وشهد لهـم الرسـول ﷺ أنَّهـم خير قرن، فكانوا بـالله عـز وجـل أعـرف وبرسـوله ﷺ وبـالقرآن وبالسنة، ومنهم يؤخذ العلم وفي قولهم نعيش، وبأحكامهم نحكـم وبأدبهم نتأدَّب ولهم نتبَّع وبهذا أمرنا، فإن قال: وإيش الذي يـضرُّنا من معرفتنا لما جرى بينهم والبحث عنه؟ قيل لـه: مـا لا شـكّ فيـه وذلك أنّ عقول القوم كانت أكبر من عقولنا، وعقولنا أنقص بكثير ولا نأمن أن نبحث عمَّا شجر بينهم فنزل عن طريق الحق ونتخلـف عمّا أمرنا فيهم، فإن قال: وبم أمرنا فيهم؟ قيل: أمرنا بالاستغفار لهم والترحُّم عليهم والمحبّة لهم والاتِّباع لهـم، دلَّ عـلى ذلـك الكتـاب والسنة وقول أئمَّة المسلمين، وما بنا حاجة إلى ذكر ما جرى بيـنهم،

قد صحبوا الرسول ﷺ وصاهرهم وصاهروه، فبالصحبة يغفر الله الكريم لهم، وقد ضمن الله عز وجل في كتابه أن لا يخزي منهم واحدًا، وقد ذكر لنا الله تعالى في كتابه أنّ وصفهم في التوراة والإنجيل، فوصفهم بأجمل الوصف ونعتهم بأحسن النعت، وأخبرنا مولانا الكريم أنّه قد تاب عليهم، وإذا تاب عليهم لم يعذّب واحدًا منهم أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون، فإن قال قائل: إنّما مرادي من ذلك لأن أكون عالما بما جرى بينهم فأكون لم يذهب على ما كانوا فيه لأني أحب ذلك ولا أجهله، قيل له: أنت طالب فتنة لأنّك تبحث عمّا يضرك ولا ينفعك، ولو اشتغلت بإصلاح ما لله ﷻ عليك فيما تعبدك به من أداء فرائضه واجتناب محارمه كان أولى بك، وقيل: ولا سيما في زماننا هذا مع قبح ما قد ظهر فيه من الأهواء الضالة، وقيل له: اشتغالك بمطعمك وملبسك من أين هو؟ أولى بك، وتكسُّبك لدرهمك من أين هو؟ وفيما تنفقه؟ أولى بك، وقيل: لا يأمن أن يكون بتنقيرك وبحثك عما شجر بين القوم إلى أن يميل قلبك فتهوى ما لا يصلح لك أن تهواه ويلعب بك الشيطان فتسبُّ وتبغض من أمرك الله بمحبّته والاستغفار له وباتباعه فتزلُّ عن طريق الحق وتسلك طريق الباطل(1).

وهذا الكلام كافٍ لإثبات كلِّ ما قدَّمناه، فليس الممنوع فقط

(1) الشريعة 5/ 2485

نقل هذه الأحداث بل حتَّى مجرَّد البحث في هذه الأحـداث لمجـرَّد العلم بما جرى فيها يعتبر طلبا للفتنة ودعوة لها، وإذا أضفت إليه ما ذكرنا من كون هذه القاعدة من أصول مذهب أهل السنَّة والجماعة، علمت أنَّ من خالفها سيكون عرضة للاتِّهام بالابتـداع وبـالخروج عن الصراط المستقيم، ومن هنا يتبيَّن لـك لمـاذا وصـفوا جملـة مـن المؤرِّخين بالتشيُّع والترفُّض: فالأمر لم يكن انتماء هؤلاء لهذا المذهب بل لأنَّهم نقلوا أحداث الفتن التي حصلت بين الصحابة فاستحقُّوا هذا النَّبذ وحكم عليهم بالخروج عن مذهب أهل السنَّة والجماعـة، ويشهد بهذا نسبتهم التشيّع لمثـل النـسائي والحـاكم وعبـد الـرزاق الصنعاني، فإنَّ هؤلاء أئمَّة الحديث بلا خلاف، لكـن لأنَّهـم نقلـوا فضائل أهل البيت ورووا بعض الأحداث الحسَّاسة، رمـوهم بهـذه التهمة ونسبوهم للتشيُّع!

تاريخنا الذي حُرق:

التزم المؤرِّخون وكتَّاب السير بهذه القاعدة لعـدَّة أسـباب، إلَّا أنَّ بعضهم قد خرق هذا القانون ونقل في مـصنَّفاته مـا وسـعه مـن الأحداث المهمَّة والمفصليَّة المتعلَّقة بما شجر بين الصحابة، ومن هنا تطوَّرت القضيَّة وأصبح السؤال هو: كيف نتعامـل مـع مـا وصـل وشاع من هذه الأخبار؟

يأتينا الجواب من الذهبي على هذا السؤال، فقد حسم القـضيَّة بقوله: كما تقرر عن الكفِّ عن كثير مما شجر بين الـصحابة وقتـالهم

رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا، فينبغي طيُّه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفَّر على حبِّ الصحابة، والترضِّي عنهم، وكتمان ذلك متعيَّن عن العامة وآحاد العلماء[1].

والخطير في هذا الكلام ليست دعوته لكتمان هذه الأحداث عن الناس وعدم نشرها، بل حثِّه على إعدام ما وصل إلينا من هذه الأمور، أي إتلاف كلِّ كتاب احتوى على "ما شجر بين الصحابة"، وبلغة أخرى إقصاء هذه الأحداث من صفحة التاريخ وكأنَّها لا وجود لها!

وهذا الكلام ليس مجرَّد تنظير، بل هي ممارسات تمَّ تطبيقها بالفعل على أرض الواقع وأتلفت بسببها الكتب والمصنَّفات التي احتوت ما يراه أصحاب هذه القاعدة خطرا على معتقداتهم التي ورثوها، وسنسوق بعض الشواهد على ذلك ليعلم القارىء الكريم عظم الجناية التي ارتكبت في حقِّ تاريخنا الإسلامي:

فمن الشواهد على ذلك الحادثة التي نقلها الخلَّال في سنَّته بسنده عن خالد بن خداش: جاء سلَّام بن أبي مطيع إلى أبي عوانة، فقال: هات هذه البدع التي قد جئتنا بها من الكوفة، قال: فأخرج إليه أبو عوانة كتبه، فألقاها في التنور، فسألت خالدًا: ما كان فيها؟

---

(1) سير أعلام النبلاء 8/ 276.

قال: حديث الأعمش، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: استقيموا لقريش، وأشباهه، قلت لخالد: وأيش؟ قال: حديث علي: أنا قسيم النار، قلت لخالد: حدَّثكم به أبو عوانة، عن الأعمش؟ قال: نعم[1].

وجعل أحمد بن حنبل هذه الحادثة خارطة طريق للتعامل مع هذه الكتب، فقد سأله أبو بكر المروذي: استعرت من صاحب حديثٍ كتابًا يعني فيه الأحاديث الرديئة ترى أن أحرقه أو أخرقه؟ قال: نعم، لقد استعار سلام بن أبي مطيع من أبي عوانة كتابًا فيه هذه الأحاديث فأحرق سلام الكتاب، قلت: فأحرقه؟ قال: نعم[2].

ولك أن تتخيَّل أخي القارىء كم من الكتب أتلفت بناء على هذه القاعدة؟ وكم من المصنَّفات أُحرقت تحت هذا البند؟، فهل بعد كلِّ هذا يمكن اعتبار ما وصل لنا هو التاريخ الصحيح دون زيادة ولا نقيصة؟

---

(1) السنة للخلال 510؛ إسناده صحيح

(2) السنة للخلال 510؛ العجيب من محقِّق كتاب السنَّة للخلال الدكتور عطيَّة الزهراني كيف أيَّد ما قاله أحمد بن حنبل وخرَّج لقوله فقهيًّا، قال: "ويعتبر من الأشياء الغير محترمة والتي ليست مضمونة، لأنَّها من الأمور التي تسبِّب الفرقة وتوغل صدور الناس على الصحابة رضوان الله عليهم"!؛ فإذا المحقق يحمل هذا الفكر ويؤيِّد إتلاف الكتب وتحريفها فعلى تراثنا وتاريخنا السلام.

سياسة الإرهاب:

تجاوز الأمر حرق الكتب ليصل إلى تسقيط الأشخاص، فقد مورست على الرواة ضغوط كثيرة لثنيهم عن نقل ما هو مرفوض في نظر علماء البلاط:

نبدأ بما روي عن أحمد بن حنبل إمام أهل الحديث حين سأله أبو بكر المروذي: فمن عرفته يكتب هذه الأحاديث الرديئة ويجمعها أيهجر؟ قال: نعم يستاهل صاحب هذه الأحاديث الرديئة الرجم[1]!

فهذا الذي حكم عليه الإمام أحمد بالرجم ليس لكذبه أو لوضعه الحديث بل لمجرَّد كتابته الأحاديث التي يسمِّيها المروذي: "أحاديث رديئة في أصحاب رسول الله ﷺ"!

وسأل أحدهم يحيى بن معين عن زكريا الكسائي أحد رواة الحديث، فقال: رجل سوء، يحدِّث بأحاديث سوء، قلت: فقد قال لي: إنَّك كتبت عنه، فحوّل وجهه وحلف بالله إنه لا أتاه ولا كتب عنه، وقال: يستأهل أن يحفر له بئر فيلقى فيها[2].

فهذا الراوي المسكين مستحقٌّ للإلقاء في البئر لسبب واحد وهو أنَّه يروي أحاديث لا تعجب يحيى بن معين، وقد ذكر ابن

---

(1) السنة للخلال 501؛ إسناده صحيح.

(2) ميزان الاعتدال 2/ 75.

عدي مضمون هذه الأحاديث السيِّئة فقال: وزكريا بن يحيى الكسائي هذا أكثر الأحاديث التي يرويها في فضائل أهل البيت الذي يقع فيه النكرة ومثالب غيرهم من الصحابة التي كلها موضوعات وهذا الذي قال ابن معين يحدث بأحاديث سوء إنما يرويه في مثالب الصحابة[1].

وقد طبَّق العامَّة توجيهات أئمَّة أهل الحديث فقتلوا إمام الجرح والتعديل صاحب السنن أحمد بن شعيب النسائي حيث أنَّه: فارق مصر في آخر عمره وخرج إلى دمشق فسئل عن معاوية وما روي من فضائله فقال: أما يرضي معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضَّل؟ وفي رواية أخرى: ما أعرف له فضيلة إلَّا لا أشبع الله بطنك -وكان يتشيَّع- فما زالوا يدفعون في حضنه حتَّى أخرجوه من المسجد، وفي رواية أخرى يدفعون في خصييه وداسوه ثم حمل إلى الرملة فمات بها[2].

فاتهامه بالتشيُّع وضربه حتّى الموت ليس إلَّا بسبب ذكره مثلبة في حقِّ معاوية وهي قول النبي ﷺ: لا أشبع الله بطنه[3]، واللطيف أنَّ شرَّاح الحديث قد جعلوها منقبة لمعاوية لا مثلبة له[4]، ورغم

(1) الكامل في ضعفاء الرجال 4/ 173.

(2) وفايات الأعيان 1/ 77.

(3) صحيح مسلم 8/ 27.

(4) قال ابن كثير في البداية والنهاية 8/ 128: قد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه، أمّا في دنياه فإنّه لمّا صار إلى الشام أميرا، كان يأكل في اليوم=

هذا نجدهم قتلوا النسائي لمجرّد أنّهم فهموا من سياق كلامه الثلب والانتقاص!

وعاقبوا أحد كبار الرواة وهو الحافظ ابن السقّا لا لشيء إلّا لأنّه روى حديثًا مخالفًا للذوق العام، قال الذهبي في ترجمته: واتفق أنّه أملى حديث الطير[1] فلم تحتمله نفوسهم فوثبوا به وأقاموه وغسلوا موضعه فمضى ولزم بيته فكان لا يُحدِّث أحدًا من الواسطيين؛ فلهذا قلّ حديثه عندهم[2].

وسبب ردّة فعلهم العنيفة ليس فقط لأنّ الحديث فيه فضيلة لعلي بن أبي طالب ، بل لأنّ البعض فهم من حديث الطير الطعن في باقي الصحابة، وقد نُقل عن ابن أبي داود السجستاني قوله: إن صحّ حديث الطير فنبوة النبي ﷺ باطل، لأنّه حكى عن حاجب النبي

= سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير ويصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئًا كثيرًا ويقول والله ما أشبع وإنّما أعيا، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك، وأمّا في الآخرة فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال: "اللهم إنّما أنا بشر فأيّما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلًا فاجعل ذلك كفّارة وقربة تقرّبه بها عندك يوم القيامة"، فركّب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك.

(1) كان عند النبي ﷺ طير فقال: "اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي هذا الطير " فجاء علي فأكل معه. (سنن الترمذي 5/ 300)

(2) تذكرة الحفاظ 3/ 117.

ﷺ خيانة - يعني أنسا- وحاجب النبيِّ لا يكونَ خائنًا[1].

وفي حال لم يرتدع الراوي ولم يخف من هذا الإرهاب فإنَّ الحلَّ هو تسقيطه والطعن فيه بحيث لا يبق لقوله أيِّ حجيَّـة، وقـد روى الخلال عن أحمد بن حنبل رواية تبيِّن هذا المنهج الذي اختطّه لأهـل الحديث: عن أبي الحارث قال: سألت أبا عبـد الله [يعنـي أحمـد بـن حنبل] قلت: هذه الأحاديث التـي رُويـت في أصـحاب النبـي ﷺ ترى لأحد أن يكتبها؟ قـال: لا أرى لأحـد أن يكتـب منهـا شـيئًا، قلت: فإذا رأينا الرجل يطلبها ويسأل عنها، فيها ذكـر عـثمان وعـلي ومعاوية، وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ، قال: إذا رأيـت الرجـل يطلب هذه ويجمعها، فأخاف أن يكون له خبيئة سوء[2]!

(1) سير أعلام النبلاء 10/ 348؛ إنَّ سبب هذا الكلام هـو مـا ورد في بعـض طرق الحديث من أنَّ أنسا حجب عليًا ومنعه مـن الـدخول، قـال المحـبُّ الطبري: أهدي لرسول الله ﷺ طير وكان مما يعجبه أكله، وزاد بعد قولـه: فجاء علي بن أبي طالب فقال: استأذن على رسول الله ﷺ فقلـت مـا عليـه إذن، وكنت أحبُّ أن يكون رجلًا من الأنصار، وخرجه عمر بـن شـاهين ولم يذكر زيادة الحربي، وقال بعد قوله: فجاء علي فرددته، ثم جاء فرددتـه، فدخل في الثالثة أو في الرابعة، فقال له النبي ﷺ: ما حبسـك عنِّـي، أو مـا أبطأ بك عنِّي يا علي، قال: جئت فردّني أنس، ثم جئت فردني أنس، قال يا أنس، ما حملك على ما صنعت؟ قال: رجوت أن يكون رجلًا من الأنصار خير من عليٍّ أو أفضل من عليٍّ. (الرياض النضرة 3/ 115)

(2) السنة للخلال: 519.

فقد حكم أحمد بن حنبل عليه بأنَّ لـه خبيئـة سـوء لمجـرَّد أنَّـه يسعى لكتب هذه الأحاديث!

وفيما بعد تطوَّرت القضيَّة إلى الحكـم عـلى الـراوي بالـضعف والوهن لمجرّد روايته أخبارا مخالفة للرواية الرسـميّة التـي حـدّدت بناء على اختيـار بـلاط الخليفـة، وهـذا المـنهج اتبعـه أئمّـة الجـرح والتعديل القدامى، وجلَّ تقييماتهم مبنيَّة على سبر مرويَّات الـراوي والحكم عليه من خلالها، وسأعطي القارىء العزيز بعض الشواهد التي تثبت ما ذكرناه:

فمن الشواهد طعن أحمد بن حنبل في عبد الـسلام بـن صـالح أبو الصلت الهروي بناء على رواياته، فقد روى الخطيـب البغـدادي مسندًا عن المروذي قال: وسُئل أبو عبد الله عن أبي الـصلت فقـال: روى أحاديث مناكير، قيل له: روى حديث مجاهـد عـن عـلي "أنـا مدينة العلم وعلي بابها" قال: ما سمعنا بهذا، قيل له: هذا الذي تنكر عليه؟ قال: غير هذا، أمَّا هذا فما سمعنا به، وروى عن عبد الـرزاق أحاديث لا نعرفها ولم نسمعها، قيل لأبي عبد الله: قد كان عند عبـد الرزاق من هذه الأحاديث الردية؟ قال: لم أسمع منها شيئًا[1].

والأحاديث المنكـرة نُـصَّ عليهـا في المـصدر نفسه: وسـألت إسحاق بن إبراهيم عن تلك الأحاديث وهي أحاديث مرويَّة نحـو ما جاء في أبي موسى، وما روي في معاوية فقال: هذه أحاديـث قـد

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 49.

رويت، قلت: فتكره كتابتها وروايتها، والرواية عمَّن يرويها؟ فقال: أمَّا من يرويها على طريق المعرفة فلا أكره ذلك، وأمَّا من يرويها ديانة ويريد عيب القوم فإنِّي لا أرى الرواية عنه[1].

ومنها طعن يحيى بن معين في الراوي محمد بن كثير القرشي: وكان يحيى بن معين يحسن القول فيه، وقال ابن الجنيد قلت ليحيى: إنَّه روى أحاديث منكرات، قال: ما هي؟ فذكرت له أحاديث فقال: من روى هذا عنه؟ قلت: رجل من أصحابنا، فقال: إن كان الشيخ روى هذا فهو كذَّاب، وإلَّا فأنا رأيت حديثه مستقيما[2].

ومنها جواب أبي داود عندما سئل عن جبارة بن المغلس الحماني، قال: لم أكتب عنه، في أحاديثه مناكير، لم أكتب عنه، ما زلت أراه وأجالسه، كان رجلا صالحا[3].

فجرحهم في الرواة ليس مبنيًّا على معاشرة أو سؤال عن صدقهم وكذبهم، بل هو مبنيٌّ على سبر أحاديث الراوي والحكم عليه من خلالها، وفي هذا يقول المعلمي: وهذا كلّه يدلُّ على أنَّ جلَّ اعتمادهم في التوثيق والجرح إنّما هو على سبر حديث الراوي[4].

وحيث إنَّ الحكومات قد فرضت لونًا خاصًّا من الروايات

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 49.

(2) لسان الميزان 5/ 352.

(3) سؤالات الآجري لأبي داود 1/ 19.

(4) التنكيل 1/ 156.

فإنَّ كلَّ من يروي شيئا مخالفا للذوق العام سيكون عرضة للتضعيف وهذا ما يجعلنا نتوقَّف لا فقط فيما يروى من أخبار السيرة كما قدَّمنا بل حتَّى في أحكام أئمَّة الجرح والتعديل والتي بها تسقط الروايات وتُرمى بالضعف والوضع.

وقد أنتجت لنا هذه السياسة التي اتبعها الحفَّاظ وأئمَّة الحديث أمرًا في غاية الخطورة من شأنه أن يغيِّر كلَّ معطيات السيرة والتاريخ والحديث وهو تضعيف كلِّ شيعيّ أو متّهم بالتشيّع لأهل البيت النبوي بسبب رواياته ووثاقة كلّ معاد لهم، وقد عبّر ابن حجر العسقلاني على هذه الحالة بقوله: وقد كنت أستشكل توثيقهم الناصبي غالبا وتوهينهم الشيعة مطلقًا ولا سيما أنّ عليًّا ورد في حقِّه لا يحبُّه إلَّا مؤمن ولا يبغضه إلَّا منافق[1]؛ وبالتالي فإنَّ السيرة الصحيحة بحسب هذه الموازين هي خصوص السيرة التي يرويها النواصب المبغضون لأهل البيت النبوي.

---

(1) تهذيب التهذيب 8/ 411؛ الأعجب من هذا الواقع هو تبرير ابن حجر العسقلاني له، حيث برَّر توثيقهم للنواصب وأخذهم بمرويّاتهم بأنَّهم أهل صدق بخلاف الروافض، قال: فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهورًا بصدق اللهجة والتمسك بأمور الديانة بخلاف من يوصف بالرفض فإن غالبهم كاذب ولا يتورع في الإخبار والأصل فيه أن الناصبة اعتقدوا أن عليًّا ﷺ قتل عثمان أو كان أعان عليه فكان بغضهم له ديانة بزعمهم ثم انضاف إلى ذلك أن منهم من قُتلت أقاربه في حروب علي.

وممَّا تقدَّم يتَّضح أنَّه لا يمكن الاعتماد على قواعد علم الحديث المتداولة الآن، إذ إنَّ هذا العلم صيغ بطريقة تؤدِّي إلى النتائج التي يريدها الحكَّام وهي إقصاء كلَّ ما له علاقة بأهل البيت النبوي، والعجيب أنَّ بعض كبار النقَّاد قد اعترف بهذه الحقيقة، فمثلا نجد أنَّ المعلّمي اليماني يعترف أنّهم اخترعوا قاعدة "رواية المبتدع[1]" لأجل التخلُّص من مرويات الكوفيِّين في فضائل أهل البيت، قال: والجوزجاني[2] فيه نَصْب، وهو مولع بالطعن في المتشيِّعين كما مر،

---

(1) وهي أنَّ المبتدع الثقة تردُّ روايته إذا كانت فيما يقوِّي بدعته، فلا تقبل رواية الشيعة في فضائل أهل البيت، ولا رواية الخوارج مثلًا في قضيَّة الخروج بالسيف وهكذا...

(2) الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب السعدي، وقد نقل ابن حجر صورًا من نصبه في كتابه في تهذيب التهذيب 1/ 159: وقال ابن حبان في الثقات: كان حروري المذهب، ولم يكن بداعية، وكان صلبًا في السنة، حافظا للحديث، إلَّا أنَّه من صلابته ربَّما كان يتعدَّى طوره، وقال ابن عدي: كان شديد الميل إلى مذهب أهل دمشق في الميل على علي، وقال السلمي عن الدارقطني بعد أن ذكر توثيقه: لكن فيه انحراف عن عليٍّ، اجتمع على بابه أصحاب الحديث، فأخرجت جارية له فرُّوجة لتذبحها، فلم تجد من يذبحها، فقال: سبحان الله، فرَّوجة لا يوجد من يذبحها، وعليٌّ يذبح في ضحوة نيِّفا وعشرين ألف مسلم، قلت: وكتابه في الضعفاء يوضح مقالته، ورأيت في نسخة من كتاب ابن حبان: حَرِيْزِيُّ المذهب، وهو بفتح الحاء المهملة، وكسر الراء، وبعد الياء زاي، نسبةً إلى حريز بن عثمان المعروف بالنصب، وكلام ابن عدي يؤيِّد هذا.

ويظهر أنّه إنّما يرمي بكلامه هذا إليهم[1]، فإنَّ في الكوفيين المنسوبين إلى التشيُّع جماعة أجلَّة اتَّفق أئمَّة السنَّة على توثيقهم، وحسن الثناء عليهم، وقبول روايتهم، وتفضيلهم على كثير من الثقات الذين لم يُنسبوا إلى التشيُّع، حتَّى قيل لشعبة: حدَّثنا عن ثقات أصحاب، فقال: إن حدَّثتكم عن ثقات أصحابي فإنَّما أحدِّثكم عن نفر يسير من هذه الشيعة، الحكم بن عتيبة، وسلمة بن كهيل، وحبيب بن أبي ثابت، ومنصور. راجع تراجم هؤلاء في تهذيب التهذيب، فكأنَّ الجوزجاني لمّا علم أنّه لا سبيل إلى الطعن في هؤلاء وأمثالهم مطلقًا حاول أن يتخلَّص ممَّا يكرهه من مرويَّاتهم، وهو ما يتعلق بفضائل أهل البيت[2].

---

(1) لا خلاف بينهم في أنَّ أساس هذه القاعدة هو الجوزجاني، قال السخاوي في فتح المغيث 1/ 331: قال شيخنا إنَّه قد نصَّ على هذا القيد في المسألة الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني شيخ النسائي، فقال في مقدّمة كتابه في الجرح والتعديل: ومنهم زائغ عن الحقّ صدوق اللهجة، قد جرى في الناس حديثه، لكنَّه مخذول في بدعته، مأمون في روايته، فهؤلاء ليس فيهم حيلة إلَّا أن يؤخذ من حديثهم ما يُعرف، وليس بمنكر، إذا لم تقو به بدعتهم فيتّهمونه بذلك.

(2) التنكيل 1/ 124؛ ولو أضفنا لهذه القاعدة ما تقدّم من أنّ الراوي يقيّم تبعا لمرويّاته فيمكن أن نقف على هذه النتيجة: من يروي أحاديث في فضائل العترة أو فيما شجر بين الصحابة يكون شيعيًّا ← ومن يكون شيعيًّا لا تقبل روايته لأنَّه مبتدع وهذه الروايات تقوّي بدعته ← إذن هذه الروايات ضعيفة سندًا وغير مقبولة.

وقد تحدَّث علَّامة المغرب أحمد بن صدِّيق الغماري عن هذه القاعدة بما يشفي الغليل ويبرىء العليل فقال: وأما اشتراط – أي لقبول روايته - كونه روى ما لا يؤيِّد بدعته، فهو من دسائس النواصب[1] التي دسُّوها بين أهل الحديث ، ليتوصَّلوا بها إلى إبطال كل ما ورد في فضل عليٍّ عليه السلام، وذلك أنَّهم جعلوا آية تشيُّع الراوي وعلامة بدعته هو روايته فضائل عليٍّ عليه السلام كما ستعرفه، ثم قرَّروا أنَّ كل ما يرويه المبتدع -ممَّا فيه تأييد لبدعته- فهو مردود ولو كان من الثقات، والذي فيه تأييد التشيُّع في نظرهم هو فضل عليٍّ وتفضيل، فينتج من هذا أن لا يصحُّ في فضله حديث، كما صرّح به بعض من رفع جلباب الحياء عن وجهه من غلاة النواصب، كابن تيمية وأضرابه[2].

---

(1) لا شكَّ أنَّ بني أميَّة هم من رسَّخ النصب في هذه الأمَّة لأسباب سياسيَّة معروفة، وقد اختصر الذهبي الحال في عبارة لطيفة ذكر فيها دور معاوية في تربية جيل كامل على النصب، قال في سير أعلام النبلاء 3/ 128: وخلف معاوية خلق كثير يحبُّونه ويتغالون فيه ويفضِّلونه، إمَّا قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمَّا قد ولدوا في الشام على حبِّه، وتربَّى أولادهم على ذلك، وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشؤوا على النصب، نعوذ بالله من الهوى.

(2) فتح الملك العليّ 112، وفي كلامه إشارة إلى ما استقرّ عليه رأي المتأخِّرين من التفصيل في رواية المبتدع بردِّ روايته التي تقوِّي بدعته وقبول ما سواها!

الخلاصة:

إنَّ الاطلاع على هذه الأمور المختلفة ومعرفة التأثير تجعل من الإنسان يتوقَّف في كلِّ ما نقلته هذه الكتب، ولا يستبعد وقوع أيّ حدث تاريخيٍّ لمجرَّد عدم وجوده في الكتب المشهورة، التي كتبت تحت الضغوط السياسيّة والمذهبيَّة المختلفة، أو أنّه روي فيها لكنّه رمي بالضعف، فلا تتعجَّب أخي القارىء إذا مرَّت بك في مطاوي هذا الكِتَاب، أحداث تاريخيَّة لم تسمع بها، فليس كلُّ ما لم تسمع به هو غير موجود، وليس كلّ ما لم يُرو في الموسوعات التاريخيّة المشهورة هو مختلق، بل المقياس في كلِّ ذلك هو البحث الموضوعي المنصف الذي يقودنا لمعرفة الحقِّ.

3

السيرة المؤدلجة

قبل أن ندخل في صميم البحث ونخوض في غمار التاريخ، لابدَّ لنا من الوقوف ولو بنحو الإجمال على المصادر الأولى للسيرة النبويَّة لنشير إلى انعكاس الأمور التي قدَّمناها على هذه المصادر، وليعلم القارىء أنَّ ما ذكرناه لم يكن مجرَّد احتمال، بل هو أمر واقع في المصادر الأصليَّة للسيرة، والتي لا يمكن أن يستغنى عنها بأيِّ حال من الأحوال.

والأشخاص الذين سنتعرَّض إليهم هم أساس رواة السيرة؛

بحيث قلّما يخلو إسناد رواية من الروايات التي سنتعرّض إليها من الأسماء، وقد جمع الصالحي الشامي أسماء أهمّ رواة السيرة فقال: أوّل من صَنَّفَ في المغازي عروة بن الزبير أحد أئمة التابعين، ثم تلاه تلميذاه : موسى بن عقبة، ومحمد بن شهاب الزهري، قال الإمام مالك رحمه الله: مغازي موسى بن عقبة أصحُّ المغازي، وقول السهيلي: إنَّ مغازي الزهري أوَّل ما صنَّف في الإسلام ليس كذلك، وأجمع الثلاثة وأشهرها مغازي أبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي مولاهم المدني نزل العراق رحمه الله تعالى، وقد تكلَّم فيه جماعة وأثنى عليه آخرون، والمعتمد أنَّه صدوق يدلِّس، وإذا صرَّح بالتحديث فهو حسن الحديث، قال الإمام الشافعي رحمه الله: من أراد أن يتبحَّر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق، وقد اعتمد عليه في هذا الباب أئمّة لا يحصون، ورواها عن جمع، ويقع عند بعضهم ما ليس عند بعض، وقد اعتمد أبو محمد عبد الملك بن هشام رحمه الله على رواية أبي محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي، بفتح الموحدة وتشديد الكاف، وهو صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين، فرواها ابن هشام عنه وهذَّبها ونقَّحها، وزاد فيها زيادات كثيرة، واعترض أشياء سلم له كثير منها، بحيث نُسبت السيرة إليه[1].

---

(1) سبل الهدى والرشاد 4/ 11.

أضف إلى هؤلاء أبان بن عثمان الذي ذهب بعضهم[1] إلى أنَّه أوَّل من صنَّف في هذا الفن، وقد نقل ابن سعد ما يؤيِّد هذا المعنى عند حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن، قال: وقد روي عنه وكان ثقة قليل الحديث إلَّا مغازي رسول الله ﷺ أخذها من أبان بن عثمان فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها[2].

عروة بن الزبير (توفي 93 هـ):

من الشخصيَّات التي كان لها نصيب الأسد من مرويَّات السيرة: عروة بن الزبير بن العوَّام، ولا يخفى على أيِّ مطِّلع على التاريخ الإسلامي أنَّ البيت الزبيري كان له توجُّه سياسي خاص، وقد استطاعوا في بعض الفترات أن يستقلُّوا بحكمهم عن بني أميَّة ويؤسِّسوا دولتهم الخاصة في الحجاز والتي كان حاكمها عبد الله بن الزبير شقيق عروة، ومن هنا كان الانتماء السياسي قويًّا عند الرجل بحيث أثَّر على مروياته.

ويكفينا دليلًا على توجُّه ما رواه ابن عبد البر مسندًا عن سعيد بن جبير قال عن ابن عباس قال: تمتَّع رسول الله ﷺ، فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: ما تقول يا عُريَّة[3]؟

---

(1) الأعلام للزركلي 1/ 27.

(2) الطبقات الكبرى 5/ 210.

(3) عُريّة تصغير لعروة، وهي للدلالة على التحقير فعروة بن الزبير تابعي في حين أنَّ عبد الله بن عباس صحابي بلا خلاف بل من الذين شهدوا حجَّ النبي ﷺ.

قال: نقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال: أراهم سيهلكون، أقول قال رسول الله ﷺ ويقولون قال أبو بكر وعمر[1].

فكلام ابن عبَّاس صريح في أنّ الرجل كان متشبّعًا بما أملته حكومات ذلك العصر بحيث يقدِّم تشريعاتهم حتَّى على سنَّة رسول الله ﷺ، وسيأتيك أنَّ المنع من التمتّع في الحجِّ هو قرار سياسي بامتياز.

وكما كان بنو أميَّة يجهرون بالعداء للبيت العلوي، فقد كان الزبيريُّون يُضمرون هذا الأمر إلَّا أنَّه يظهر أحيانًا على فلتات ألسنتهم، وقد نقل لنا التاريخ بعض الشواهد على ذلك:

فمنها الحوار الذي دار بين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والذي كشف المكنون وأظهر المستور:... فقام ابن عباس فدخل على ابن الزبير فقال له: ما ينقضي عجبي من تنزيك على بني عبد المطلب، تخرجهم من حرم الله وهم والله أولى به وأعظم نصيبا فيه منك، إنَّ عواقب الظلم لتردَّ إلى وبال، فقال ابن الزبير: ما منك عجب، ولكن من نفسي حين أدعك تنطق عندي ملأ فيك، فقال ابن عباس: والله ما نطقت عند أحد من الولاة أخسُّ منك، قد والله نطقت غلامًا عند رسول الله ﷺ وأبي بكر، ونطقت رجلًا عند عمر وعثمان وعلي يروني أحقَّ من نطق، فيستمع لرأيي وتقبل مشورتي

---

(1) جامع بيان العلم وفضله 2/ 196.

وكل هؤلاء خير منك ومن أبيك، فقال ابن الزبير: والله لئن كنت لي ولأهلي مُبغضًا، لقد كتمت بغضك وبغض أهل بيتك مذ أربعون سنة، فقال ابن عباس: ذلك والله أبلغ إلى حاعريتك بغضي، والله ضرَّك وآثمك إذ دعاك إلى ترك الصلاة على النبي ﷺ في خطبك، فإذا عوتبت على ذلك، قلت: إنّ له [النبي ﷺ] أهيل سوء، فإذا صلَّيت عليه تطاولت أعناقهم وسمت رؤسهم، فقال ابن الزبير: اخرج عنِّي فلا تقربني، قال: أنا أزهد فيك من أن أقربك، ولأخرجنَّ عنك خروج من يذمك ويقليك، فلحق بالطائف فلم يلبث إلا يسيرا حتى توفِّي[1].

وقد حصلت هذه المناقشة بعد أن استولى عبد الله بن الزبير على حكم الحجاز ونكَّل ببني هاشم، فقد ورد في بعض المصادر التاريخيَّة: فلمّا يئس ابن الزبير من بيعة ابن الحنفية وأصحابه وقد فسدت عليه الكوفة، وغلب المختار ابن أبي عبيد الثقفي عليها وأخرج ابن مطيع عامله عنها، ودعت الشيعة بها لابن الحنفية، ثقل عليه مكان ابن الحنفية معه، وخشي أن يتداعى الناس إلى الرضى به، فحبسه وأهل بيته ومن كان معه من أصحابه أولئك بزمزم، ومنع الناس منهم ووكَّل بهم الحرس، ثم بعث إليهم: أعطي الله عهدا لئن لم تبايعوني لأضربنَّ أعناقكم أو لأحرقنَّكم بالنار، وكان رسوله بذلك عمرو بن عروة بن الزبير، فقال له ابن الحنفية: قل لعمِّك لقد

---

(1) أنساب الأشراف 3/ 290.

أصبحت جريئًا على الدماء منتهكًا للحرمة متلثلثًا في الفتنة[1].

فمن كان من هذا البيت، فلابدَّ أن يكون قد تشبَّع بهذه الخلفيَّات السياسيَّة والمذهبيَّة والتي وصلت إلى الاقتتال وسفك الدماء بين البيت الزبيري والبيت العلوي كما في معركة الجمل، ولابدَّ أن تنعكس هذه الخلفيَّات على آرائه كما قدَّمنا في الفصول السابقة.

وأكثر من روى عن عروة مغازيه ابنه هشام، فأغلب أسانيد عروة في كُتب الحديث: هشام عن عروة عن عائشة، وقد اتُّهم هشام من قِبَل بعض كبار علماء عصره بالكذب، وعلى رأس هؤلاء مالك ابن أنس حيث روي عنه قوله: هشام بن عروة كذَّاب[2].

وكالعادة انبرى من يحاول التبرير له، فقال الأثرم: سألت يحيى بن معين، فقال: عسى أراد في الكلام، أمَّا في الحديث، فثقة، وهو من الرواة عنه![3]

وقد نقلت عنه خصوصٌ تجعلنا نتوقَّف في كلِّ ما يرويه عن أبيه، فقد روى الخطيب البغدادي بسنده: علي بن عبد الله بن جعفر المديني قال: وسمعته - يعني يحيى بن سعيد القطان- يقول: هذا الحديث عندي من أولّه إلى آخره عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة، قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين وما ضرب بيده

(1) أنساب الأشراف 3/ 273.

(2) سير أعلام النبلاء 7/ 38.

(3) سير أعلام النبلاء 7/ 38.

شيئًا قط، قال يحيى: فلمّا سألته عنه قال: أخبرني أبي عن عائشة: "ما خُيّر رسول بين أمرين" لم أسمع من أبي إلّا هذا، وقال: "ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط" لم أسمعه من أبي وإنّما هو عن الزُّهري[1].

ثم عقّب الخطيب بتعقيب مهمٍّ فقال: ونرى أنَّ حديث الزهري لم يسمعه أيضًا هشام منه، ولهذا السبب أنكر مربع على عمرو بن علي روايته عن يحيى القطان عن هشام عن الزهري[2].

وهذا يؤكِّد ما ذهب إليه مالك، فالرجل يركِّب الأحاديث ويخلط بين الأسانيد، ولذلك اعترف كبار أئمَّة الجرح والتعديل بمشكلة مرويَّات هشام بن عروة عن أبيه، إلَّا أنَّهم خفَّفوا من عبارة مالك بن أنس واعتبروا صنيعه ضربًا من ضروب التدليس، وإلّا فإنَّ مثل هذا الصنيع يجعلنا نشكُّ في كلِّ ما رواه عن أبيه: هل هي فعلًا مرويّات أبيه أو أنَّه استقى رواياته من مكان آخر!

أبان بن عثمان (توفي 105هـ):

هو أبان بن الخليفة الثالث عثمان بن عفَّان، أمويُّ الهوى والنسب، كان واليًا لبني أميّة على المدينة في زمن عبد الملك بن مروان سبع سنوات، وشارك في شبابه في حرب الجمل وصفِّين ضدَّ

(1) الفصل للوصل 486.

(2) الفصل للوصل 487.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بل شهد قتل الصحابي طلحة بن عبد الله، فقد روي أنَّ مروان بن الحكم قد رماه بسهم ثم التفت إلى أبان فقال: قد كفيناك بعض قتلة أبيك[1].

وقد ذكرت المصادر التاريخيَّة أنَّه كتب كتابا للسيرة وعرضه على سليمان بن عبد الملك، إلَّا أنَّه لم يرتضيه لمخالفته لنهج بني أميَّة: فقد روى الزبير بن بكَّار في الموفقيَّات: قدم علينا سليمان بن عبد الملك حاجًّا سنة اثنتين وثمانين وهو وليُّ عهد، فمرَّ بالمدينة فدخل عليه الناس فسلمَّوا عليه، وركب إلى مشاهد النبي ﷺ التي صلّى فيها وحيث أُصيب بأحد ومعه أبان بن عثمان وعمرو بن عثمان وأبو بكر بن عبد الله بن أبي أحمد، فأتوا به قباء ومسجد الفضيخ ومشربة أمّ إبراهيم وأحدا، وكلّ ذلك يسألهم ويخبرونه عمّا كان، ثمَّ أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبي ﷺ ومغازيه، فقال أبان: هي عندي، قد أخذتها مصحّحة ممّن أثق به، فأمر بنسخها وألقى فيها إلى عشرة من الكتّاب، فكتبوها في رقّ، فلمّا صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبتين وذكر الأنصار في بدر، فقال: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فإمَّا أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم، وإمَّا أن يكونوا ليس هكذا، فقال أبان بن عثمان: أيَّها الأمير لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، إنَّ القول بالحق: هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا، قال: ما حاجتي

(1) تاريخ خليفة بن خيّاط 139.

إلى أن أنسخ ذاك حتى أذكره لأمير المؤمنين، لعلَّه يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فحُرق، وقال: أسأل أمير المؤمنين إذا رجعت فإن يوافقه فما أيسر نسخه، فرجع سليمان بن عبد الملك فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال عبد الملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل؟ تعرّف أهل الشام أمورًا لا نريد أن يعرفوها، قال سليمان: فلذلك يا أمير المؤمنين أمرت بتحريق ما كنت نسخته حتى أستطلع رأي أمير المؤمنين، فَصوَّب رأيه[1].

ولا شكَّ أنّ أبان التزم بتوجيهات ابن عمِّه وخليفته عبد الملك بن مروان، فكتب سيرة تناسب المذاق الأمويَّ في التعامل مع الأحداث التاريخيَّة، ولعلَّ ما تقدَّم هو سبب عدم اشتهار ما كتبه أبان.

ولعلَّ ما نُقل عن الزهري فيه إشارة لهذا التوجُّه الأموي في كتابة السيرة، فقد سأل معمر بن راشد الزهري سؤالًا فقال: من كان كاتب الكتاب يوم الحديبية؟ فضحك وقال: هو عليٌّ، ولو سألت هؤلاء قالوا: عثمان، يعني بني أميَّة[2]؛ أي أنَّ القوم كانوا ينسبون فضائل علي بن أبي طالب إلى أصحابهم، وهذا تطبيق عمليٌّ لمرسوم معاوية الذي ذكرناه ضمن الشواهد الثلاثة على الإشراف الحكومي على كتابة السيرة والتاريخ.

(1) الموفقيّات 124.

(2) فضائل الصحابة 2/ 591.

ابن شهاب الزهري (توفّي 123هـ):

من الشخصيات التي تصدَّت لتدوين السيرة محمد بن مسلم بن عبيد الله المعروف بـ "ابن شهاب الزهري"، ولعلَّه يُعتبر من أكثر الشخصيات التي تُذكر عند التعرُّض لتاريخ النبي ﷺ وسيرته، فقلَّ ما يخلو كتاب حديثيٌّ أو تاريخيٌّ من وقوعه في أسانيده، وقد جمعت رواياته حول المغازي في كتاب واحد فقاربت المائتي رواية[1].

وارتباط الرجل ببني أميَّة أمر مشهور معروف، فهو من المختلفين إليهم والسائرين في ركابهم، بل كان من أعمدة بلاطهم حتَّى قال فيه الذهبي: كان رحمه الله محتشمًا جليلًا بزيّ الأجناد[2]، له صورة كبيرة في دولة بني أمية[3].

ومن هنا سجَّل بعض الأئمَّة طعنًا فيه بسبب هذا الأمر الذي أصبح أشهر من أن يُنكر: فقد نقل الذهبي طعن مكحول في الزهري: "أيّ رجل هو لولا أنَّه أفسد نفسه بصحبة الملوك[4]"، ثم عقَّب بقوله: بعض من لا يعتدُّ به لم يأخذ عن الزُّهري لكونه كان مداخلًا للخلفاء، ولئن فعل ذلك فهو الثبت الحجَّة[5].

---

(1) مرويات الإمام الزهري في المغازي.

(2) أي كان يلبس اللبس الرسمي لبني أميّة.

(3) سير أعلام النبلاء 5/ 337.

(4) سير أعلام النبلاء 5/ 339.

(5) سير أعلام النبلاء 5/ 339.

ونحن نقول للذهبي: لو رأينا عالمًا في هذا العصر يسير في ركاب حكام مثل بني أميَّة في ظلمهم وطغيانهم، ويلبس زيَّهم ويعيش بذخهم، والأهمُّ من هذا يشهد عليه أهل عصره بكونه قد فسد بصحبته لهم، فهل يبقى لقوله أيُّ اعتبار؟ وهل يبقى لحكايته أيُّ قيمة؟ فكيف إذن يُعتبر الزهري إمام السيرة مع كلِّ ما نُقل عنه؟ وكيف جعل قوله هو الفصل وخبره هو المعتمد؟ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾!

وقد نصَّ المؤرّخون على أنَّ كتابته للسيرة كانت بأمر من بني أميّة، فقد روى ابن عبد البرِّ مسندًا عن عن الزهري قال: كنَّا نكره كتابة العلم حتَّى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا ألَّا نمنعه أحدًا من المسلمين[1].

ولم يكتف أمراء بني أميَّة بذلك بل اعتبروا أنَّ ما كتبه الزهري هو الرواية الرسميَّة للسيرة النبويَّة بحيث نُشرت كتبه بأمر الخليفة، يدلُّ على هذا ما رواه ابن عبد البر مسندا عن سعيد بن زياد مولى الزبير قال: سمعت ابن شهاب يحدِّث سعد بن إبراهيم: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[2].

بل اعترف الذهبي أنَّ ما كتبه الزهري كان لبني أميَّة خاصَّة،

(1) جامع بيان العلم وفضله 1/ 76.

(2) جامع بيان العلم وفضله 1/ 76.

قال: وفي لفظ للإمام أحمد ثنا عبد الرزاق سمعت معمرًا يقول: كنَّا نرى أنَّا قد أكثرنا عن الزهري حتّى قتل الوليد، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه، يعني من علم الزهري، قلت: يعني الكتب التي كُتبت عنه لآل مروان[1].

ونُقل نصٌّ خطير عن المدائني يبيِّن لنا المنهج الذي كُتبت به سيرة الزهري التي انتشرت في الآفاق: أخبرني ابن شهاب بن عبد الله قال: قال لي خالد بن عبد الله القسري[2]: اكتب لي السيرة، فقلت له: فإنه يمر بي الشيء من سير علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فأذكره، فقال: لا، إلَّا أن تراه في قعر الجحيم[3].

والجديد في هذا النصِّ هو أنَّ سيرة ابن شهاب الزهري كُتبِت بتوجيه وإشراف مباشر من خالد بن عبد الله القسري الأموي، والذي اشترط فيها عدم ذكر علي بن أبي طالب بخير فيها[4].

---

(1) تاريخ الإسلام 8/ 234.

(2) من أعظم ولاة بني أميَّة وأكثرهم دموية بحيث يضاهي الحجَّاج بن يوسف في ذلك.

(3) الأغاني 22/ 281.

(4) يشهد على صحَّة هذا النقل ما ذكر في سيرة خالد من أنَّه كان ناصبيًّا مبغضًا لعليٍّ وآل عليٍّ، وقد نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء 6/ 146 :...لكنَّه فيه نصب معروف؛ ونقل في 6/ 148 : قال عبد الله بن أحمد: سمعت ابن معين يقول: خالد بن عبد الله القسري رجل سوء يقع في علي. وقال فضل بن الزبير: سمعت القسري يقول في علي ما لا يحل ذكره!!

كما نصَّت الروايات والأخبار أنَّ هشامًا بن عبد الملك قد ضرب رقابة على ما يحدِّث به الزهري، فنصّب كُتَّابًا من قبله يدوِّنون ما يرويه، وقد روى ابن عبد البرِّ بسنده، قال: أقام شهاب بن عبد الملك كاتبين يكتبان عن الزهري فأقاما سنة يكتبان عنه[1].

بل نقلوا أنَّ مجلس إملائه كان يحضره أبناء هشام، فقد روى الذهبي: أنَّ هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يُملي على بعض ولده شيئًا فأملى عليه أربعمائة حديث[2].

ومن خلال هذه النصوص يتبيَّن للقارىء أنَّ سيرة ابن شهاب الزهري كُتبِت بأمر وإشراف ورقابة أمويَّة، وبالتالي يمكننا تسمية مرويَّات الزهري في السيرة بـ"الرواية الأمويَّة" للسيرة النبويَّة.

ابن إسحاق المدني (توفي 151هـ):

محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني، من أشهر رواة السيرة على الإطلاق، وسيمرُّ علينا اسمه كثيرًا في طيَّات هذا الكتاب، إذ أنّه أوسع من كتب في السيرة وأشهر من ألَّف فيها حتَّى قيل: من أراد أن يتبحّر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق[3].

كلُّ ما ذكرناه معروف مشهور، لكنَّ الشيء الذي يجهله الكثير هو أنَّ ابن إسحاق قد كتب هذه السيرة المتداولة لبني العباس:

---

(1) جامع بيان العلم وفضله 1/ 77.

(2) تذكرة الحفّاظ 1/ 110.

(3) سبل الهدى والرشاد 4/ 11.

فقد قال ابن قتيبة الدينوري في معارفه: وكان محمد – ابن إسحاق- أتى أبا جعفر بالحيرة، فكتب له المغازي، فسمع منه أهل الكوفة بذلك السبب[1].

وذكر الخطيب البغدادي قصَّة تأليفه لسيرته فقال: دخل محمد بن إسحاق على المهدي وبين يديه ابنه[2] فقال له: أتعرف هذا يا ابن إسحاق؟ قَالَ: نعم هذا ابن أمير المؤمنين، قال: اذهب فصنَّف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم إلى يومك هذا. قال: فذهب فصنَّف له هذا الكتاب، فقال له: لقد طوَّلته يا ابن إسحاق اذهب فاختصره. قال: فذهب فاختصره فهو هذا الكتاب المختصر، وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين[3].

وقد ورد نصٌّ آخر فيه إشارة إلى هذا المعنى، قال ابن عدي في الكامل: ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلَّا أنَّه صرف الملوك عن كتب لا يحصِّل منها شيء فصرف أشغالهم حتى اشتغلوا بمغازي رسول الله ﷺ ومبتدأ الخلق ومبعث النبي ﷺ، فهذه

---

(1) المعارف 492.

(2) علَّق الخطيب البغدادي على هذه العبارة بقوله: هكذا قال هذا الراوي: دخل ابن إسحاق على المهدي وبين يديه ابنه وفي ذلك عندي نظر، ولعله أراد أن يقول: دخل على المنصور وبين يديه المهدي ابنه لأنه ذلك أشبه بالصواب والله أعلم. (تاريخ بغداد 1/ 221)

(3) تاريخ بغداد 1/ 221.

فضيلة لابن إسحاق سبق بها ثم بعده صَنَّفَه قوم آخرون ولم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق فيه[1].

وهذا دليل على أنَّ كتاب السيرة لابن إسحاق كُتب بأمر من أبي جعفر المنصور وولده المهدي العباسي وإشراف مباشر منهما، ولعلَّ طلب أبا جعفر المنصور من ابن إسحاق اختصار الكتاب كان لغرض حذف ما لا يرتضيه بنو العبَّاس كما ذكر بعضهم[2].

الواقدي (توفي 207هـ):

محمد بن عمر بن واقد المعروف بـ"الواقدي" هو صاحب كتاب المغازي المشهور، وله عشرات بل مئات الروايات التي ملأ

---

(1) الكامل في الضعفاء 7/ 270.

(2) قال محقِّق سيرة ابن إسحاق المؤرِّخ سهيل زكَّار في صفحة 13: وقد كلَّف المنصور ابن إسحاق بملازمة ابنه المهدي، فصحبه طويلا وسافر معه إلى خراسان حيث حدَّث هناك بالري وأملى. وبأمر من المنصور صنَّف ابن إسحاق السيرة للمهدي فلما اطَّلع عليها المنصور طلب إليه القيام ببعض التعديلات فيها،...، إلى أن يقول: وهكذا تكوَّنت ثلاث «نسخ من السيرة»، تلك الأولى من العهد المدني، والثانية من العهد الكوفي، والثالثة من العهد البغدادي، وقد بقيت أجزاء من النسختين الأولى والثانية تسمحان لنا بالذهاب إلى أنَّ المنصور أراد من ابن إسحاق التركيز بشكل أوضح على دور العباس بن عبد المطلب وأخباره مع النبي وخدماته الجليلة للإسلام، وربَّما رافق ذلك طمس بعض ما يتَّصل بنواحي ضعف العباس وأعماله المعادية للرسول قبل إسلامه.

بها تلميذه ابن سعد كتابه الطبقات الكبرى، وكلا الكتابين سنكثر من الاستشهاد بهما ضمن الفصول المختلفة.

وكما تقدَّم في حقّ ابن إسحاق، فإنَّ الواقدي كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بخلفاء بني العباس، وتحديدًا هارون الرشيد وأساطين بلاطه، وقد ترجم له أحد المعاصرين ترجمة وافية قال فيها: وقد اتصل الواقدي بالخلفاء العباسيين، بدءًا من هارون الرشيد عن طريق علمه وسعة معلوماته عن الغزوات ومشاهد رسول الله ﷺ، فقد رُوي أنَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد لما حجّ في أول سنة من خلافته (سنة 170 هـ)، قال ليحيى بن خالد البرمكي: «ارتد لي رجلًا عارفًا بالمدينة والمشاهد، وكيف كان نزول جبريل على النبي ﷺ، ومن أيّ وجه كان يأتيه، وقبور الشهداء، فسأل يحيى بن خالد عن العالم الذي تتوفر فيه تلك الصفات التي طلبها الخليفة فدلَّه الناس على الواقدي، وذلك حسب قوله هو- أي: الواقدي- فقد قال: «كلهم دلَّه عليَّ، فبعث إليَّ فأتيته، وذلك بعد العصر، فقال لي: يا شيخ؛ إنّ أمير المؤمنين- أعزّه الله- يريد أن تصلي العشاء الآخرة في المسجد، وتمضي معنا إلى هذه المشاهد، فتوقفنا عليها ففعلت، ولم أدع موضعًا من المواضع، ولا مشهدًا من المشاهد إلَّا مررت بهما - يعني الخليفة هارون الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكي- عليه، ومنحاه مالًا كثيرًا وطلب إليه يحيى بن خالد البرمكي -الذي كانت كلمته نافذة في الدولة العباسية كلها في ذلك الوقت- أن يصير إليه في العراق، ففعل، وتوطَّدت صلته به وأغدق عليه كثيرًا من الأموال وأخلص هو في حبه للبرامكة، حتَّى أنه بعد نكبتهم

المشهورة (سنة 187 هـ) كان كثير الترَّحُّم على يحيى بن خالد كلَّما ذُكر اسمه، ورغم صلة الواقدي القويّة بالبرامكة إلَّا أن مكانته في بلاط خلفاء بني العباس ظلَّت كما هي ولم ينله ضرر بسبب تلك الصلة بعد نكبتهم، بل ازدادت مكانته وثقة الخلفاء فيه إلى الحدِّ الذي جعل المأمون يوليه القضاء في عسكر المهدي، وهي المحلَّة المعروفة بالرُّصافة في شرق بغداد، وكان المأمون كثير الإكرام له، ويداوم على رعايته، وظل في منصب القضاء حتى وفاته (سنة 207 هـ) على أرجح الأقوال[1].

وكلامه صريح في أنَّ محمد بن عمر الواقدي كان محسوبًا على البلاط العباسي، بل كان قاضيًا عندهم ومحسوبًا عليهم، فهل من يتسنَّم مثل هذه المناصب يمكن أن يكون متحرِّرًا من الضغط الحكومي؟!

ابن هشام الحميري (توفي 213هـ):

نختم في هذا الفصل مع عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري والذي ارتبطت سيرته باسمه فسمِّيت بـ"سيرة ابن هشام" وهي أشهر سيرة في الأوساط الإسلاميَّة وأكثرها انتشارًا[2].

ورغم أنَّ سيرة ابن إسحاق كتبت بأمر من الخليفة العباسي

(1) السيرة النبويَّة والتاريخ الإسلامي 51.

(2) وسيتبيّن لك أنَّ سبب شهرة هذه السيرة وكثرة تداولها؛ هو أنَّها قد مرَّت بأكثر من مرحلة للتنقيح والتهذيب بحيث حُذِفَ منها كلّ ما لا يرتضيه الحكَّام.

وإشراف منه، إلَّا أنَّ هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لابن هشام الذي تناول سيرة ابن إسحاق تهذيبًا وتنقيحًا واختصارًا، قال:...وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب، ممَّا ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببًا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرًا له، ولا شاهدًا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارًا ذكرها لم أر أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرُّ لنا البكائي بروايته[1].

وقد طرحنا في الفصل السابق أسئلة عن نوعيَّة المادَّة التي حذفها ابن هشام من سيرة ابن إسحاق وأسقطها من السيرة، وجوابها على لسان محقِّق سيرة ابن إسحاق[2] حيث يعترف بأنَّ العوامل السياسية والنظرة المذهبيَّة كان لها الدور الأكبر في ذلك، قال: لكن مما يؤسف له لجوؤه إلى حذف الكثير من مادَّة ابن إسحاق التي اعتبرها غير ضرورية، ثم صيرورته إلى تعديل بعض الأخبار أو تعديل ألفاظها حسبما فهمها ليكسبها قبولًا أو وضوحا رأى أنَّها تفتقر إليهما، ولا شكَّ أنَّ تعديلاته وشروحه هذه تأثَّرت ببيئته الثقافية وطبيعة العصر الذي عاش فيه، على أنَّ هذا كلَّه يبقى له وجه واعتبار إذا ما قورن بأسباب ابن هشام الأخرى للحذف

---

(1) السيرة النبويّة 1/ 3.

(2) المؤرّخ سهيل زكّار الذي جمع مرويّات ابن إسحاق المبثوثة في كتب التاريخ والمغازي مع ما وُجِدَ من قطع مخطوطة من الكتاب الأصلي.

«وبعض يسوء بعض الناس ذكره»، «وأشياء بعضها يشنع الحديث به»، إنّ لهذا النوع من الحذف ولا شكّ أسبابًا سياسية وأخرى تتصل بالصورة التاريخية لعصر ابن هشام عن النبي وصحابته[1].

ويمكن التثبُّت من واقعيَّة كلام المحقِّق من خلال مطابقة القطع الواصلة إلينا من سيرة ابن إسحاق وما نقله ابن هشام في كتابه، إلَّا أنَّ مثل هذا الأمر يطول ويخرجنا عن هدف عقد هذا الفصل وهو: بيان تأثُّر كلٍّ واحد من كتَّاب السيرة الأوائل بأيديولوجيَّة خاصَّة.

الخلاصة:

إنَّ الهدف من عقد هذا الفصل هو إثبات أنَّ المصادر الأولى للسيرة النبويَّة لم تكتب في ظروف اعتياديَّة بحيث يكون المؤرِّخ حرًّا في كلّ ما يثبته فيها، بل كانت خاضعة للإشراف الحكومي المباشر كما أثبتنا في الفصول السابقة، والأعظم من هذا أنّ جملة منها قد كتب لأجل حكَّام بني أميَّة وبني العبَّاس، وهذا ما يجعلنا نتوقَّف عند كلّ جزئيَّة من السيرة وندقّق في ارتباطها بمن كُتِبت لأجله السيرة.

والأهمُّ من كلِّ ما تقدَّم هو أنَّ السيرة التي كُتِبت وارتضاها الحكّام ترتكز على ركيزتين مهمّتين:

---

(1) سيرة ابن إسحاق 15.

- **الأولى**: أن تحوي السيرة فضائل بني أميَّة وبني العبَّاس ومن رضوا عنه من بقيَّة الناس.
- **الثاني**: أن لا تحوي أيَّ ذكر حسن لـ"عليٍّ وآل علي" بل محاولة خلق مثالب لهم.

4

نظرة على المجتمع المدني

قبل الخوض في سرد أحداث رحيل النبي ﷺ لابدَّ من دراسة المجتمع المدني.. في السنة الأخيرة من حياته، وهذه الدراسة هي من المقدَّمات الضروريَّة لكلِّ الأبحاث الآتية، لأنَّ الإحاطة بالتركيبة السكَّانية لهذا المجتمع ومعرفة طبقاته سيكون مفيدًا جدًّا في فهم خطِّ سير الأحداث التي سنمرُّ بها.

وأفضل مستند تاريخي يصوِّر لنا هذا المجتمع هو القرآن الكريم، إذ أنَّه كتاب مقدّس عند المسلمين لم يختلفوا فيه، وعند

غيرهم يُعتبر وثيقة تاريخيَّة ترجع إلى ذلك العصر، وفي كلا الحالتين فإنَّ النص القرآني له قيمة تاريخيَّة كبيرة جدًّا في نظر أيِّ باحث تتجاوز كلَّ المصادر التاريخيَّة الأخرى، وبالتالي فإنَّ انطلاقتنا ستكون من خلال القرآن وتحديدا سورة "التوبة".

خصوصيَّات سورة التوبة:

إنَّ هذه السورة القرآنيَّة تمتاز بجملة من الخصوصيَّات المهمَّة التي تجعلها من أهمِّ النصوص التي يمكن الاستناد عليها في الدراسة السوسيولوجيَّة للمدينة المنوَّرة، وهذه الخصوصيَّات تتمثَّل في:

أوَّلًا: تُعتبر سورة التوبة من آخر السور التي نزلت من القرآن الكريم[1]، ولم تنزل بعدها سورة أخرى بل نزلت آيات متفرِّقة هنا وهناك، وكان نزولها تحديدًا في أواخر سنة 9هـ أي قبل وفاة النبي ﷺ بسنة وبضع شهور، وبالتالي فإنّ التركيبة التي ستصوِّرها هذه السورة للمجتمع المدني هي عين الصورة التي مات عنها النبي ﷺ.

ثانيًا: إنَّ جزءًا كبيرًا من هذه السورة يتحدَّث عن النفاق والمنافقين، بل تعتبر من أكثر السور التي تعرَّضت لهذا الأمر بعد سورة «المنافقون»، وتكمن خطورة هذه الآيات في أنَّها تعرَّضت لخطط المنافقين وكيدهم للإسلام، ولذلك كان ابن عبَّاس يصرُّ على تسميتها بـ(الفاضحة) ويقول: "التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل

(1) صحيح البخاري 5/ 185.

ومنهم حتى ظنُّوا أنَّها لم تبق أحدًا منهم إلّا ذكر فيها[1].

ثالثًا: إنَّ هذه السورة كانت بمثابة إعلان حرب على المنافقين وحثٌّ لعامَّة الناس على البراءة منهم والانتباه من مخطَّطاتهم الشيطانيَّة، وبالتالي فإنَّ المواجهة مع المنافقين تحوَّلت من طور الحرب السريَّة إلى طور الحرب المعلنة والتي يشترك فيها جميع المجتمع الإسلامي.

هذه الأمور الثلاثة تجعل من سورة التوبة وثيقة تاريخيَّة خطيرة تصوِّر لنا خارطة الصراع في مركز المجتمع الإسلامي، وتبيِّن مدى قوَّة كلِّ حزب من الأحزاب المتصارعة، والأهمّ من هذا الإعلان الرسمي لبداية الحرب على "حزب النفاق" بصدور الأمر الإلهي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

السياق التاريخي للسورة:

نزلت هذه السورة في سياق خاصٍّ جدًّا يمثِّل منعطفًا تاريخيًّا خطيرًا في الدولة الإسلاميَّة، إذ حصل تطوَّران مهمَّان أحدهما داخلي والآخر خارجي:

الأمر الأوَّل: "غزوة تبوك" وهي المواجهة الكبرى التي كانت ستحصل بين الدولة الإسلامية من جهة والدولة البيزنطيَّة من جهة

(1) صحيح البخاري 6/ 58.

أخرى والتي يُعبِّر عنها العرب بـ(الروم)، ولم تكن القضيَّة مجرَّد معركة عاديَّة بل كانت نيَّة الروم القضاء على القوَّة المتنامية للمسلمين والقضاء على دولتهم مبكِّرًا، وستأتيك تفاصيل هذه الغزوة.

الأمر الثاني: التحرُّك الفعلي للمنافقين وسعيهم للانقلاب على النبي ﷺ والغدر به، بل وصل الأمر بهم إلى محاولة اغتياله في العقبة أي بعد الرجوع من غزوة تبوك وهذه سابقة خطيرة في التاريخ الإسلامي، وتطوُّر مهم في نشاط المنافقين.

تركيبة المجتمع المدني:

تعرَّضت السورة إلى تقسيم المجتمع المدني إلى أقسام:

القسم الأوَّل: "خلَّص المسلمين" المؤمنون الذين دخلوا الإسلام اختيارًا ورغبة فيما عند الله من ثواب، وقد وصفت السورة هذا القسم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وهؤلاء هم الذين ساندوا النبي محمد ﷺ في السرَّاء والضراء وكانوا عضدًا له وزكَّاهم الله في سورة أخرى بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

القسم الثاني: "عامّة الناس" الذين دخلوا الإسلام اختيارًا

وصدقوا في إسلامهم لكنَّهم لم يبلغوا إيمان القسم الأوَّل، بل صدرت منهم ذنوب ومعاصي لا تُخرجهم عن الإسلام إلَّا أنَّها تحطُّ من كمالهم، وقد وعدهم الله بالمغفرة والرحمة، قال ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

القسم الثالث: "الأعراب" وهم الذين دخلوا الدين وأسلموا لكن بخلفيَّة قبليَّة بحتة، وذلك لأنَّ إيمانهم كان جمعيًّا لا فرديًّا، فهم دخلوا الإسلام تبعًا لزعمائهم وشيوخ قبائلهم ولم تُتح لهم فرصة الاختيار والتثبُّت، ولذلك يمكننا أن نُعبِّر عنهم بأصحاب التديُّن القبلي، فولاؤهم للقبيلة ولزعيمها مقدَّم على كلّ شيء ومن هنا وسمهم القرآن بالنفاق والكفر، قال: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ ﴾ وقال: ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.

القسم الرابع: "المنافقون" وهم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، بل كانوا يكيدون للإسلام ويسعون لضربه من الداخل، وآيات سورة التوبة نزلت لبيان هذا القسم والتحذير منه، لاسيما منافقو المدينة الذين يُعتبرون رأس حربة ضد الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴾.

متى بدأ النفاق؟

من أكبر المغالطات التاريخيَّة التي يحاول الكثير من الكتَّاب ترويجها هي أنَّ النفاق قد بدأ في المدينة المنوَّرة، بل حاولوا حصر النفاق في شخصيَّة واحدة وهي: عبد الله بن أبي بن سلول وقاموا بإسقاط كلِّ آيات النفاق عليه وحمَّلوه كلَّ مصائب المسلمين.

والحقّ أنَّ حركة المنافقين أقدم بكثير من هذا، بل يمكننا أن نقول بضرس قاطع إنَّ النفاق قد بدأ من مكَّة بل من السنوات الأولى لبعثة النبي محمد ﷺ، والمستند في هذا هو القرآن الكريم الذي أرَّخ لبداية هذه الحركة في أكثر من سورة من سوره نكتفي منها بمثالين:

الأوّل سورة المدّثر التي نزلت في أوّل أيّام البعثة، والتي ورد فيها: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾، والمهمُّ في هذا النصِّ هو تعبيره بـ"في قلوبهم مرض"؛ إذ إنَّ مثل هذا التعبير خاصٌّ بالمنافقين لا الكفَّار والمشركين بدليل عطفه على الكافرين، إذ أنَّ العطف يقتضي المغايرة كما هو معروف عند أهل اللغة، وعليه فهذه الآية نصٌّ عَلى وجود منافقين منذ بدايات العهد المكِّي.

الثاني سورة العنكبوت وهي سورة مكّية بالإجماع، ورد فيها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾، وهذا النصّ أصرح من سابقه إذ عَبَّر عن هذه الفئة بالاسم الصريح وهو "المنافقون" فلا مجال للتأويل أو التلاعب بدلالة الآية على المدَّعي.

من خلال ما تقدَّم يتبيَّن أنَّ حركة المنافقين قد بدأت منذ العهد المكّي[1] بل منذ الأيّام الأولى لبعثة النبي محمد ﷺ، وبالتالي فإنَّ هذا الحزب قد اكتسب خبرة طويلة تفوق العشرين سنة أوان نزول سورة التوبة، وهذا الأمر يجعلنا نفهم عمق التعبير القرآني فيها بـ ﴿ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ أي أنّهم تقمَّصوا دور المسلم بحيث لا يمكن كشفهم بالعلامات الظاهريَّة التي اعتادوا على كشف المنافقين من خلالها بل إنَّ كشفهم لا يكون إلَّا من خلال الوحي الذي يخبرنا عن بواطنهم وخفاياهم ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾.

منشأ النفاق:

المغالطة الأخرى التي أحدثت في تاريخنا هي دعوى أنَّ منشأ النفاق هو حبُّ الدنيا أو الخوف من سلطة المسلمين أو حفظًا

---

(1) ورغم وضوح النصوص القرآنيَّة في المسألة إلَّا أنَّ هناك تعنّتًا واضحا من الكتَّاب في حصر النفاق في الأنصار ومحاولة نفيه بشتَّى الطرق عن القرشيِّين، وستعلم في الفصول الآتية سبب ذلك.

للمكانة الاجتماعيَّة كما حصل في المدينة المنوَّرة، في حين أنَّ السبب الأخطر للنفاق هو: الحرب على الإسلام وأهله.

نحن لا ننكر وجود عدَّة مناشئ للنفاق قد تعرَّضت لها سورة التوبة كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ إشارة إلى حبِّ المال، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إشارة إلى حبِّ الدنيا، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تحكي أحوال المنافقين، إلَّا أنَّ هؤلاء يمكن معالجة نفاقهم بتأليف قلوبهم وإعطائهم المال والمكانة التي يطلبونها كما فعل النبي ﷺ معهم لاسيما بعد فتح مكَّة المكرَّمة واستسلام قريش.

لكنَّ المنشأ الأخطر منها هو: النفاق لأجل حرب الإسلام وضربه من الداخل وهذا نظير عمليَّات الاستخبارات والتجسُّس في هذا الزمن، وقد أشار القرآن إلى هذه الفئة من المنافقين في سورة التوبة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، فبناؤهم لهذا المسجد لم يكن لأغراض دنيويَّة كحبِّ المال والجاه، بل كان بغرض التفريق بين المؤمنين ومساعدة من حارب الله ورسوله!

أفلا يتدبّرون؟

من خلال العرض المتقدِّم، نقف على نتائج خطيرة جدًّا:

الأولى: إنَّ الحديث ليس عن نفاق فردي عرض بسبب أسباب دنيويّة مختلفة، بل حديثنا عن "حزب نفاق"، إذ ليس من المعقول أن تكون عشرات الآيات من سورة التوبة تتحدَّث عن رجل أو رجلين في مجتمع يتكوَّن من آلاف[1].

الثانية: ليس من المعقول أن يكون هؤلاء الذي تحدَّثت عنهم الآيات من عامَّة الناس في المدينة المنوَّرة، بل لابدَّ أن يكونوا من علية القوم ومن القريبين من مركز القرار فيها بحيث يكون لتحرُّكهم تأثير خطير على الإسلام والمسلمين، بل يستدعي هذا التحرُّك نزول عشرات الآيات في السنة الأخيرة!

وبهذا يتبيَّن أنَّنا لا نتحدَّث عن "حزب نفاق" هامشي بل هو حزب مركزي له نفوذ واسع، وله قدرة كبيرة على تغيير الأمور وضرب الإسلام بحيث تكون مواجهته بمثابة الحرب الوجوديَّة للإسلام!

الثالثة: هذا الحزب قد بدأ عمله في مكَّة منذ الأيَّام الأولى للبعثة النبويَّة واستمرَّ فيه إلى السنة التاسعة للهجرة وكان له هدف واضح وصريح وهو: ضرب الإسلام من الداخل وإسقاط دولة المسلمين، ومن هنا فإنَّ قراءة تحرُّكات هذا الحزب لابدَّ أن تكون على ضوء هذا العنوان.

---

(1) نُقل عن الشافعي أنَّ عدد سكان المدينة المنوَّرة ثلاثون ألفًا (فتح المغيث 4/ 110)، لو قلنا أنَّ نسبة المنافقين هي 1٪ لكن تعدادهم بالمئات، والحال أنّه لم ينقل لنا التاريخ إلَّا بعض الأسماء التي لا يتجاوز عددها أصابع اليدين!

سؤال مشروع:

بقي سؤال واحد يحتاج إلى جواب صريح وهو: إذا كان النفاق في السنة الأخيرة من حياة النبي محمد ﷺ بهذه القوَّة وبهذه الخطورة والتأثير بحيث تنزل فيه عشرات الآيات، فأين اختفى "حزب النفاق" بعد رحيل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حيث انقطع خبر المنافقين في المدينة ولم يحدِّثنا التاريخ عنهم البتَّة؟!

أوليس من الغريب أن يتبخّر هذا الحزب بقدرة قادر ويختفي من الوجود في أوائل سنة 11هـ، بينما كان الله ورسوله ﷺ يحاربانه لأكثر من عشرين سنة بالسور والآيات والأحاديث ورغم هذا لم يُقض عليه؟

لن أجيب على هذا السؤال الآن لأنَّ أي إجابة ستصدر منِّي ستُعتبر إسقاطًا للنتائج قبل الأدلّة، لكنَّي طرحته لتحريك العقول وإثارة دفائنها عند القارىء ليكون تفكيره في المسار الصحيح بعيدًا عن كلّ تأثيرات دينيَّة أو مذهبيَّة قد تعطيه نتائج مسبقة[1].

(1) إنَّ الثقافة المتداولة الآن تركّز على خطورة الكفر والشرك رغم وجود ضمان نبوي بعدم العودة للكفر والشرك كما في صحيح البخاري 2/ 94: "وإنِّي والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي"؛ وفي الوقت نفسه نجد إهمالا متعمّدا لقضيّة النفاق والمنافقين بحيث من الممكن أن تقرأ كتابًا للسيرة ولا تجد فيه أيَّ تعرُّض لهم، بل حتّى كتب التفسير التي تعرّضت لآيات النفاق تجد فيها إعراضًا عن تسمية المنافقين سوى بعض الأسماء المشهورة بذلك من الأنصار، رغم العدد الكبير من الآيات القرآنيَّة التي تتحدَّث عنهم حتّى قال ابن القيِّم: كاد القرآن أن يكون كلَّه في شأنهم (مدارج السالكين 1/ 364).

5

هل أتاك حديث العقبة؟

تقدَّمت الإشارة إلى غزوة تبوك وأنّها لم تكن مجرَّد معركة عابرة بل كادت أن تكون حربا وجوديَّة للإسلام أمام الإمبراطوريَّة البيزنطيّة التي كانت تسعى للتعافي من هزيمتها أمام الفرس والتي أثبتها القرآن: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ ﴾، والحلقة الأضعف في المنطقة كانت دولة المسلمين الفتيَّة بالمقارنة مع الفرس الذين لهم عمق تاريخي لآلاف السنين.

كمين محكم:

من يقرأ كتب السيرة يجد أنَّهم ذكروا مجموعة أكاذيب حول أسباب هذه الغزوة، وقد اهتمَّ بسردها وتعدادها الصالحي صاحب سبل الهدى والرشاد[1]، إلَّا أنَّ السبب الحقيقي هو ما قدَّمنا ذكره من وجود خطر خارجي وآخر داخلي، والذي نضيفه الآن في هذا الفصل أنَّ الخطران ليسا إلَّا خطرًا واحدًا اتَّحد فيه الروم مع منافقي المدينة!

تبدأ القضيَّة بوصول خبر للمدينة مفاده استعداد هرقل الروم للهجوم على بلاد المسلمين كم روى ابن سعد في طبقاته: بلغ رسول الله ﷺ أنَّ الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأنَّ هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء[2].

وهذا الأمر كان مجرَّد كذبة باعتراف المؤرِّخين[3]، وقد كان النبي عالمًا بالخديعة التي دُبِّرت بليل فغيّر طريقته في الإعداد للحرب وأعلن مسيره إلى تبوك رغم أنّه لم يعلن في كلِّ غزواته

---

(1) سبل الهدى والرشاد 5/ 433؛ ذكر الزركلي في الأعلام 7/ 155 أنَّ هذا الكتاب هو من أوسع كتب السيرة التي أُلِّفت، وقد اعتمد صاحبه في تأليفه على 1000 كتاب وهذا ما يعطيه قيمة علميَّة كبيرة.

(2) الطبقات الكبرى 2/ 165.

(3) قال الواقدي في المغازي 2/ 990: ولم يكن ذلك إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه.

السابقة خطَّ سيره ولا خطَّة حربه، وقد قال ابن هشام في سيرته[1]: كان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلَّا كنَّى عنها، وأخبر أنَّه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلَّا ما كان من غزوة تبوك، فإنَّه بيَّنها للناس[2].

والعجب كلَّ العجب من تبريرهم ببعد الشقَّة وكثرة العدوِّ[3] ناسين أو متناسين غزوة مؤتة التي هي أبعد بكثير من غزوة تبوك من حيث المسافة، وكان عدد جيوش الروم أضعاف مضاعفة من عدد جيوش المسلمين. والحقُّ الذي يجب أن يقال أنَّ إعلان النبي محمد ﷺ للنفير وتحديده لجهة مسيره هدفه إيهام العدوِّ الداخلي بأنَّ خطَّته تسير على ما يرام، بحيث يبدأ في تحرُّكه ليفضح نفسه ويصبح جرمه مشهودًا، فالغزوة لم تكن لقتال عدوٍّ خارجيٍّ إذ لم يحصل قتال أصلًا بل كانت لكشف العدوِّ الداخلي الذي نسَّق مع الروم هذه العمليَّة المتقنة.

تخطيط المنافقين:

ذكرت لنا الوثائق التاريخيَّة أجزاءً من خطة المنافقين ويمكن حصرها في هذه النقاط:

---

(1) يُعتبر كتاب (السيرة النبويَّة) لابن هشام من أشهر كتب السيرة وأكثرها تداولًا بين المسلمين، ومن هذا المنطلق سنُكثر في هذه البحوث الآتية النقل منه والاعتماد عليه.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 943.

(3) سيرة ابن هشام 4/ 943.

الأمر الأوَّل: تطبيقًا لقاعدة فرِّق تسد، سعى المنافقون إلى إحداث شرخ داخل المجتمع المدني، وذلك ببناء مسجد آخر يكون إنشاؤه بمثابة البداية لمساجد أخرى تُضعف المركزية السياسية للمسجد النبوي، حيث كان هذا المسجد بمثابة البرلمان الذي تُعلن فيه قرارات الدولة ويتلقَّاها الناس.

وقد تحدَّثت سورة التوبة عن هذا المسجد وعن أهداف من بناه وسعى لإعماره: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

والمهمّ في هذه الآية هو الإشارة إلى التعاون الخفيِّ بين أصحاب مسجد ضرار ومن حارب الله ورسوله، فالمراد من هذا التعبير القرآني إثبات علاقة بين "حزب النفاق" وبين الكفَّار الذين أثبتت كتب السير والتفاسير أنَّهم الروم، فبناء هذا المسجد لم يكن إلَّا تخطيطا من الروم وتنفيذًا من المنافقين تمهيدا لما هو أهم.

قال ابن كثير[1]: ...أمَّا قوله ضرارًا فلأنّهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء، وكفرا بالله لا للإيمان به، وتفريقًا للجماعة عن مسجد قباء وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الراهب

---

(1) تكمن القيمة العلميَّة لما كتبه ابن كثير في التاريخ سواء في كتابه "البداية والنهاية" أو كتابه "السيرة النبويَّة" في أنّه كان متضلّعا في علم الحديث. وقد أَلَّفَ هذه الكتب على طريقة المحدِّثين فلا يعتمد فيها إلَّا ما صحَّ عنده وثبتت روايته.

الفاسق قبَّحه الله، وذلك أنَّه لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى عليه، ذهب إلى مكَّة فاستنفرهم، فجاؤوا عام أحد فكان من أمرهم ما قدَّمناه، فلمَّا لم ينهض أمره ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله ﷺ، وكان أبو عامر على دين هرقل ممَّن تنصَّر معهم من العرب، وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنِّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين، فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ومقرّ لمن يفد من عند أبي عامر الراهب، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين[1].

وكلامه بَيَّنَ لنا بوضوح خطورة هذا العمل الذي قاموا به، إلّا أنَّ الغريب هو إصرار المؤرّخين على إلصاق هذه القضيَّة بـ(أبو عامر الراهب[2]) وحصرها في جماعته مع أنَّه قد ابتعد عن مسرح الأحداث منذ غزوة أحد ولم يكن له أيُّ ذكر فيها طيلة هذه

---

(1) البداية والنهاية 5/ 27.

(2) قال المقريزي في إمتاع الأسماع 14/ 359: وأبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن نعمان بن ضبيعة بن زيد، وقيل: هو أبو عامر عمر بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الأوس، وقال مكّي: أصله من الروم، كان يناظر أهل الكتاب، ويميل إلى النصرانية، ويتبع الرهبانية ويألفهم، ويكثر الشخوص إلى الشام، فسمِّي الراهب، فلمَّا ظهر أمر رسول الله ﷺ حسده، ففرَّ إلى مكة وقاتل مع قريش يوم أحد، فسمَّاه رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق، فلما فتحت مكَّة لحق بهرقل هاربا إلى الروم بالشام فمات هناك.

السنوات، فما الذي أعاده إلى مسرح الأحداث مجدَّدًا؟! وهل كان له دور فعلًا في قضيَّة بناء مسجد ضرار؟

إنَّ القدر المتيقَّن ممَّا سبق وجود مراسلات بين أشخاص في بلاد الروم وآخرين من المنافقين في المدينة المنوَّرة، لا يمكننا الجزم بهذه الأسماء المذكورة لكنَّ المهمَّ بالنسبة إلينا هو إثبات وجود حركة نفاق في المدينة لها ارتباط وثيق بجهات أجنبيَّة متمثَّلة في بلاد الروم، و الهدف الأوَّل لهذه الحركة هو تحريك الجبهة الداخليَّة قبل معركة تبوك، ولذلك نجد أنَّ أصحاب هذا المسجد قد طلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلِّي فيه قبل خروجه، وفي هذا يقول ابن كثير:...فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلِّي في مسجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنَّهم إنَّما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلَّة في الليلة الشاتية[1].

وإصرارهم على صلاته في المسجد الجديد دليل على أنَّ القوم يريدون اكتساب الشرعيَّة تمهيدا لما سيأتي في المستقبل القريب، ومن هنا أعرض النبي ﷺ عن هذا الفعل وأجَّله لما بعد تبوك؛ حيث ستفتح الملفَّات وتنكشف كلُّ الأوراق.

ولم تكن هذه المرَّة الأولى التي يتمُّ التنسيق فيها بين العرب

(1) تفسير ابن كثير 2/ 402.

والروم، فقد نقلت كتب السير[1] أنَّ الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة قد أهدى سيوفًا لصنم قبيلة طيء المعروف بـ"الفلس" رغم أنّ هذا الملك كان نصرانيًّا لا وثنيًّا، ولذلك أرسل النبي ﷺ سريَّة لطيء لمنع تحالفهم مع الروم بحيث يكونون كالخنجر في خاصرة المسلمين، قال ابن سعد: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسًا ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس ليهدمه، فشنُّوا الغارة على محلّة آل حاتم مع الفجر فهدموا الفلس وخربوه[2].

فكان لهدم هذا الصنم رمزيَّة كبيرة تتمثَّل في إثبات يقظة النبي ﷺ وإحاطته بكلِّ ما يُحاك ضدَّ دولته الفتيَّة، والضرب بيد من حديد لمنع أيِّ صورة من صور هذا التعاون الخطير الذي لو تمَّ سيتحوَّل إلى وبال على المسلمين، والأهمُّ من هذا هو نصُّ المؤرِّخين على أنَّ هذه الغزوة لم ينتدب لها النبي ﷺ أحدا من المهاجرين، وستعلم سبب ذلك لاحقًا، قال القاضي ابن حزم: بعث رسول الله ﷺ عليًّا في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسًا وليس في السرية إلَّا أنصاري، فيها وجوه الأوس والخزرج[3].

الأمر الثاني: كان الغرض من الإشاعة التي روَّجوها بالتعاون مع الروم -المتمثِّلة في اجتماع جيوش هرقل على حدود الدولة

(1) سبل الهدى والرشاد 6/ 218.

(2) الطبقات الكبرى 2/ 164.

(3) المغازي 2/ 984.

الإسلاميّة[1]- هو تفريغ المدينة من كلِّ خلَّص أتباع النبي ﷺ، بـل تفريغها من كلّ مقاتل يمكن أن يحمل الـسيف دفاعًـا عنهـا، إذ أنَّ الدعاية التي نشروها حول عدد جيوش الروم واستعداداتهم للغزو كفيلة بعدم بقاء أيِّ أحد من المؤمنين في المدينة المنوَّرة.

وقد سايرهم النبي ﷺ في هذا الأمر أيضًا، فأعلن النفير العـام ودعا أصحابه إلى الاستعداد للخروج إلى تبوك لمواجهة الروم، ومن هنا ظنَّ القوم أنَّ خطَّتهم تسير كما هو متوقَّع، فكلُّ الصحابة الكرام سيخرجون من المدينة ولن يبق فيها أحد من الذين يشكِّلون خطرًا.

الأمر الثالث: بمجرَّد بداية معسكر تبوك، تعـذَّر مجموعـة مـن الصحابة عن المشاركة في هذه الغزوة، وهؤلاء ليسوا فئة واحدة بل فئات مختلفة فصَّل في أمرهم القرآن الكـريم، بـل إنّ أغلـب آيـات سورة التوبة تتحدّث عن أعذار هؤلاء الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك ممَّا يُوحي بخطورة الموقف.

فمن المتخلّفين بعض الأفراد مثل "الجدِّ بن القيس" الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنَّه ما من رجل بأشدّ عجبًا بالنساء منِّي، وإنّي أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: قد أذنت لك[2]؛ ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ

(1) الطبقات الكبرى 2/ 165.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 944.

ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾، أو مثلًا الثلاثة الذي خلَّفوا ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾، قال ابن إسحاق: ثم استتبَّ برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السير، وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النيَّة عن رسول الله ﷺ، حتى تخلَّفوا عنه ، عن غير شك ولا ارتياب، منهم : كعب بن مالك بن أبي كعب، أخو بني سلمة ، ومرارة بن الربيع ، أخو بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية، أخو بني واقف، وأبو خيثمة، أخو بني سالم بن عوف وكانوا نفر صدق، لا يتهمون في إسلامهم[1].

إلَّا أنَّ مثل هذه الحالات الفرديَّة لا تهمُّنا في هذا البحث بل المهمِّ بالنسبة إلينا الجماعات التي تخلّفت:

الأولى: هم الذين عرفوا بـ(المعذّرون من الأعراب)، وهم جماعة من أعراب المدينة جاؤوا النبي ﷺ وطلبوا منه الرخصة في عدم الخروج لجهاد الروم، قال ابن إسحاق: وجاءه المعذَّرون من

(1) سيرة ابن هشام 4/ 946.

الأعراب، فاعتذروا إليه ، فلم يعذرهم الله تعالى وقد ذكر لي أنَّهم نفر من غفار[1].

الثانية: هم المنافقون من أهل المدينة الذين انسحبوا من الجيش بعد أن اطمأنُّوا بتحرُّكه إلى تبوك، قال ابن إسحاق: فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي، فيمن تخلَّف من المنافقين وأهل الريب[2].

الثالثة: هي الفئة المحرِّكة لكلِّ هؤلاء وهي التي كانت تثبِّطهم وتدفعهم للاعتذار وعدم الخروج للقتال، وقد نقلوا أنَّ هذه الفئة كان لها وكر يجتمعون فيه وهو بيت سويلم اليهودي، قال ابن هشام: بلغ رسول الله ﷺ، أنَّ ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، وكان بيته عند جاسوم، يثبِّطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك[3].

وبحسب التحليل المنطقي يمكن تلخيص خطَّة هؤلاء في هذه النقاط:

1- بثُّ إشاعة حول استعداد الروم لغزو المسلمين.

2- خروج جيش المدينة مع النبي محمد ﷺ لملاقاتهم.

3- إحداث الفرقة في الجيش وإثارة السخط العام.

---

(1) سيرة ابن هشام 4/ 946.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 946.

(3) سيرة ابن هشام 4/ 944.

4- بقاء أصحاب الخطَّة في المدينة تحت أعذار مختلفة.

5- التأكّد من مسير الجيش إلى تبوك.

ومع نجاح هذه الخطوات فإنَّ المدينة مركز الدولة الإسلاميَّة ستكون في متناولهم بحيث يستطيعون السيطرة عليها بسهولة والانقلاب على النبي محمد ﷺ وبالتالي سقوط دولته وانتقال الحكم إليهم، كلُّ هذا بمساعدة هرقل الروم وبعض اليهود الحاقدين على الإسلام، وهذا ما يفسِّر لنا اهتمام القرآن الكبير بهذه الغزوة، وشدّة تقريعه للمنافقين والمتخلِّفين بل وتبشيرهم بالنار والعذاب الأبدي إذ إنَّ خيوط المؤامرة مشتركة بين الروم النصارى وبقايا يهود المدينة و"حزب النفاق".

الفشل الذريع:

وكما يُقال تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فإنَّ تخطيط المنافقين ذهب أدراج الرياح وفشلوا فشلًا ذريعًا في سيطرتهم على المدينة وتحقيقهم لأهدافهم، فكلُّ ما فعلوه انقلب عليهم وافتضح أمرهم وانكشفت خباياهم لعامَّة الناس.

وأسباب هذا الفشل ترجع إلى السياسة المحنَّكة التي تعامل بها رسول الله ﷺ معهم؛ حيث سايرهم في كلِّ ما أشاعوه بحيث صدَّقوا أنّهم استطاعوا خداعه، والحال أنّهم ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾، إذ أنَّ إعلان النفير من النبي ﷺ وجمع الجيش في الجرف والتوجُّه إلى تبوك لم يكن إلّا

لفضح أعداء الداخل، وإلَّا من يقرأ السيرة الحربيَّة للنبي ﷺ يجد أنَّه كان يرصد تحرُّكات الفرس والروم بدقَّة؛ ولـذلك لم يباغـت في أيٍّ معركة من المعارك التي خاضها.

خرج رسول الله ﷺ من المدينة وتركها لهم فأيقنوا أنَّـه النـصر، إذ إنَّ والي المدينة الذي استخلفه عليها هو "محمد بـن مـسلمة"، ولم يكن هذا الوالي من الذين يخاف منهم، لكن حصل ما بعثر أوراقهم وأرجعهم لنقطة الصفر وغيَّر موازين القوى: ففي اللحظة الأخيرة ولأوَّل مرَّة تخلَّف علي بن أبي طالب ابن عمَّ رسول الله ﷺ والبطـل المجرَّب في الحروب عن هذه الغزوة لا لعذر منه، بل لمهمَّـة رسـميَّة كلَّفه بها النبي محمد ﷺ وهي البقـاء في المدينـة وحمايتهـا مـن غـدر الأعداء!

وقد كان هذا الأمر بمثابـة الـصدمة القويَّـة للمنـافقين الـذين علموا أنَّ بقاء عليٍّ بالمدينة يعني فشل خطَّتهم، فهو فارس ضرغـام لا يقدرون على مواجهة سيفه وإن كانوا كثرا لشجاعته وشدَّة بأسـه وتفانيه في نصرة الإسلام، خصوصًا وأنَّ خطَّـتهم المرسـومة تقـضي بالسيطرة على المدينة دون مقاومة أو مواجهة من الداخل بل كانـت الفكرة هي الاستعداد لمنع الجيش الـذي خـرج منهـا مـن الرجـوع إليها، وبقاء شخص مثـل عـلي بـن أبي طالـب سيمنع مـن تنفيـذ المخطَّط بسرعة ممَّا قد يعجِّل بعـودة الجـيش الـسائر إلى تبـوك قبـل الاستعداد لمواجهته!

ومن هنا فقد حاول القوم ثنيه عن البقاء وحثِّـه عـلى الخـروج

بالطعن فيه أو على الأقل العمل على تحطيم الجانب النفسي فيه وذلك بالترويج إلى أنَّ النبي ﷺ إنَّما تركه كرها لخروجه، قال ابن هشام: وخلَّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلَّا استثقالا له وتخفُّفا منه، فلمَّا قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب سلاحه، ثم خرج حتَّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبيَّ الله، زعم المنافقون أنَّك إنَّما خلَّفتني أنَّك استثقلتني وتخفَّفت منِّي، فقال: كذبوا، ولكنِّي خلَّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي، فرجع عليَّ إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفره[1].

وهذا الإعلان النبويَّ له دلالة رمزيَّة كبيرة جدًّا، إذ أنَّ في تشبيه علي بن أبي طالب بهارون إشارة صريحة إلى عظم المهمَّة التي وكلَّ بها وهي الحذر من بقيَّة قومه الذين يسعون للانقلاب، فكما استغلَّ قوم موسى غيابه للانقلاب على هارون وعبادة العجل فكذلك كان المراد من غزوة تبوك تحقيق مثل هذا الانقلاب الذي اكتملت كلُّ أركانه، وفي هذا الحديث دلالة على أهميَّة دور علي في المستقبل القريب[2] لاسيما ما ورد في بعض طرق الحديث من قول النبي ﷺ:

(1) سيرة ابن هشام 4/ 946.

(2) هذا الحديث يسمَّى بحديث المنزلة وهو متواتر كما نصَّ على ذلك جملة من الحفَّاظ، لكنَّ العجيب أنَّ أحمد بن حنبل كان ينهي عن السؤال عن هذا الخبر ويمنع من ذلك (السنة للخلال 347).

إنَّ المدينة لا تصلح إلَّا بي أو بك[1]، والأخطر منه قوله ﷺ: إنَّـه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي[2].

مؤامرة الاغتيال

إنَّ فشل الخطَّة السابقة كانت بمثابة الكارثة بالنسبة للمنافقين، لأنَّ رجـوع عـلي بـن أبي طالـب للمدينـة يعنـي افتـضاح أمـرهم وانكشافهم للكـلِّ لاسـيما عنـد النبـي ﷺ، وقـد تقـدَّم أنَّ رؤوس النفاق كانوا من علية القوم وبلغ منهم التخفِّي وإتقان الدور إلى حدِّ أنَّهـم ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾، فهـؤلاء كـانوا يتحكّمـون في مجريـات الأحداث لكـن مـن خلـف الكـواليس دون أن يـشعر بهـم أحـد، وسقوط هذا المخطَّط يعني قرب سـقوط أقنعـتهم ومعرفـة النـاس بحقيقة أمرهم، إذ تبيَّن بما لا يدع مجالا للـشك أنَّ النبـي ﷺ مطَّلـع على كلِّ كبيرة وصغيرة من تحرُّكاتهم، وأنَّ خروجه لتبوك لم يكن إلَّا مجرَّد طعم أراد أن يبتلعوه ليتمكَّن من إظهار أمرهم للناس!

ومن هنا فإنَّ الرجوع للمدينـة يعنـي الفـضيحة الكـبرى لهـم ونهاية مسلسل أحلامهم الذي بدأ منذ الأيَّام الأولى للبعثة النبويَّـة، وقد أشار القرآن لهـذا الهـاجس الـذي يعيـشونه بقولـه: ﴿ يَحْذَرُ

---

(1) المستدرك على الصحيحين 2/ 337؛ قال الحـاكم: هـذا حـديث صـحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(2) المستدرك على الصحيحين 3/ 134؛ قال الحـاكم: هـذا حـديث صـحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وقد حقَّقت الحديث سندًا ومتنًا في كتابي (مبيت علي ليلة الهجرة) فليراجع هناك.

ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾، فبدأوا التحضير لخطَّة بديلة تضمن عدم حصول هذه الفضيحة الكبرى، وكانت النتيجة أنّهم اتخذوا قرارًا نهائيًّا بتصفية رسول الله ﷺ والتخلُّص منه، وبالتالي تجنّب الفضيحة والحفاظ على المكانة الكبيرة بين المسلمين والتي تضمن انتقال السلطة إليهم دون صعوبات.

قصَّة العقبة[1]:

روت كتب السيرة والتاريخ هذه القصَّة مع تفاوت في التفاصيل، وأفضل نقل جامع لها ما نقله الصالحي الشامي في سيرته، قال: روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل، والبيهقي عن حذيفة، وابن سعد عن جبير بن مطعم، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحَّاك، والبيهقي عن عروة، والبيهقي عن ابن إسحاق، ومحمد بن عمر عن شيوخه رحمهم الله تعالى: أنَّ رسول الله ﷺ لَمَّا كان ببعض الطريق مكر به ناس من المنافقين وائتمروا بينهم أن يطرحوه من عقبة في الطريق، وفي رواية كانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ فجعلوا يلتمسون غرَّته، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة، أرادوا أن يسلكوها معه، وقالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فلمَّا بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مُناديه للناس: إنَّ رسول الله

---

(1) ليس المقصود من هذه العقبة المكان الذي حصلت فيه بيعة الأنصار للنبي ﷺ قبل الهجرة، بل هي عقبة أخرى في تبوك.

ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد واسلكوا بطن الوادي فإنَّه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي إلَّا النفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا ذلك استعدُّوا وتلثَّموا ، وسلك رسول الله ﷺ العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه، فبينا رسول الله ﷺ يسير من العقبة إذ سمع حسَّ القوم قد غشوه، فنفروا ناقة رسول الله ﷺ حتَّى سقط بعض متاعه وكان حمزة بن عمرو الأسلمي لحق برسول الله ﷺ بالعقبة، وكانت ليلة مظلمة، قال حمزة : فنوَّر لي في أصابعي الخمس، فأضاءت حتَّى جمعت ما سقط من السوط والحبل وأشباههما، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردَّهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن يضرب وجوه رواحلهم وقال: إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى، فعلم القوم أنَّ رسول الله ﷺ قد اطَّلع على مكرهم، فانحطُّوا من العقبة مسرعين حتَّى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتَّى أتى رسول الله ﷺ فقال: اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار، فأسرعوا حتَّى استوى بأعلاها، وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس، وقال لحذيفة: هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله قد عرفت رواحلهم وكان القوم متلثِّمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل، قال: هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: فإنَّهم مكروا ليسيروا معي فإذا طلعت العقبة زحموني فطرحوني منها، إن شاء الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى،

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس أن تضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدَّث الناس ويقولوا "إنَّ محمدا قد وضع يده في أصحابه"، فسماهم لهما ثم قال: "اكتماهم" فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم لي، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال له أسيد بن الحضير: يا رسول الله، ما منعك البارحة من سلوك الوادي؟ فقد كان أسهل من العقبة؟ فقال: أتدري يا أبا يحيي أتدري ما أراد بي المنافقون وما همُّوا به؟ قالوا: نتبعه من العقبة، فإذا أظلم عليه الليل قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتى يطرحوني عن راحلتي، فقال أسيد : يا رسول الله قد اجتمع الناس ونزلوا ، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإن أحببت -والذي بعثك بالحق- فنبِّئني بأسمائهم فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم، قال: يا أسيد إنِّي أكره أن يقول الناس إنَّ محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم[1].

وهذه القصة كشف عدَّة أمور مهمَّة:

أوَّلًا: يظهر من تفاصيل القصَّة أنَّ النبي ﷺ كان على علم مسبق بما يخطِّط له القوم وكان مستعدًّا لهذه الحادثة، وأمره للناس بأن لا يدخل أحد العقبة كان الغرض منه فصل هؤلاء عن بقيَّة الجيش لكي تتسنَّى معرفتهم وينكشفون أمام بقيَّة الجيش.

ثانيًا: إنَّ هذه الحادثة لم تكن وليدة اللحظة، بل كان القوم قد

---

(1) سبل الهدى والرشاد 5/ 466.

خطَّطوا لها مسبقًا وتآمروا على ذلك ويظهر هذا من خلال اختيار المكان والزمان المناسب، إذ أنَّ سقوط النبي ﷺ من العقبةِ ليلًا سيظهر كأنَّه مجرَّد حادث عرضي وليس اغتيالا، وهذا ما يؤكِّد ارتباط هذه المحاولة بما جرى في المدينة المنوَّرة قبل غزوة تبوك.

ثالثًا: الظاهر أنَّ هذه الحادثة كشفت تغلغل "حزب النفاق" في المجتمع المدني واتساع نفوذه، إذ أنَّه رغم فظاعة الجريمة وعظم الجناية لم يبح النبي محمد ﷺ ولم يحاسب القوم على ما فعلوه، وذلك سببه الخوف من التبعات التي من الممكن أن تحصل لو واجههم علنا بفعلتهم، فالقوم كانوا يعدُّون العدَّة لما هو أبعد من ذلك، وتوجيه الاتهام لهم يعني الدخول في حرب مباشرة مكشوفة معهم في عاصمة الدولة الإسلامية، ومثل هذا الأمر يعتبر فرصة جيَّدة للروم - الذين كانوا على تواصل مع المنافقين- لكي يقتحموا المدينة وينهوا الإسلام في مهده.

رابعًا: إنّ الذي شجَّعهم على السعي لقتل رسول الله ﷺ هو غياب علي بن أبي طالب ، فقد كان حاميا للنبي محمد ﷺ كما كان أبوه أبو طالب حاميًا له[1]، وكان لسيف الإمام عليٍّ بريق يخشاه

(1) ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أبا طالب بن عبد المطلب كان أكثر الناس دفاعا عن رسول الله ﷺ، ولأنَّ التاريخ كتب بأقلام أمويَّة فقد اعتبر هذا الرجل العظيم كافرا مستحقًّا لدخول النار ووضعت الأحاديث والروايات في إثبات كفره وشركه ونوع العذاب الذي يلقاه يوم القيامة، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم!

صناديد العرب ويرتعب منه فرسانها فلذلك لم يجرؤ أحد على مهاجمة النبي ﷺ في حضوره، ومن هنا فقد كان غيابه فرصة سانحة لن تتكرَّر لتنفيذ عمليَّة الاغتيال.

دائرة الاتهام:

السؤال الحسَّاس الذي يختلج في ذهن كلِّ قارىء ويسعى للبحث عن جوابه هو: هل من الممكن معرفة الشخصيات المتورطة في عمليَّة اغتيال النبي ﷺ؟ وهل توجد شواهد تاريخيَّة يمكن من خلالها كشف أسماء الجناة ومعرفة المشاركين في هذه العمليَّة؟

إنَّ المجمع عليه في التاريخ هو أنَّ النبي ﷺ لم يعلن أسماء هؤلاء، بل بقيت القضيَّة طيّ الكتمان للأسباب التي تقدَّم ذكرها، إنَّما ذكر علامات لهؤلاء عرفوا بها لاحقا بين المسلمين، وهذه السياسة نبويَّة جعلت فضول الناس هو من يكشف هؤلاء ويفضحهم تجنُّبًا لمحذور: إنَّ محمَّدا يقتل أصحابه!

ذكر بعض المؤرِّخين أسماء المنافقين الذين حاولوا اغتيال النبي ﷺ في العقبة: فقد رووا عن الزبير بن بكّار النسابة المعروف أسماء المتهمين بهذا الجرم، قال: **معتب بن قشير بن مليل من بني عمرو بن عوف** شهد بدرًا وهو الذي قال: "يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن على خلائه"، وهو الذي قال: "لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا"، قال الزبير: وهو الذي شهد عليه الزبير بهذا الكلام، **ووديعة بن ثابت بن عمرو بن عوف** وهو الذي قال: "إنَّما

كنَّا نخوض ونلعب"، وهو الذي قال: "مالكًا أرى قرآنا هؤلاء أرغبنا بطونا وأجبننا عند اللقاء"، وجد بن عبد الله بن نبيل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، وهو الذي قال جبريل : "يا محمد، من هذا الأسود كثير شعره عيناه كأنَّهما ومسالكه من صفر ينظر بعيني شيطان وكبده كبد حمار يخبر المنافقين بخبرك وهو المجتر بخرئه؟"، والحارث بن يزيد الطائي حليف لبني عمرو بن عوف، وهو الذي سبق إلى الوشل الذي نهى رسول الله ﷺ أن يمسّه أحد فاستقى منه، وأوس بن قيظي وهو من بني حارثة، وهو الذي قال: "إنَّ بيوتنا عورة"، وهو جدّ يحيى بن سعيد بن قيس، والجلاس بن سويد بن الصامت وهو من بني عمرو بن عوف وبلغنا أنَّه تاب بعد ذلك، وسعد بن زرارة من بني مالك بن ماتت وهو المدخن على رسول الله ﷺ وكان أصغرهم سنّا وأخبثهم، وقيس بن قهد من بني مالك بن ماتت، وسويد وداعس وهما من بني بلحبلى، وهما ممّن جهَّز بن أبي في تبوك يخذلان الناس، وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت، وكان من يهود قينقاع فأظهر إسلامه، وفيه غشُّ اليهود ونفاق من نافق، وسلامة بن الحمام من بني قينقاع فأظهر الإسلام[1].

وهذه القائمة لا يمكن الاعتماد عليها لعدَّة أسباب:

أوَّلًا: إنَّ الزبير بن بكّار قد ولد في سنة 172هـ بإجماع المؤرِّخين أي بعد قضيّة العقبة بأكثر من 150 سنة، فإذا كان الذي

(1) المعجم الكبير 3/ 166.

شهد الواقعة مثل عمّار بن ياسر لم يستطيع تشخيص الذين هجموا على رسول الله ﷺ، فكيف علم بأسمائهم من جاء بعده بقرن ونصف؟! خصوصًا وأنّه لم يذكر مصدر المعلومة[1].

ثانيًا: إنَّ بعض الأسماء المذكورة في هذه القائمة لم يعلم أنّها موجودة في تبوك أصلًا، بل إنَّ بعضها قد نصَّ المؤرِّخون على تخلُّفهم مثل الجلاس بن سويد الذي لم يخرج مع النبي ﷺ إلى تبوك[2]، ومثل سويد وداعس اللذان كانا رفيقين لعبد الله بن أبي بن سلول الذي انسحب بعسكره قبل المسير لتبوك[3]، فاتهام هؤلاء بالمشاركة في هذه المؤامرة مبنيٌّ على ثبوت خروجهم من المدينة المنوَّرة والتحاقهم بالجيش النبوي.

ثالثًا: إنَّ هذه الأسماء هي عين أسماء المنافقين المشهورين بنفاقهم والذين عدَّد أسماءهم ابن هشام في سيرته نقلا عن ابن إسحاق[4]، وكون هؤلاء هم أصحاب مؤامرة العقبة بعيد جدًّا إذ كيف ينفِّذ المجرم جريمته في وسط قد عَرف له سوابق من هذا النوع واحتمل صدور مثل هذا الفعل منه، والأهمُّ من هذا هو فقدان الدافع للجريمة وهو الركن الأساس، إذ لو نجحت جريمة

---

(1) ذكرت هذه القائمة في تفسير مقاتل بن سليمان 2/ 183 مع اختلاف بسيط في بعض الأسماء.

(2) مغازي الواقدي 2/ 1005، سيرة ابن هشام 2/ 363.

(3) سيرة ابن هشام 4/ 946.

(4) سيرة ابن هشام 2/ 363.

هؤلاء واغتالوا النبي المصطفى ﷺ لما حقّقوا شيئًا من المصالح لكونهم ليسوا أصحاب نفوذ أو سلطة في المجتمع الإسلامي، ولو كان الأمر مجرَّد عداء للنبي ﷺ فلماذا هذه السريَّة المبالغ فيها؛ فالكلُّ يعرف أنَّهم أعداء ألدّاء للإسلام والمسلمين؟!

رابعًا: الغريب في هذه القائمة، بل في كلّ القوائم التي طرحوها لأسماء المنافقين: هو أنَّ كلَّ الأسماء المطروحة فيها من الأنصار ولا يوجد فيهم اسم مهاجريٌّ واحد، بل صرَّح الواقدي بأنّه "ليس فيهم قرشي، وهذا الأمر المجتمع عليه عندنا"[1]!

ودائمًا عندما يتعرَّض للنفاق وأهله لا يذكر إلّا الأنصار حتّى قيل (نشأ النفاق في الأنصار)، وهذا ما يؤكّد أنّ "حزب النفاق" مهاجريٌّ بامتياز، إنّما يحمي نفسه بإلقاء التهمة على الأنصار، ومن هنا حمّلوا عبد الله بن أبي بن سلول كلَّ آيات النفاق ومصائب المنافقين، والزبير بن بكّار هو قرشي من نسل عبد الله بن الزبير فتأمّل.

إنَّ كلَّ هذه الأمور تمنعنا من التصديق بصحّة الأسماء التي حوتها هذه القائمة لعدم وجود الدليل وفقدان الدافع ووجود المانع من اتهام البعض لكونهم غير متواجدين أصلًا في تبوك، أضف على هذا: أنَّ هذه القائمة قد نقلت في مصادر أخرى مع تغيير وتبديل في بعض الأسماء!

فقد روى البيهقي مسندًا عن ابن إسحاق عن النبي ﷺ: "إنَّ

---

(1) المغازي 2/ 1054.

الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح، فانطلق إذا أصبحت فاجمعهم"، فلمّا أصبح قال: "ادع عبد الله أظنَّه ابن سعد بن أبي سرح" وفي الأصل "عبد الله بن أبي وسعد بن أبي سرح"، إلَّا أنَّ ابن إسحاق ذكر قبل هذا أنَّ ابن أبي تخلَّف في غزوة تبوك ولا أدري كيف هذا؟ قال ابن إسحاق: وأبا حاضر الأعرابي، وعامرا، وأبي عامر، والجلَّاس بن سويد بن الصامت، وهو الذي قال: "لا ننتهي حتى نرمي محمدًا من العقبة الليلة ولئن كان محمد وأصحابه خيرًا منَّا إنَّا إذا لغنم وهو الراعي ولا عقل لنا وهو العاقل"، وأمره أن يدعو: مجمع بن جارية وفليح التيمي وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام فانطلق هاربًا في الأرض فلا يدري أين ذهب، وأمره أن يدعو حصين بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه فقال له رسول الله ﷺ: "ويحك ما حملك على هذا؟" قال: حملني عليه أنِّي ظننت أن الله لم يطلعك عليه، فأمَّا إذ أطلعك الله عليه وعلمته فإنِّي أشهد اليوم أنَّك رسول الله ﷺ وإنِّي لم أؤمن بك قط قبل الساعة يقينًا، فأقاله رسول الله ﷺ عثرته وعفا عنه بقوله الذي قال، وأمره أن يدعو طعمة بن أبيرق وعبد الله بن عيينة وهو الذي قال لأصحابه: "اشهدوا هذه الليلة تسلموا الدهر كلَّه، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل"، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: "ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أنِّي قتلت؟" فقال عدو الله: "يا نبي الله، والله لا تزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوِّك، إنَّما نحن بالله وبك"، فتركه رسول الله ﷺ؛ وقال لحذيفة أدع مرة بن ربيع، وهو الذي ضرب بيده على

عاتق عبد الله بن أبي ثم قال: "تمطَّى والنعيم لنا من بعده، كائن نقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين"، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له: ويحك ما حملك على أن تقول الذي قلت؟ فقال: "يا رسول الله ﷺ إن كنت قلت شيئًا من ذلك إنَّك لعالم به وما قلت شيئًا من ذلك"، فجمعهم رسول الله ﷺ وهم إثنا عشر رجلًا الذين حاربوا الله ورسوله وأرادوا قتله فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم ومنطقهم وسرَّهم وعلانيَّتهم وأطلع الله عزّ وجل نبيِّه على ذلك بعلمه، ومات الإثنا عشر منافقين محاربين لله تعالى ورسوله، وذلك قول الله ﷻ ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾، وكان أبو عامر رأسهم وله بنوا مسجد الضرار وهو الذي كان يقال له الراهب فسمَّاه رسول الله ﷺ الفاسق وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، فأرسلوا إليه فقدم عليهم أخزاه الله وإياهم، وانهارت تلك البقعة في نار جهنم[1].

وهذه القائمة تزيد من الإشكالات على هذه القصَّة، ولذلك تنبَّه ابن قيم الجوزيه لهذه الاشتباهات فقام بنقد هذه القائمة، قال: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وهم من وجوه:

أحدها: أنَّ النبي ﷺ أسرَّ إلى حذيفة أسماء أولئك المنافقين، ولم يطلع عليهم أحدًا غيره، وبذلك كان يقال لحذيفة: إنَّه صاحب السرِّ الذي لا يعلمه غيره، ولم يكن عمر ولا غيره يعلم أسماءهم، وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه يقول عمر: "انظروا، فإن صلَّى عليه حذيفة، وإلَّا فهو منافق منهم".

---

(1) دلائل النبوّة 5/ 258.

الثاني: ما ذكرناه من قوله: "فيهم عبد الله بن أبي"، وهو وهم ظاهر، وقد ذكر ابن إسحاق نفسه أنَّ عبد الله بن أبي تخلَّف في غزوة تبوك.

الثالث: أنَّ قوله: وسعد بن أبي سرح وهم أيضًا، وخطأ ظاهر، فإنّ سعد بن أبي سرح لم يعرف له إسلام البتة، وإنّما إبنه عبد الله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتدّ ولحق بمكة، حتّى استأمن له عثمان النبي ﷺ عام الفتح فأمنه، وأسلم فحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك شيء ينكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الإثني عشر البتّة، فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش.

الرابع: قوله: "وكان أبو عامر رأسهم"، وهذا وهم ظاهر لا يخفى على من دون ابن إسحاق، بل هو نفسه قد ذكر قصَّة أبي عامر هذا في قصة الهجرة، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أنَّ أبا عامر لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلًا، فلمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف، فلمَّا أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام، فمات بها طريدًا وحيدًا غريبًا، فأين كان الفاسق وغزوة تبوك ذهابًا وإيابًا[1]؟

رواية الزبير بن بكّار	رواية محمد بن إسحاق
1 - الجلاس بن سويد	
2 - معتب بن قشير	2 - عبد الله بن أبي

(1) زاد المعاد 3/ 479.

رواية الزبير بن بكّار	رواية محمد بن إسحاق
3- وديعة بن ثابت	3- سعد بن أبي سرح
4- جد بن عبد الله	4- أبو جاضر الأعرابي
5-الحارث بن يزيد	5-عامر
6- أوس بن قيظي	6-أبو عامر الراهب
7-سعد بن زرارة	7-محمد بن جارية
8- قيس بن قهد	8-فليح التيمي
9- سويد	9- حصين بن نمير
10- داعس	10- طعمة بن أبيرق
11- قيس بن عمرو	11- عبد الله بن عيينة
12- زيد بن اللصيت	12- مرّة بن ربيع
13- سلامة بن الحمام	

والمضحك أنَّ بعضهم قد حاول إلصاق التهمة بالإمام علي بن أبي طالب، فقد روى الخطيب البغدادي بسنده إلى إسماعيل بن عياش قال: سمعت حريز بن عثمان، قال: هذا الذي يرويه الناس عن النبي ﷺ قال لعلي: "أنت منّي بمنزلة هارون من موسى" حقٌّ ولكن أخطأ السامع، قلت: فما هو؟ قال: إنَّما هو أنت منّي مكان قارون من موسى، قلت: عمَّن ترويه؟ قال سمعت الوليد بن عبد الملك يقوله وهو على المنبر[1].

(1) تاريخ بغداد 8/ 262.

وتشبيهه بقارون هو لمحاولته قتل النبي ﷺ في قصَّة مضحكة اخترعها هذا الناصبي، قال: روي أنَّ النبي ﷺ لما أراد أن يركب بغلته جاء علي بن أبي طالب فحلَّ حزام البغلة ليقع النبي ﷺ[1]؛ والأهمُّ من هذه القصَّة تعليق ابن حجر العسقلاني حيث قال: لعلَّه سمع هذه القصة أيضًا من الوليد[2].

فهذا الاختلاف الشنيع والأخطاء الفادحة دليل قاطع على أنَّ هذه الأسماء أقحمت إقحامًا لغرض التعتيم على الأسماء الحقيقيَّة التي خطَّطت ودبَّرت ونفَّذت حادثة الاغتيال، ولكونها من الأسماء الثقيلة تعمَّد المؤرِّخون إمَّا تحت ضغط الحكومات أو لانتماءاتهم المذهبيَّة إخفاء هذه الأسماء لأنَّ البوح بها يهدم كلَّ البناء، وبهذا يبقى السؤال مطروحًا: من الذي أراد اغتيال النبي ﷺ ليلة العقبة؟

صندوق الأسرار:

رغم كلِّ محاولات التعتيم حول هذه الحادثة إلَّا أنَّ النبي ﷺ قد ترك لنا صندوق أسرار احتوى كلَّ ما يتعلَّق بهذه الحادثة، وهذا الصندوق كان يطلق بين الفينة والأخرى إشارات لعامَّة الناس تدلُّ على أسماء هذه الفئة التي عمدت لتصفية النبي ﷺ، إنَّه الصحابي الجليل: حذيفة بن اليمان الذي شهد بنفسه الواقعة.

فإذا أردنا معرفة أسماء الجناة الحقيقيِّين فعلًا فما علينا إلَّا تتبّع

---

(1) تهذيب التهذيب 2/ 209.

(2) تهذيب التهذيب 2/ 210.

إشارات حذيفة بن اليمان الذي كان يعرف بصاحب سرِّ رسول الله ﷺ حول هذه الفئة ومحاولة تطبيقها على الواقع التاريخي:

الإشارة الأولى: قوله كما في حديث روي في صحيح مسلم: قال النبي ﷺ في أصحابي اثنا عشر منافقًا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنَّة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة، وأربعة لم أحفظ ما قال شعبة[1].

وبغضِّ النظر عن سبب إخفاء الراوي لبقيَّة الحديث وتظاهره بالنسيان فإنّ كلامنا سينصبُّ حول العلامة التي حدَّدها حذيفة وهي أنَّ ثمانية من هؤلاء المجرمين سيموتون بداء الدبيلة، وهذا الداء قد عرِّف في بعض طرق الحديث بـ" شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيقتله[2]؛ وهذه العلامة واضحة وسهلة التمييز، فكلُّ من مات بالدبيلة من الصحابة يكون داخلًا في دائرة الاتِّهام.

لكنَّ العجيب من المحدِّثين وشرَّاح الحديث والمفسِّرين والمؤرِّخين إهمالهم البحث في هذه القضيَّة، فلا تجد أحدًا منهم قد عقد في كتابه باب لذكر من توفِّي بالدبيلة، ولا أدري هل هناك أمر أهمُّ من معرفة المنافقين الذين اعتبرهم حذيفة: حربًا لله ورسوله؟!

إنَّ هذا السكوت المريب منهم لا يمنع من معرفة الحقِّ،

---

(1) صحيح مسلم 8/ 122.

(2) المعجم الأوسط 8/ 102.

فالحديث ورد في صحيح مسلم فيه جزء من الجواب، إذ إنَّه قد بدأ بحوار دار بين عمَّار بن ياسر الذي شهد الواقعة ورجل آخر سأله عن أمر عليٍّ ، قال: قلت لعمَّار أرأيتم صنيعكم هذا الذي صنعتم في أمر عليّ، أرأيا رأيتموه أو شيئًا عهده إليكم رسول الله ﷺ، فقال: ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس كافَّة ولكن حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ...[1].

فالسائل يسأل عن سبب وقوف عمَّار في صفِّ علي وليس مع الطرف الآخر، فكان من جواب عمَّار أن ربط هذا الأمر بقضيَّة العقبة وتحديدًا بمرتكبي هذه الجريمة، والتفسير الوحيد لهذا الربط هو أنَّ هناك من محاربي عليّ بن أبي طالب من كان مشاركًا في قضيَّة العقبة، وبهذا تضيق الدائرة أكثر ويصبح في المتهم علامتين: الأولى موته بالدبيلة، والثانية كونه ممَّن حارب عليًا .

وهذه الصفتان لم تجتمعا إلَّا في شخص واحد هو: معاوية بن أبي سفيان: أمَّا حربه لعليٍّ فهو أمر معروف مشهور لا يحتاج دليلًا أو برهانًا فأحداث موقعة صفِّين قد ملأت كتب التاريخ، وأمَّا موته بمرض الدبيلة فهذا ما نقله بعض المؤرِّخين وثبت في بعض الأخبار:

فمن المؤرِّخين الذين نصُّوا على موته بالدبيلة ابن قتيبة الدينوري الذي نقل عن ابن إسحاق كاتب - السيرة المعروف-

(1) صحيح مسلم 8/ 122.

قوله: مات وله ثمان وسبعون سنة، وكانت علّته الناقبات يعني: الدَّبيلة[1].

ومنهم ابن سعد في طبقاته حيث نقل مسندا: عن أبي بردة قال دخلت على معاوية بن أبي سفيان حين أصابته قرحته، فقال: "هلمَّ يا ابن أخي تحوَّل فانظر"، قال: فتحوَّلت فنظرت فإذا هي قد سبرت يعني قرحته، فقلت: ليس عليك بأس يا أمير المؤمنين[2].

ومنهم ابن أبي الدنيا الذي روى في كتابه (المحتضرين) بسنده عن ثابت قال: لما كبر معاوية خرجت له قرحة في ظهره، فكان إذا لبس دثارًا ثقيلًا -والشام أرض باردة- أثقله ذلك وغمَّه، فقال: "اصنعوا لي دثارًا خفيفًا دفيئًا من هذه السخال"، فصنع له فلمَّا ألقي عليه تسارَّ إليه ساعة ثم غمَّه، فقال: "جافوه عنِّي"، ثم لبسه ثم غمَّه فألقاه، ففعل ذلك مرارًا، ثم قال: قبَّحك الله من دار، ملكتك أربعين سنة عشرين خليفة وعشرين إمارة ثم صيَّرتني إلى ما أرى قبَّحك الله من دار[3].

فمن خلال هذه الإشارة يدخل "معاوية بن أبي سفيان" في

---

(1) المعارف 349.

(2) الطبقات الكبرى 4/ 112.

(3) المحتضرين 210؛ إنَّ في الحديث دلالة صريحة على أنَّ هذا المرض كان في آخر حياة معاوية، إذ أنَّه تولَّى إمارة الشام في سنة 21هـ وقضى فيها قرابة الأربعين سنة إلى أن توفِّي في سنة 60هـ، بل يكفينا عنوان الكتاب "المحتضرين" لإثبات ذلك.

دائرة الاتِّهام، بل يعرف أيضًا سبب إخفاء هذا الأمر في كتب التاريخ وإصرار الوليد بن عبد الملك على اتِّهام علي بن أبي طالب وهو أنَّ هذه المؤامرة الخبيثة قد اشترك فيها بعض بني أميَّة وعلى رأسهم مؤسِّس دولتهم ومثبِّت ملكهم معاوية.

الإشارة الثانية: هي ما رواه البخاري عن زيد بن وهب قال: كنَّا عند حذيفة، فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ إلَّا ثلاثة ولا من المنافقين إلَّا أربعة، فقال أعرابي: إنَّكم أصحاب محمد ﷺ تخبرونا فلا ندري، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفسَّاق، أجل لم يبق منهم إلَّا أربعة، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده[1].

وهذا النص يعطينا صفة لأحد الذين شاركوا في مؤامرة الاغتيال، فبحسب هذه الرواية هو شيخ كبير لا يجد برد الماء "لذهاب شهوته وفساد معدته فلا يفرق بين الألوان ولا الطعوم[2]"، وبالتالي هو أحد الصحابة الذين بلغ من العمر عتيًّا بحيث أصبحت فيه هذه الحالة.

لم تذكر النصوص كالعادة اسمه الصريح بل لم ينقل المؤرِّخون من وصلت به الهرم إلى هذه الحالة رغم أنَّهم اهتموا بتوافه الأمور، والسبب واضح وجليٌّ وهو أنَّ الأسماء المشتركة في المؤامرة لا

---

(1) صحيح البخاري 5/ 203.

(2) فتح الباري 8/ 243.

تنسجم مع الوضع الديني والسياسي والاجتماعي العام، لذلك أبهموها تحت هذه الضغوط المختلفة.

إلَّا أنّ مفتاح فهم كلام حذيفة هو ربطه بين المقصودين من الآية وبين المنافقين، فقد رويت روايات مفادها أنَّ أئمَّة الكفر المقصودين هم رؤوس الشرك في مكَّة، قال قتادة: قتادة في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، قال: «أبو سفيان بن حرب، وأميَّة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله، وهمُّوا بإخراج الرسول[1].

وهذا الخبر مشكل من جانبين:

أوَّلها: أنَّ التوبة نزلت في المدينة كما تقدَّم في السنة التاسعة من الهجرة وهؤلاء قتلوا قبل هذا التاريخ، وقد استدرك ابن حجر على هذه الأسماء بقوله: سمَّي منهم في رواية أبي بشر عن مجاهد أبو سفيان بن حرب، وفي رواية معمر عن قتادة أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وأبو سفيان وسهيل بن عمرو، وتعقَّب بأنَّ أبا جهل وعتبة قتلا ببدر، وإنَّما ينطبق التفسير على من نزلت الآية المذكورة وهو حيٌّ فيصحُّ في أبي سفيان وسهيل بن عمرو وقد أسلما جميعًا[2].

ثانيها: أنَّه قد روي عن حذيفة بعدَّة طرق أنَّه قرأ هذه الآية ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ثم أردفها بقوله: "ما قوتل أهل هذه

---

(1) تفسير عبد الرزّاق 2/ 137.

(2) فتح الباري 8/ 243.

الآية بعد"[1]، ممَّا يعني أنَّ المراد من هـذه الآيـة هـم الـذين دخلـوا الإسلام وعاهدوا على عدم العود إلى ما كانوا عليه، والآيـة بـصدد تهديدهم بالقتال في حال رجعوا عن الدين.

وبالتالي فإنَّ المقصود بالآية الأولى هـو عـين المقـصود بالثانيـة وهذا هو مراد حذيفة بن اليمان، إذ أنَّ الكلَّ يعـرف أنَّـه لم يبـق مـن زعماء قريش إلَّا أبـو سـفيان بـن حـرب، ودخولـه للإسـلام كـان استسلامًا لا إسلامًا كما هو مسطَّر في كتب السير، والأهمُّ من هـذا هو تقدُّمه في السن حيث توفي وقـد تجـاوز التـسعين سـنة وهـو مـا ينطبق على وصف حذيفة: شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجـد برده[2].

وقد أشار ابن عبد البرِّ إلى وجود أخبار حول بلايـا أبي سـفيان بعد إسلامه، فقال: وروي عن الحسن أنَّ أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه، فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعـديٍّ، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أميَّة، فإنَّما هو الملـك ولا أدري ما جنَّة ولا نار، فصاح به عثمان: "قم عنِّي، فعـل الله بـك وفعـل"، وله أخبار من نحو هذا رديَّة ذكرهـا أهـل الأخبـار لم أذكرهـا، وفي بعضها ما يدلُّ على أنه لم يكن إسلامه سالمًا[3].

(1) مصنّف ابن أبي شيبة 8/ 637.

(2) صحيح البخاري 5/ 203.

(3) الاستيعاب 4/ 1679.

الإشارة الثالثة: وهي الأصرح ممَّا سبق، فقد روى مسلم في صحيحه: حدَّثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك، قال: كنَّا نخبر أنَّهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أنَّ إثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: "ما سمعناه منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم"، وقد كان في حرَّة فمشى فقال إنَّ الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قومًا قد سبقوه فلعنهم يومئذٍ[1].

وهذا الأثر هو تصريح لا تلويح بشخصيَّة هذا المتَّهم، إذ أنَّ حذيفة بن اليمان قد فضحه على الملأ وأخبر بأنَّه من أهل العقبة، ولقد حاول الرواة إخفاء اسمه كما نقلنا من صحيح مسلم، لكن ورد التصريح به في كتب أخرى من أهمِّها مصنَّف بن أبي شيبة الذي نقل فيه الخبر بصورة أضبط وأوضح حيث قال: كان بين حذيفة وبين رجل منهم من أهل العقبة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ فقال القوم: فأخبره فقد سألك، فقال أبو موسى الأشعري: قد كنَّا نخبر أنَّهم أربعة عشر ، فقال حذيفة: وإن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، أشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب الله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم

---

(1) صحيح مسلم 8/ 123.

الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا ما يريد القوم[1].

فالرجل المقصود إذن هو "أبو موسى الأشعري"، ولم تكن هذه المرَّة الوحيدة التي يخبر فيها حذيفة بنفاقه، فقد أخبر في عدَّة موارد أخرى كالخبر الذي رواه الفسوي في تاريخه بسنده عن شقيق قال: كنّا مع حذيفة جلوسًا فدخل عبد الله وأبو موسى المسجد، فقال- حذيفة-: أحدهما منافق، ثم قال: إنَّ أشبه الناس هديًا ودلًّا وسمتًا برسول ﷺ عبد الله[2].

فالإخبار بأنَّ أحدهما منافق ثم التصريح بمدح واحد منها دليل على أنَّ المتبقّي منافق كما لا يخفى، ووسمه بالنفاق يعني أنَّه من المشاركين بتلك المؤامرة التي حدثة ليلة العقبة لكون النبي ﷺ قد أخبره بخصوص أسماء هؤلاء لا غيرهم، ومن هنا فإنَّ المؤرّخين قد أحسُّوا بخطورة هذا الأثر فحاولوا دفعه بما يضحك الثكلى، وعلى رأسهم الذهبي الذي قال: ما أدري ما وجه هذا القول، سمعه عبد الله بن نمير منه،...، ولا ريب أنّ غلاة الشيعة يبغضون أبا موسى لكونه ما قاتل مع علي، ثم لما حكَّمه علي على نفسه عزله وعزل معاوية، وأشار بابن عمر فما انتظم من ذلك حال[3].

---

(1) مصنَّف لابن أبي شيبة 8/ 588، صحيح.

(2) المعرفة والتاريخ 2/ 771؛ والسند لا إشكال فيه فكلُّ رواته من الثقات.

(3) سير أعلام النبلاء 4/ 47.

ولا ندري ما علاقة الشيعة بهذا الموضوع، وما ذنبهم إذا أبغضوا شخصًا يشهد التاريخ بنفاقه، وقد ورد تصريح أخطر ممَّا تقدَّم من كلام الذهبي وهو ما ذكره ابن عبد البر، حيث اعترف بوجود تصريحات لحذيفة تدين أبا موسى لكنَّه تجنَّب إيرادها في كتابه، قال: وعزله عليٌّ ﷺ عنها، فلم يزل واجدًا منها على عليٍّ، حتى جاء منه ما قال حذيفة، فقد روى فيه لحذيفة كلام كرهت ذكره، والله يغفر له[1].

وأنا أقول سامح الله من جنى هذه الجناية العظيمة على التاريخ فأخفى هذه عن المسلمين، وحرَّف وزوَّر وأخفى بما يمليه عليه هواه ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العظيم.

الإشارة الرابعة: هي الإشارة الأخطر من كلِّ ما تقدَّم، وخطورتها تظهر من طريقة تعاطي حذيفة معها، إذ أنَّه كان يشير إلى وجود أمر عظيم لا يستطيع البوح به، ولو باح به لن يصدِّقه أحد، بل إنَّ مجرَّد محاولة البوح به ستؤدِّي إلى قتله!

فقد قال حذيفة:

لو أنِّي أحدِّثكم بكلِّ ما أعلم قتلتموني، أو قال: لم تصدِّقوني[2].

لو حدَّثتكم بكلِّ ما أعلم ما رقبتم بي الليل[3].

---

(1) الاستيعاب 3/ 980.

(2) جامع معمر بن راشد 11/ 52.

(3) فتن ابن حمّاد 16.

لو كنت على شاطئ نهر، وقد مددت يدي لأغترف فحدَّثتكم بكلِّ ما أعلم ما وصلت يدي إلى فمي حتى أقتل[1].

لو حدَّثتكم بحديث لكذَّبني ثلاثة أثلاثكم، ففطن له شاب فقال: من يصدقك إذا كذَّبك ثلاثة أثلاثنا؟[2]

ومن حقِّنا أن نتساءل الآن:

إلى ماذا يرمي حذيفة؟

وما الرسالة التي يريد إيصالها للناس؟

وما الشيء الذي يؤدِّي البوح به إلى التكذيب والقتل؟

إنَّ الإجابة على هذه الأسئلة لا تحتاج إلى عناء وطول تفكير، بل هي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، إذ أنَّ كلام حذيفة مفاده أنَّ قسما من أسماء الذين شاركوا في عمليَّة الاغتيال لا يمكن البوح بها، وسبب ذلك أنَّها شخصيَّات من الوزن الثقيل في المجتمع الإسلامي ولها قداسة كبيرة بحيث لا يمكن تصديق صدور مثل هذا الأمر منها حتَّى لو لزم الأمر تكذيب حذيفة بن اليمان، وهذا هو عين قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فالمجتمع الإسلامي خدع بتظاهر هؤلاء بالإسلام والتزامهم بظاهر الشريعة بحيث لا يقبل أيُّ طعن فيهم!

(1) تهذيب الكمال 5/ 507.

(2) تهذيب الكمال 5/ 507.

ولعلَّ هذا الأمر هو الـذي دعـا رسـول الله ﷺ لكـتمان هـذه الأسماء لأنَّه سيكون عرضة للتكذيب في حال باح بها، وقد امـتحن النبي ﷺ قومه في مثل هذه الأمور أكثر من مرَّة:

فإذا كان الناس قد استعظموا إخباره ﷺ بأنَّ رجلًا عاديًّا مـن أهل النار لكونه جاهد في سبيل الله، كما روي في صحيح مسلم: أنَّ رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلـما مـال رسـول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة إلَّا اتبعها يضربها بسيفه، فقـالوا: مـا أجزأ منَّا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: أما إنَّه مـن أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبدا، قال: فخـرج معـه كلَّما وقف وقف معه وإذا أسرع أسرع معـه، قـال: فجـرح الرجـل جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابـه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسـول الله ﷺ فقال أشهد أنَّك رسول الله، قـال: ومـا ذاك؟ قـال: الرجـل الذي ذكرت آنفًا أنَّه من أهل النار فأعظم الناس ذلك[1].

وامتنعوا عـن تنفيـذ أمـر رسـول الله ﷺ بقتـل رجـل عنـدما وجدوه يصلِّي كما روي في مـسند أحمـد: أنَّ نبـيَّ الله ﷺ مـرَّ برجـل ساجد وهو ينطلق إلى الـصلاة فقـضى الـصلاة ورجـع عليـه وهـو ساجد، فقام النبي ﷺ فقال: من يقتل هذا؟ فقام رجل فحـسر عـن يديه فاخترط سيفه وهزَّه ثم قال: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، كيـف

(1) صحيح مسلم 1/ 74.

أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، ثم قال: من يقتل هذا؟ فقام رجل فقال: أنا، فحسر عن ذراعيه واخترط سيفه وهزَّه حتَّى أرعدت يده، فقال: يا نبي الله كيف أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، فقال النبي ﷺ: والذي نفس محمد بيده لو قتلتموه لكان أوَّل فتنة وآخرها[1].

فمن باب أولى أنَّهم يرفضون اتهام فلان أو فلان بالنفاق وبمحاولة اغتيال النبي ﷺ مع سابقتهم بالإسلام وعدم ظهور أيِّ شيء ينافي إيمانهم في نظر عموم المسلمين!

فإن كان الاسمين السَّابقين قد عمدت الأيادي "الأمينة" لإخفائها وعدم إشاعتها بين الناس رغم أنَّهما من مسملة الفتح طلقاء مكَّة ، فإنَّ الجهود ستكون مضاعفة لحفظ هذه الأسماء من الفضيحة لكونها تمثِّل ثقلًا إسلاميًّا، ومن هنا فإنَّ التاريخ قد أهمل ذكر هذه الأسماء ولم يتجرَّأ أحد من المؤرِّخين على الخوض فيها وكشف المستور عنها، ولذلك فإنَّ المعلومات شحيحة جدًّا حول هذه الفئة.

لكنَّ المفاجأة الكبرى أنَّه وجدنا طرف خيط يمكنه أن يوصلنا إلى المجرمين الذين نبحث عنهم: ففي فلتة من فلتات لسان أحد كبار العلماء وهو "ابن حزم الظاهري" تسرَّبت الحقيقة:

---

(1) مسند أحمد 5/ 42.

فعند بحثه حول قضيَّة العقبة ومحاولته طمس كلَّ القضيَّة من أساسها سرَّب من حيث لا يدري بعض المعلومات التي حاول أسلافه إخفاءها فقال: وأمَّا حديث حذيفة فساقط لأنَّه من طريق الوليد بن جميع وهو هالك ولا نراه يعلم من وضع الحديث، فإنَّه قد روى أخبارا فيها أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أرادوا قتل النبي ﷺ وإلقاءه من العقبة في تبوك، وهذا هو الكذب الموضوع الذي يطعن الله تعالى واضعه[1].

والنقطة المهمَّة في كلامه هي إقراره بوجود أخبار -لا خبر واحد- مرويَّة عن حذيفة بن اليمان فيها تسمية من شارك في محاولة اغتيال النبي ﷺ يوم العقبة، بل ذكر بعض الأسماء المهمَّة:

1 - أبو بكر

2 - عمر

3 - عثمان

4 - طلحة

5 - سعد بن أبي الوقاص

وهذه الأسماء تتلاءم مع كلام حذيفة المتقدِّم من أنَّه لن يصدَّق إذا قام بإخبار عامَّة الناس بل قد يقتل لأجلها، والسبب واضح لكلِّ ذي لبٍّ فهؤلاء يعتبرون من أكابر الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة، والأهم من كلِّ هذا أنَّ السلطة كانت بأيديهم، وإذا

(1) المحلّى 11/ 224.

أضفنا لهم من قدَّمنا ذكرهم لاسيما معاوية وأبا سفيان فإنَّ الصورة تكون قد اكتملت.

والأسئلة الملحَّة هنا:

أين هذه الروايات التي يتحدَّث عنها ابن حزم؟

ولماذا لا نجد لها عينًا ولا أثرًا في كتب التواريخ والسير؟

وكيف استطاعوا إبعادها عن أعين عامَّة الناس وإخفاءها عنهم؟

الجواب عن هذا السؤال قد تقدّم في الفصول الأولى من الكتاب، عندما ذكرنا ما حصل بعد وفاة النبي ﷺ من منع للحديث والرواية، ولعلَّ القارىء النبيه قد تساءل عن سبب هذا التشدُّد في المنع بحيث يعاقب كلّ من يخالفه، وجوابه أنَّ التساهل في هذا الأمر سيسمح بانتشار مثل هذه الروايات في المجتمع الإسلامي والتي من شأنها أن تهدم كلَّ شيء على رؤوس المؤسّسين.

ولقد أشارت مصادر الشيعة إلى روايات الوليد بن الجميع المتقدِّمة، فهي وإن لم تنقلها لفظا إلَّا أنَّها أشارت إلى نفس المضمون الذي حكاه ابن حزم في المحلَّى، فقد ذكر محمد بن جرير الطبري الشيعي في كتابه المسترشد: وروى عبيد الله بن موسى عن الوليد بن جميع، عن أبي الطفيل، عن حذيفة أو عمار، قال: تجسَّسوا على رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثلاثة وصاحبا البصرة، وعمرو بن العاص،

وأبو مسعود، وأبو موسى، وقد ذكر جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ[1].

والذي يؤكِّد صحَّة هذا النقل الشيعي عن الوليد بن جميع هو ما قاله بعض أئمّة الحديث في حقِّ عبيد الله بن موسى شيخ البخاري، حيث طعنوا فيه لروايته بعض الأخبار الرديئة بحسب تعبيرهم، فالظاهر أنَّ هذا الرجل قد خرق الحظر المضروب على مثل هذه الروايات وأخرج المستور فكان مصيره الطعن والتسقيط:

قال أبو الحسن الميموني: وذكر عنده -يعني عند أحمد بن حنبل- عبيد الله بن موسى فرأيته كالمنكر له، قال: كان صاحب تخليط وحدَّث بأحاديث سوء، أخرج تلك البلايا فحدث بها[2].

والأوضح منه قول الجوزجاني فيه: وعبيد الله بن موسى أغلى وأسوأ مذهبًا وأروى للأعاجيب التي تضلُّ أحلام من تبحَّر في العلم[3].

وقد يُتمسَّك بكلام ابن حزم في تضعيفه للوليد بن جميع وردِّه لرواياته، وهذا لا ينفع في المقام لأنَّه قد وثَّقه كبار علماء الجرح والتعديل ومن هنا أخرج له مسلم في صحيحه، قال الذهبي: وثَّقه ابن معين، والعجلي، وقال أحمد وأبو زرعة: ليس به بأس، وقال أبو

---

(1) المسترشد 597.

(2) تهذيب الكمال 19/ 167.

(3) أحوال الرجال 130.

حاتم: صالح الحديث[1]؛ فلا عبرة إذن بتضعيف ابن حزم مع توثيق الأكابر له، وحتّى لو قلنا بضعفه كما أشار ابن حزم فإنَّ هذا الجرح مبنيٌّ على روايته لهذه الأخبار لا لكونه غير ثقة وهو المنهج الذي رسمه المحدَّثون من تضعيف الراوي والطعن فيه لمجرَّد روايته روايات مخالفة لخلفيّاتهم المذهبيّة.

بل يمكن أن نترقَّى في المناقشة ونعتبر كلام ابن حزم دليلا على صحَّة أسانيد هذه الأخبار، لأنَّه لو وجد علَّة قادحة في السند لذكرها، وحيث أنَّه لم يجد ما يسقط السند تمسَّك بتليين بعضهم للوليد بن الجميع تخلُّصًا من هذه الرواية، وبما أنَّ وثاقة الوليد بن جميع محرزة كما قدَّمنا، فإنَّ هذه الأخبار تكون صحيحة ورواتها من الثقات.

هذه أهمُّ الأمور التي يمكن من خلالها معرفة من تدور حولهم شبهة المشاركة في اغتيال رسول الله ﷺ، وقد ذكروا علامة أخرى وهي أنَّ حذيفة لم يكن يصلِّي صلاة الجنازة على هؤلاء المنافقين، ورغم هذا فإنَّ كتب التاريخ خالية من ذكر أسماء من امتنع حذيفة عن الصلاة عليهم، فنجد أنَّهم ينقلون امتناع حذيفة عن الصلاة لكن لا يذكرون اسم المنافق، مثل رواية زيد بن وهب: مات رجل من المنافقين فلم يصلِّ عليه حذيفة، فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم[2]؛ فلماذا يخفى اسمه ولا يعلن لعامَّة الناس؟ فلو كان من

---

(1) ميزان الاعتدال 4/ 337.

(2) مصنَّف ابن أبي شيبة 8/ 637.

المنافقين المشهورين بنفاقهم لما كـان هنـاك وجـه لـسؤال عمـر بـن الخطاب عنه، لكن لأنَّه من الذين ردوا على النفاق بل لـه مكانـة في المجتمع الإسلامي عمدوا إلى إخفاء اسمه وإخفاء كلِّ المشتركين في المؤامرة.

والعجيب هو محاولة ابن حزم التبرير لهـؤلاء المنـافقين الـذين سعوا لقتل نبيِّه ﷺ، قال: وأمَّا الموقوفة على حذيفة فلا تصحُّ، ولـو صحَّت لكانت بلا شكٍّ على ما بينّا من أنهم صـحَّ نفـاقهم وعـاذوا بالتوبة ولم يقطع حذيفة ولا غـيره عـلى بـاطن أمـرهم فتـورَّع عـن الصلاة عليهم[1].

السؤال المحيِّر:

بقي أمر أخير لابدَّ من الوقوف عنـده، وهـو تكـرار عمـر بـن الخطَّاب طرح السؤال على حذيفة بن اليمان، فقد نقل ابـن أبي شـيبة وغيره مسندًا عن زيد بن وهب قال: مات رجل مـن المنـافقين فلـم يُصلِّ عليه حذيفة، فقال له عمر: أمن القوم هو؟ قال: نعم، فقال له عمر: بالله منهم أنا؟ قال: لا، ولن أخبر به أحدًا بعدك[2].

إنَّ هذا السؤال يجعلنا أمام أمـر محـيِّر جـدًّا وهـو: لمـاذا يـسأل

(1) المحلَّى 11/ 225.

(2) مصنَّف ابن أبي شيبة 8/ 637؛ وقد علَّق ابن حجر العـسقلاني عـلى هـذا الخبر بقوله: إسناده صحيح (المطالب العاليـة 14/ 702)، وكـذلك قـال البوصيري: رواه مسدّد بسند صحيح (إتحاف الخيرة المهرة 2/ 474).

الخليفة عمر بن الخطاب هذا السؤال من حذيفة بن اليمان؟ إذ أنَّ طرحه لهذا السؤال يجعله بين خيارين أحلاهما مرٌّ:

الأوَّل: أن يكون الرجل فعلًا من أصحاب العقبة، وغرضه من سؤاله التأكُّد من القائمة التي أسرّها النبي ﷺ لحذيفة: هل احتوت اسمه أم لا؟ وذلك خوفا من افتضاح أمره في المستقبل لا سيما إذا امتنع حذيفة من الصلاة عليه بعد موته.

الثاني: أن يكون الرجل بريئًا فعلًا من الاشتراك في الجريمة، إلَّا أنَّه يخاف من وقوع اسمه اشتباها في هذه القائمة، وهذه مصيبة أعظم من سابقتها، لأنّ لازم هذا القول هو الشكّ في صدق نبوة النبي ﷺ وأنّه ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾، وهذا يضرُّ بأصل الإسلام.

ومن هنا فإنّ بعض المحدَّثين والمؤرِّخين قد حاولوا التملُّص من هذا الخبر لاستلزام هذا السؤال على أقلّ التقادير وضع عمر بن الخطاب في دائرة الاتهام:

فقد قال الفسوي ردًّا لهذا الخبر: وهذا المحال وأخاف أن يكون كذب، وكيف يكون هذا وهو ممَّن رضي الله عنه، وهو من أهل بدر، وهو ممَّن يقول له النبي ﷺ: "لو كان بعدي نبي لكان عمر" و "قد كان يكون في الأمم محدثون وإن يكن في أمتي فهو عمر"، مع ما لا يحصى من هذا الضرب، فكيف يجوز أن يقول لحذيفة "وأنا من المنافقين"، ولكن حديث زيد فيه خلل كثير[1].

---

(1) المعرفة والتاريخ 2/ 769.

وكذَّب ابن حزم الخبر بقوله: وفي بعضها أنَّ عمر سأله "أنا منهم" فقال له: "لا، ولا أخبر أحدًا غيرك بعدك"، وهذا باطل كما ترى لأنَّ من الكذب المحض أن يكون عمر يشك في معتقد نفسه حتَّى لا يدري أمنافق هو أم لا[1]؟

وكلامهما أصوب ممَّن اعتبر هذا السؤال من باب التواضع وتزكية النفس كما ذكر ابن القيم[2]، لأنَّ الأسماء التي كانت عند حذيفة هي خصوص من شارك في العقبة وليست أسماء كلِّ المنافقين كما يحاول البعض خلط الأوراق بذلك، فإمَّا أن يكون الإنسان شارك في الواقعة أم لا، فلا يحتاج تزكية من أحد.

أمَّا من تمسَّك بنفي حذيفة كون عمر بن الخطاب من المنافقين فهذا أضعف من سابقه، إذ من الطبيعيِّ أن يتجنَّب الرجل إخباره بالحقيقة -على فرض كونه منه- لأنّ مثل هذا التصريح موجب لسفك دمه كما تقدَّم ذكره في الإشارة الرابعة، وقد ورد أنَّه كان يستعمل التقيَّة حماية لدينه وعصمة لدمه: فقد روى ابن أبي شيبة مسندًا عن النزال بن سبرة قال: دخل ابن مسعود وحذيفة على عثمان، فقال عثمان لحذيفة: بلغني أنَّك قلت كذا وكذا؟ قال: لا والله ما قلته، فلمَّا خرج قال له عبد الله: ما لك فلم تقوله ما سمعتك تقول؟ قال: إنِّي أشتري ديني ببعضه ببعض مخافة أن يذهب كله[3].

(1) المحلّى 11/ 225.

(2) الجواب الكافي 1/ 42.

(3) مصنّف ابن أبي شيبة 7/ 643.

ما لكم كيف تحكمون؟

إنَّ المحيِّر في كتب السيرة والتاريخ أنَّ العلماء قد اهتمُّوا بكلِّ كبيرة وصغيرة في حياة النبي ﷺ، فألِّفت الكتب في سيرته ومغازيه، وصنِّفت الموسوعات في خلقه وهديه، ودوِّنت تفاصيل سيفه ودرعه وعمامته بل حتى الدوابِّ التي كان يركبها، بل اهتمَّ البعض حتَّى بنعاله فجمعوا ما قيل فيها من شعر ونثر[1]، لكنَّ الغريب هو إعراضهم عن الخوض في أخطر نقطة في حياته وهي محاولة اغتياله وقتله!

فمن يتصفَّح كتب السيرة يجد إعراضا تامًّا عن هذه الموقعة الخطيرة: أمَّا كتب السيرة: فمن يقرأ سيرة ابن هشام يجده حذف كلَّ ما ذكره ابن إسحاق[2] حول قصَّة العقبة ولم يوردها ولو بنحو الإشارة، وكذلك أعرض عن ذكر الحادثة: ابن حبَّان في سيرته، وابن حزم في جوامعه، وابن عبد البر في اختصار المغازي والسير، والسهيلي في الروض الآنف، و الكلاعي في الاكتفاء، وابن سيد الناس في عيون الأثر، وغيرهم...

وكذلك أعرض كبار المؤرِّخين عن ذكر الحادثة، إذ لا وجود لها في: تاريخ الطبري، ولا منتظم ابن الجوزي، ولا كامل ابن الأثير، ولا تاريخ ابن خلدون، ولا مختصر أبي الفداء، بل غالبيَّة كتب المؤرّخين أعرضت عن ذكر الحادثة.

---

(1) مثل كتاب (فتح المتعال في مدح النعال).

(2) سيرة ابن كثير 4/ 35.

أمّا كتب المحدِّثين فالأمر فيها مختلف، فمنهم من أعرض عن الحادثة بالكليّة مثل البخاري في صحيحه الذي لم يشر للقضيّة من قريبٍ ولا من بعيد ويا ليته أعارها اهتمام قصَّة القردة التي زنت[1] أو الحيوانات التي تتكلّم[2]، ومنهم من تجد في كتبه ذكرا خجولا للقضيَّة -لا ترقى لمستوى أحاديث الاستنجاء والاستجمار- مع محاولة لترميز القضية وتشويشها على القارىء كما في صحيح مسلم وبعض المصادر التي أشرنا لبعضها، وأمّا من ذكر تفاصيل الحادثة -وهم قلّة- فقد كان حرصه على إظهار براءة الصحابة لاسيما المهاجرين منهم مقدَّما على حرصه على معرفة حقيقة الجناة وكشف هويَّتهم.

والسبب الرئيسي في الإعراض عن هذا الخبر هو الخوف الشديد من سطوة الرقابة الرسمية المتمثِّلة في الحكومة من جهة، وفي أئمَّة الجرح والتعديل الذين كانوا يتوعَّدون بكلِّ صراحة من يتجاهر برواية هذا الخبر، وليس هذا الكلام مبالغة منِّي، فقد وصلتنا بعض أساليب القوم في المنع من نقل هذه القصَّة:

---

(1) روى البخاري في صحيحه 4/ 237: عن عمرو بن ميمون قال رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم.

(2) روى البخاري في صحيحه 3/ 67: عن النبي ﷺ قال بينما رجل راكب على بقرة، التفتت إليه فقالت: لم أُخلق لهذا خلقت للحراثة، قال: آمنت به أنا وأبو بكر وعمر، وأخذ الذئب شاة فتبعها الراعي، فقال الذئب: **من لها** يوم السبع يوم لا راعي لها غيري، قال: آمنت به أنا وأبو بكر وعمر.

فقد نقل المزّي في تهذيبه: سمعت علي بن عثام، وقال له رجل: كيف حديث العقبة؟ قال: كيف يصحُّ وهو كذب، من حدَّث به فهو فاسق فاجر كاذب، فلمّا خرج السائل، قال: كلّكم يا بني حمان مزكوم، ما ذكر العقبة إنسان فيه خير، ثم قال لي : يزعم الرافضة أنَّ عمر نفر برسول الله ﷺ ناقته، يعني ليلة العقبة كما قال الشيخ الخبيث[1].

فهذا المحدِّث يتَّهم كلُّ من حدَّث بحديث العقبة بالفسق والفجور، والسبب أنَّ الرافضة – في ذلك الزمن– اتّهمت عمر بن الخطاب بذلك! علمًا أنَّ هذه القضية لم تكن خاصَّة بالشيعة بل حتَّى رؤوس المعتزلة كانوا معتقدين بهذا الأمر ولذلك نقل عبد القاهر البغدادي عن النظَّام المعتزلي: وطعن في الفاروق عمر رضي عنه، وزعم أنَّه شكّ يوم الحديبية في دينه، وشكَّ يوم وفاة النبي ﷺ وأنّه كان في من نفر بالنبي ليلة العقبة[2].

بل العجيب أنَّ الحاكم النيسابوري رغم حبِّه لعليٍّ وميله للتشيُّع إلَّا أنَّه تأثّر بثقافة عصره وكان من المعترضين على هذا الخبر، بل من المانعين لنقله وتداوله بين الناس، ولذلك سجَّل اعتراضًا على مسلم بن الحجاج في روايته عن الوليد بن الجميع فقال: لو لم يذكره مسلم لكان أولى[3]!

---

(1) تهذيب الكمال 21/ 62.

(2) الفرق بين الفرق 1/ 133.

(3) المغني في الضعفاء 2/ 495.

ومن هنا كانت فإنَّ المعلومات الواصلة إلينا حول قضيَّة العقبة شحيحة جدًّا، وما وصل إلينا إلَّا مجرَّد نتف مشتَّتة نجح بعض من يهمُّه وصول الحقائق للأجيال المقبلة في تسريبها.

واغلظ عليهم:

إنَّ أحداث غزوة تبوك ومن بعدها مؤامرة العقبة، كانت نقطة الانطلاق الحقيقية لتحرّك "حزب النفاق" في المدينة المنوَّرة وبالتالي بداية افتضاح رؤوس النفاق بعد أن صمدوا طيلة السنين الماضية واستطاعوا أن يكتموا حقيقة ما في قلوبهم، وممَّا تقدَّم تبيَّن لك لماذا سمّيت سورة التوبة بـ"الفاضحة" ولماذا اعتُبر جيش تبوك هو "جيش العسرة"، إذ أنَّ المؤامرة كادت أن تذهب بالإسلام وأهله، ولذلك نقل أنَّ النبي ﷺ: كان يجلس كلّ يوم على المنبر فيدعو ويقول "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض"[1].

---

(1) تاريخ دمشق 39/ 63.

6

حجة الوداع

لاشكَّ أنَّ أحداث تبوك كانت بمثابة نقطة التحوُّل في المواجهة بين النبي ﷺ والمنافقين، وقد أدَّت الحنكة النبويَّة إلى توسُّع دائرة الشبهة عند الناس، فلقد اكتشف المجتمع المدني وجود منافقين أعظم وأخطر من رؤوس النفاق المتمثِّل في عبد الله بن أبي وحزبه، إذ رغم عداء هؤلاء للنبي ﷺ فإنَّهم لم يحاولوا اغتياله طيلة تسع سنوات، وهم براء من قضيَّة العقبة لكونهم لم يشاركوا في غزوة تبوك كما هو معلوم عند الكلِّ، ومن هنا بدأ الحديث في المجتمع

المدني عن وجود منافقين مندسِّين لا يعرف أحد بنفاقهم وهو ما مَهَّدَ لنزول سورة التوبة المتضمِّنة لجرس الإنذار الكبير: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾، فهناك فئتان متواطئتان: أعراب الخارج ومنافقو الداخل، وعلى المسلمين الحذر منهما والتركيز على محاولة كشف المتورطين.

إجراءات صارمة:

رجع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وأعلن الحرب على "حزب النِّفاق" لاسيما بعد صدور الأمر الإلهي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾، فكانت البداية بحرق بيت سويلم اليهودي الذي كان وكرًا للتخطيط لهذه المؤامرة[1]، ثمَّ أتبعه بهدم مسجد ضرار وتسويته بالأرض[2]، وأخيرًا نزول القرآن الكريم بفضح كلِّ هذه المؤامرات، فكان نزول سورة التوبة كالصاعقة على المجتمع المدني إذ إنَّها كشفت المغطَّى وأظهرت المستور وكانت "فاضحة" بالفعل.

إشارات نبويّة:

لم يحجَّ النبي ﷺ في السنة نفسها التي ذهب فيها إلى تبوك، بل

(1) سيرة ابن هشام 4/ 944.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 956.

أجّل حجّه إلى السنة التي تليها، إلَّا أنّه استغلَّ هذا الموسم لإيصال رسالة إلى عامّة الناس:

فقد كان هذا الحجُّ مباشرة بعد نزول سورة "براءة"، ومن المفروض أن تبلَّغ هذه السورة للحجيج المجتمعين في مكَّة المكرَّمة لاشتمالها على بعض أحكام الحرم المطهَّر والتحذير من الشرك وأهله والنفاق وأهله كما تقدَّم في الفصول السابقة، وقد كلَّف أكبر أصحابه أبو بكر بن أبي قحافة للقيام بمهمَّة الذهاب إلى مكَّة وتبليغ السورة.

إلَّا أنّه قد حصل في آخر لحظة ما غيَّر كلَّ المعطيات: فقد روي مسندًا من طرق مختلفة أنَّ النبي ﷺ قد منع أبا بكر من تبليغ السورة وكلَّف عليًّا بن أبي طالب بذلك، فقد ورد في مسند أحمد: عن علي قال: لّما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ، دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكَّة، ثم دعاني النبي ﷺ فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيَّ شيء؟ قال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدِّي عنك إلَّا أنت أو رجل منك[1].

---

(1) مسند أحمد 1/ 151؛ هذا الخبر منقول من مسند أحمد وهو حسن الإسناد كما نصَّ على ذلك أحمد محمد شاكر كما في تعليقته على المسند 2/ 135، ولو ضممنًا إليه طرقه الأخرى الكثيرة يرتقي الحديث إلى درجة الصحَّة.

وهذا التصرُّف النبوي إذا جعلناه ضمن سياقه التاريخي فإنَّه قد يفهم من عدَّة جهات:

فقد يكون المراد من هذا الأمر هو الإشارة إلى أنَّ علي بن أبي طالب هو المرشَّح الرسمي لخلافة النبي ﷺ بعد موته، نظير ما يحصل الآن إذا أراد أن يدفع الرئيس الحالي بمرشَّح من طرفه للحكم، فإنَّه يقوم بإيكال بعض المهامِّ إليه وإظهاره لعامَّة الناس بصورة تدفعهم إلى اختياره مستقبلًا.

وقد يكون المراد من هذا التبليغ أكثر من مجرَّد الترشيح النبوي، بل الاستعداد للتنصيب الرسمي المبني على توجيهات الوحي الربَّاني، خصوصا مع التأكيد في الخبر على أنَّ الوحي هو من اختاره والتعبير بـ"أنت أو رجل منك"، ولذلك نجد أنَّ الشيعة قد استدلُّوا بهذا الخبر على الاختيار الإلهي[1].

والاحتمال الأخطر هو أنَّ عزل أبي بكر عن هذا المنصب قد يكون لمانع فيه[2]، وهو ما فهمه هو بنفسه فلذلك توجّه بالسؤال

---

(1) نهج الحق وكشف الصدق 214.

(2) وقد تمسَّك الشيعة بهذا الاحتمال لنفي شرعيَّة إمامة أبي بكر، قال العلامة الحلِّي في كتاب الألفين 181: أنّه ﷺ أنفذه لأداء سورة براءة، ثم أنفذ إليه عليًّا وأمره بردّه وأن يتولَّى هو ذلك، ومن لا يصلح لأداء سورة أو بعضها، كيف يصلح للإمامة العامة المتضمنة لأداء الأحكام إلى جميع الأمة؟!

للنبي ﷺ هل نزل في أمره شيء من القرآن أم لا، وهذا الاحتمال هو الذي دعى جملة من المؤرِّخين إلى الطعن في الخبر والحكم عليه بالنكارة[1].

والذي يؤكِّد على خطورة المضامين التي يحملها هذا الخبر هو محاولة بعضهم إخفاء اسم أبي بكر وعدم البوح به، فقد روى أحمد بن حنبل في مسنده رواية طويلة تضمَّنت جملة من فضائل عليٍّ، ولمّا وصل لخصوص هذا الموضع حذف اسم أبا بكر فقال: ثم بعث فلانا بسورة التوبة، فبعث عليًّا خلفه فأخذها منه قال: لا يذهب بها إلَّا رجل منِّي وأنا منه[2].

أمّا التبرير الذي ذكره ابن تيميَّة من أنَّ المسألة قبليَّة بحتة[3] فبعيد جدًّا، إذ أنّ مثل هذه القضايا الحسّاسة لا يمكن فهمها من منطلق قبليٍّ، خصوصًا مع التأكيد على أنَّ الأمر كان وحيًا إلهيًّا، ولو تنزَّلنا وقبلنا مثل هذا الطرح فإنّ الإشكال هو حول نصب أبي بكر في بداية الأمر ثم عزله، ألم يكن النبي ﷺ عارفًا بعادات العرب وأعراف قبائلهم؟!

---

(1) البداية والنهاية 5/ 46.

(2) مسند أحمد 1/ 332؛ والحديث صحيح سندًا وتفصيل البحث في كتابي (مبيت علي ليلة الهجرة) فليراجع هناك.

(3) قال ابن تيميَّة في منهاج السنة 8/ 296: ولكن أردفه بعليٍّ لينبذ إلى المشركين عهدهم، لأنَّ عادتهم كانت جارية أن لا يعقد العقود ولا يحلّها إلَّا المطاع، أو رجل من أهل بيته، فلم يكونوا يقبلون ذلك من كلِّ أحد.

وبالنهاية سواء قبلنا بهذه الاحتمالات أو لم نقبل بها، فـإنَّ هـذه الحادثة وضعت نقاط استفهام كثيرة جدًّا لاسيما مع الغموض الذي اكتنفته الأحداث السابقة في تبوك والعقبـة، وبالتـالي فـإنَّ الرسـالة النبويَّة الصامتة قـد ضربـت في الـصميم وجعلـت الكـلَّ يفكِّـر في الداعي لمثل هذا النصب ثم العزل خصوصًا مع اعتقادهم بأنّـه ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

النفير العام:

بدأ "حزب النفاق" إعداد العدَّة لموسم الحجِّ مع إعـلان النبـي ﷺ أنّه عازم على الحجّ في تلك السنة، وقد علمـوا أنَّ هـذه الرحلـة ستكون حُبلى بالأحداث المهمّة لسببين:

الأوَّل: هو تلميح النبي ﷺ أنّه سينتقل إلى الرفيق الأعلى.

الثاني: ما حصل في موسم الحجّ الماضي في قضية سورة براءة.

وبالتالي فإنَّ احتماليَّة التعرُّض لموضـوع الخليفـة بعـده وحـسم الأمر فيه واردة، بل لعلَّه من المقطوع به أنَّ هذا النبي ﷺ سيفـصح عن اسم الخليفة الشرعي الـذي سـيكمل مـسيرة الإسـلام ويتـولَّى مقاليد الحكم وزمام الأمور، ومن هنا حرص "حزب النفاق" عـلى التدخُّل لتفادي ما يمكن أن يحصل في الحجِّ فيفسد كلَّ ما بنوه طيلة هذه السنين.

وقد بدأ العمل في جانبين:

الأول: التشكيك فيما يصدر من النبي ﷺ.

الثاني: التشكيك في أهليَّة علي المرشَّح المحتمل للحكم

بداية اللعبة:

كانت الفرصة السانحة لـ"حزب النفاق" هي عند إعلان النبي ﷺ حكمًا مخالفًا لحكم الجاهليَّة وهو: عمرة التمتُّع، أي يمكن للمحرم أن يأخذ عمرة ويحلَّ منها فيجوز له كلُّ شيء حتّى النساء، وأهل الجاهليَّة: كانوا يرون أنَّ العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صفرًا ويقولون: إذا برأ الدبر وعفا الأثر وانسلخ صفر حلَّت العمرة لمن اعتمر[1].

وكان هذا الحكم هو الفرصة الذهبيّة لبداية التمرّد على تعاليم النبي ﷺ، فقد تحرَّك "حزب النفاق" وأثار النعرة الجاهليّة[2] في الحجَّاج بحيث لم يقبلوا من النبي ﷺ حكمه وتردَّدوا في تطبيقه خصوصًا وأنَّه لم يلتزم هو به لكونه كان حجَّه قرانا!

فقد روى مسلم في صحيحه: عن عائشة أنَّها قالت: قدم رسول

---

(1) صحيح البخاري 2/ 152 .

(2) لا شكَّ أنَّ النعرة الجاهليّة كانت حاضرة بقوَّة عند المسلمين، ويدلّ على ذلك ما رواه البخاري 2/ 157 عن عائشة أنَّ النبي ﷺ قد قال لها: يا عائشة، لولا أنَّ قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين بابًا شرقيًا وبابًا غربيًّا فبلغت به أساس إبراهيم.

الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة أو خمس، فدخل عليٌّ وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار، قال: أو ما شعرت أنّي أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟ -قال الحكم: كأنَّهم يتردّدون أحسب- ولو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي معي حتَّى أشتريه ثم أحلَّ كما حلُّوا[1].

وسبب غضبه هو تردّد الناس واعتراضهم على حكمه، وقد ورد ذكر تفصيل الأمر في رواية جابر بن عبد الله : أهللنا أصحاب النبي ﷺ بالحج خالصًا ليس معه غيره خالصًا وحده، فقدمنا مكَّة صبح رابعة مضت من ذي الحجة، فقال النبي ﷺ: "حلُّوا واجعلوها عمرة"، فبلغه أنَّا نقول لمّا لم يكن بيننا وبين عرفة إلَّا خمس أمرنا أن نحلَّ، فيروح إلى منى ناس منّا ومذاكيرنا تقطر منيًّا، فخطبنا فقال: قد بلغني الذي قلتم، وإنِّي لأتقاكم وأبرّكم ولولا الهدي لحللت، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، حلُّوا واجعلوها عمرة[2].

ومن البعيد أن يكون غضب النبي ﷺ -المزكَّى من الله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعروف بحلمه- سببه مجرَّد تساؤل من الناس، بل من المطمأنِّ به أنَّ هذا الغضب سببه حالة غير عفويَّة في أوساط الحجَّاج، وهذا ما يفسِّر دفاعه عن نفسه بقوله: "وإنِّي لأتقاكم

---

(1) صحيح مسلم 4/ 33.

(2) مسند أحمد 3/ 317؛ إسناده صحيح.

وأبرَّكم"، فالظاهر أنَّ الطعن تجاوز مجرَّد الحكم المشرَّع حديثًا إلى الطعن المباشر في شخصه.

إذن نحن أمام بداية حالة تمرُّد يقودها "حزب النفاق" تهدف إلى التشكيك في كلِّ ما يصدر عن النبي ﷺ وبالتالي الاستعداد لضرب أي قرار يصدر منه بخصوص خليفته المرتقب في موسم الحجِّ.

ولكي تعرف من الذي قاد هذا التشكيك في أحكام النبي ﷺ فما عليك إلَّا النظر في من تمسَّك بهذا الحكم الجاهلي وحرَّم حجَّ التمتُّع: فقد روى مسلم في صحيحه عن عمران بن الحصين قال: اعلم أنَّ رسول الله ﷺ جمع بين حجٍّ وعمرة ثم لم ينزل فيها كتاب ولم ينهنا عنهما رسول الله ﷺ قال فيها رجل برأيه ما شاء[1].

وفي رواية أصرح منها عن أبي موسى: أنَّه كان يفتي بالمتعة، فقال له رجل رويدك ببعض فتياك، فإنَّك لا تدري ما أحدث أمير المؤمنين في النسك بعد، حتَّى لقيه بعد فسأله فقال عمر: قد علمت أنَّ النبي ﷺ قد فعله وأصحابه، ولكن كرهت أن يظلُّوا معرِّسين بهنَّ في الأراك ثم يروحون في الحج تقطر رؤسهم[2].

وكما يرى القارىء الكريم أنَّ حجَّة عمر بن الخطاب هي نفس حجَّة القوم الذين اعترضوا على النبي ﷺ وغضب منهم في حجَّة الوداع!

(1) صحيح مسلم 4/ 48.

(2) صحيح مسلم 4/ 46.

وقد واصل عثمان بن عفَّان سياسة المنع وشـدَّد فيه،فقـد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن شقيق: كان عثمان ينهى عن المتعة وكان عليٌّ يأمر بها، فقال عثمان لعلي كلمة، ثم قال علي: لقد علمـت أنّا قد تمتّعنا مع رسول الله ﷺ، فقال: أجل ولكنّا كنّا خائفين[1].

وقد أخفى مسلم بن الحجّاج حقيقة ما صدر من عثمان في حقّ عليَّ بن أبي طالب ، وكذلك أحمد في مسنده حيث أخفى العبارة فجعلها: فقال عثمان لعليٍّ إنَّك كذا وكذا[2]، وغيّرها البزّار في مسنده: فقال عثمان لعلي في ذلك[3]، إلّا أنَّ بعض المصادر الأخرى قد ذكرت تفصيل ما قاله عثمان، فقد روى ابن حجر العسقلاني مسندًا: إنَّ عثمان بن عفان نهى عن العمرة في أشهر الحج أو عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فأهلّ بها عليّ مكانه فنزل عثمان عن المنبر، فأخذ شيئًا فمشى به إلى عليٍّ، فقام طلحة والزبير فانتزعاه منه، فمشى إلى عليٍّ فكاد أن ينخس عينه بإصبعه، ويقول له: إنّك لضال مضل ولا يردُّ علي عليه شيئًا[4].

---

(1) صحيح مسلم 4/ 46؛ العجيب تبرير عثمان أمر النبي ﷺ بالمتعة لأصحابه بأنّه كان في حالة خوف، ونسي أنَّ الحجَّ كان بعد فتح مكّة واستتباب الأمر للمسلمين، ولذلك نجد أنّ بعض الرواة قد تعجَّبوا من هذا اللفظ وسألوا عن هذا الخوف، فقد عقَّب أحمد في مسنده 1/ 61 بهذه العبارة: قال شعبة: فقلت لقتادة: ما كان خوفهم؟ قال: لا أدري.

(2) صحيح مسلم 4/ 46.

(3) مسند البزار 2/ 62.

(4) المطالب العالية 10/ 44.

ولعلَّ هذا المقدار كافٍ لمعرفة من هي الفئة التي تحرَّكت في حجّة الوداع وأثارت هذه الزوبعة حول حكم النبي ﷺ في عمرة التمتُّع، إذ أنَّ إصرارهم على إمضاء حكم الجاهليَّة حتّى بعد ما قاله رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع خير دليل على ذلك.

المرشَّح المحتمل:

لا شكَّ أنَّ من أبرز المرشَّحين لخلافة النبي ﷺ علي بن أبي طالب لكونه صاحب سبق في الإسلام وجهاد منقطع النظير ومواقف مشرَّفة طيلة 22 سنة، كما أنَّ قربه النسبيَّ كان يمثِّل عاملًا مهمًّا في تشكُّل هذه النظرة، فذريّته المتمثِّلة في الحسنين تعتبر الامتداد الطبيعي للنبي ﷺ، أضف إلى هذا التصريحات المختلفة التي صدرت في حقّه كما تقدَّم في حديث المنزلة[1] وقضيّة المباهلة[2] وتبليغ سورة براءة[3] والعشرات من المواقف[4] التي لا يسع تعدادها في المقام.

---

(1) قول النبي ﷺ: أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى.

(2) مباهلة نصارى نجران ونزول قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾.

(3) تقدّم ذكر الحادثة في الفصل الماضي.

(4) وقد أُلِّفت كثير من الكتب في ما ورد في حقِّ علي من أهمّها كتاب "خصائص أمير المؤمنين علي" للنسائي والذي قتل فيما بعد بسبب تأليفه كما ذكرنا سابقًا.

ومن هنا كان هدف "حزب النفاق" هو إقصاء هذا المرشَّح وإقناع الناس بعدم أهليَّته لتقلُّد هذا المنصب والاضطلاع بهذه المهمَّة، ولذلك توجَّهت سهامهم نحوه محاولة تصيُّد زلَّة تمكِّن من تسقيطه وإبعاده عن هذا المنصب.

وقد كان علي بن أبي طالب قبيل الحجِّ في اليمن بعد أن كلّفه النبي ﷺ بمهمّة هناك، وكانت هذه فرصة مناسبة للطعن فيه: فقد روى أحمد في مسنده: عن عبد الله بن بريدة، حدَّثني أبي بريدة، قال: أبغضت عليًّا بغضًا لم يبغضه أحد قط، قال: وأحببت رجلًا من قريش لم أحبُّه إلَّا على بغضه عليًّا، قال: فبُعث ذلك الرجل على خيل، فصحبته، ما أصحبه إلّا على بغضه عليًّا، قال: فأصبنا سبيًا، قال: فكتب إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا من يخمّسه. قال: فبعث إلينا عليًّا، وفي السبي وصيفة هي أفضل من السبي. فخمَّس، وقسَّم، فخرج رأسه مغطًّى، فقلنا: يا أبا الحسن ما هذا؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي، فإنّي قسمت وخمَّست فصارت في الخمس، ثم صارت في أهل بيت النبي ﷺ، ثم صارت في آل علي، ووقعت بها، قال: فكتب الرجل إلى نبي الله ﷺ، فقلت: ابعثني، فبعثني مصدِّقًا، قال: فجعلتُ أقرأ الكتاب، وأقول: صدق، قال: فأمسك يدي والكتاب، وقال: أتبغض عليّا؟ قال: قلت: نعم، قال: فلا تبغضه، وإن كنت تحبّه فازدد له حبًّا، فوالذي نفس محمد بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة، قال: فما كان من

الناس أحد بعد قول رسول الله ﷺ أحبَّ إليَّ من عليّ[1].

وهذه الرواية تكشف عن حقيقة خطيرة وهي تحوُّل المنافسة إلى بُغض صريح لعليٍّ بل قيام أحلاف بناء على بغض علي رغم ورود النصِّ النبوي الصريح في أنَّ مبغضه منافق[2]، والأهمُّ من هذا هو الرجل الذي حاول الرواة إخفاء هويّته: فلماذا باحوا باسم بريدة ولم يخشوا شيئًا وفي المقابل كتموا اسم الرجل الآخر؟

إنَّ الجواب على هذا السؤال هو المفتاح لكثير من الأسئلة الأخرى، فبريدة الأسلمي ليس قرشيًّا بل هو شخصيَّة عادية يمكن البوح بها، لكنَّ الشخص الثاني هو قرشيٌّ وله ثقل في المجتمع الإسلامي، إنَّه: خالد بن الوليد.

والدليل على أنَّه هو المقصود بالرجل، ما رواه الحاكم في مستدركه: قال: حدَّثني عبد الله بن بريدة الأسلمي، قال: إنِّي لأمشي مع أبي، إذ مرّ بقوم ينتقصون عليًّا ، يقولون فيه، فقام فقال: إنِّي كنت أنال من علي، وفي نفسي عليه شيء، وكنت مع خالد بن الوليد في جيش، فأصابوا غنائم، فعمد عليٌّ إلى جارية من الخمس فأخذها لنفسه، وكان بين عليٍّ وبين خالد شيء، فقال خالد: هذه فرصتك،

---

(1) مسند أحمد 5/ 351؛ حديث صحيح.

(2) صحيح مسلم 1/ 61: عن علي قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنَّه لعهد النبي الأمي ﷺ إلي أن لا يحبّني إلّا مؤمن ولا يبغضني إلّا منافق.

وقد عُرف خالد الذي في نفسي على عليٍّ...[1].

فالخبر أصرح من سابقه من أنَّ خالدا كان يتحيَّن الفرصة للنيل من علي وتسقيطه ولذلك بادر بالكتابة للنبي ﷺ وإصدار شكوى في حقِّه، بل وبعث بريدة الذي كان هو أيضًا مبغضًا لعلي بن أبي طالب ، وبالتالي فالفرصة سانحة لإثارة الرأي العام ضدَّه خصوصًا في قضيَّة حسَّاسة بنظر عامَّة الناس وهي: توزيع الغنائم.

بل وردت رواية أخرى تتحدَّث عن أربعة متآمرين أو أكثر، وهي ما أخرجه الحاكم في مستدركه عن عمران بن حصين قال: بعث رسول الله ﷺ سريَّة واستعمل عليهم علي بن أبي طالب ، فمضى عليٌّ في السريّة فأصاب جارية فأنكروا ذلك عليه، فتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ إذا لقينا النبي ﷺ أخبرناه بما صنع علي، قال عمران: وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدؤوا برسول الله ﷺ فنظروا إليه وسلّموا عليه ثم انصرفوا إلى رحالهم، فلمّا قدمت السرية سلَّموا على رسول الله ﷺ، فقال أحد الأربعة: يا رسول الله، ألم تر أنَّ عليًّا صنع كذا وكذا، فأعرض عنه، ثم قام الثاني فقال مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قام الثالث فقال مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قام الرابع فقال: يا رسول الله، ألم تر أنَّ عليًّا صنع كذا وكذا، فأقبل عليه رسول الله ﷺ والغضب في وجهه، فقال: ما

(1) المستدرك 2/ 129؛ عقّب الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

تريدون من علي؟ إنَّ عليًا منّي وأنا منه ووليُّ كل مؤمن[1].

وطريقة تعاطي رسول الله ﷺ مع شكوى هؤلاء الأربعة دليل على معرفته بحقيقة الحال، وأنَّ ما يحصل ليس إلّا مؤامرة للطعن في علي وإقصائه من ساحة المنافسة.

ولم تكن هذه أوَّل قارورة تكسر، فقد كان لـ"حزب النفاق" جولة أخرى في مسلسل الطعن في علي بن أبي طالب، فقد روى البيهقي مسندًا عن أبي سعيد الخدري أنَّه قال: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن، قال أبو سعيد: فكنت ممن خرج معه، فلمّا أخذ من إبل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح إبلنا فكنا قد رأينا في إبلنا خللاً فأبى علينا، وقال: إنَّما لكم منها سهم كما للمسلمين، قال: فلمّا فرغ عليٌّ وانطلق من اليمن راجعًا أمَّر علينا إنسانًا وأسرع هو فأدرك الحجَّ، فلمّا قضى حجَّته قال له النبي ﷺ: ارجع إلى أصحابك حتّى تقدم عليهم، قال أبو سعيد: وقد كنّا سألنا الذي استخلفه ما كان علي منعنا إياه نفعل، فلمّا جاء عرف في إبل الصدقة أن قد ركبت - رأى أثر المركب- فذمَّ الذي أمَّره ولامه، فقلت: إنّا إن شاء الله إن قدمت المدينة لأذكرنّ لرسول الله ﷺ ولأخبرنَّه ما لقينا من الغلظة والتضييق، قال: فلمّا قدمنا المدينة غدوت إلى رسول الله ﷺ أريد أن أفعل ما كنت حلفت عليه،

---

(1) المستدرك 3/ 111؛ عقَّب الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه.

فلقيت أبا بكر خارجًا من عند رسول الله ﷺ فوقف معي ورحّب بي وسألني وسألته وقال: متى قدمت؟ قلت: قدمت البارحة، فرجع معي إلى رسول الله ﷺ فدخل فقال: هذا سعد بن مالك بن الشهيد، قال: ائذن له، فدخلت فحيَّيت رسول الله ﷺ، وجاءني وسلّم عليَّ وسألني عن نفسي وعن أهلي فأحفى المسألة، فقلت له: يا رسول ﷺ ما لقينا من علي من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق، فانتبذ رسول الله ﷺ وجعلت أنا أُعدّد ما لقينا منه حتّى إذا كنت في وسط كلامي ضرب رسول الله ﷺ على فخذي وكنت منه قريبا ثم قال: سعد بن مالك الشهيد، مه بعض قولك لأخيك علي، فوالله لقد علمت أنّه أخشن في سبيل الله، قال فقلت في نفسي ثكلتك أمك سعد بن مالك ألا أراني كنت فيما يكره منذ اليوم وما أدري لا جرم والله لا أذكره بسوء أبدًا سرًّا ولا علانية(1).

والظاهر من هذا الخبر أنَّ أبا سعيد الخدري كان من المتأثّرين بالأجواء القرشيّة المبغضة لعليٍّ بن أبي طالب ولذلك كان متحاملًا عليه بشدَّة، والمثير للاهتمام ذكره لأبي بكر في سياق هذا الخبر: فهل كان هو أيضا من المحرِّضين على الإمام علي ؟

إنَّ هذا الخبر لا يعطينا جوابًا صريحًا على هذا السؤال لكن فيه إشعارا بذلك، وبمجموع الحادثتين يمكننا الاطمئنان بأنَّ الجهة

---

(1) دلائل النبوَّة 5/ 399؛ قال ابن كثير في كتاب السيرة النبوية 4/ 205: هذا إسناد جيِّد على شرط النسائي ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.

التي كانت تريد إقصاء علي تشمل القرشيِّين، وهذا ما يرجع بنا إلى قضيَّة العقبة ومحاولة حصر المتهمين في الأنصار، في حين أنَّ الإشارات التي صدرت عن حذيفة كلُّها تبثت أنَّ الجماعة قرشيُّون بامتياز.

يوم الملحمة:

كلُّ ما صنعه "حزب النفاق" جعل الأعناق تشرئبُّ وتطلَّع إلى ما سيصنعه النبي ﷺ في يوم عرفة أمام بوادر هذا التمرُّد، فإمَّا أن يسكت عن الأمر فيحصل مراد القوم ويحقّقون نصرهم في هذه الجولة؟ أو يعلن الأمر فتحصل الفتنة التي أعدَّوا العدَّة لها وبالتالي تزداد احتماليَّة حصول اقتتال داخلي في حرم الله مكَّة المكرَّمة وهذا ليس بمرغوب!

لكنَّه ﷺ اتخذ أسلوبًا آخر وهو التمهيد لهذا الخطب الجلل وتأجيل التصريح به لمورد آخر حتَّى تهدأ الأمور وتخمد فورة "حزب النفاق"، فاكتفى في يوم عرفة بإعلان أنَّ هذا الأمر لا يكون إلَّا في أهل بيته ولا يخرج منهم لغيرهم، وهذا الخيار الجديد لم يُعدُّوا له العدّة ولم يعرفوا كيف يتعاملوا معه ولذلك لم تصدر منهم أيَّة ردَّة فعل.

نعم قد تسأل أين هذا التصريح في خطبة يوم عرفة؟

فالخطبة معروفة مشهورة ولم يرد فيها أي إشارة إلى هذه الأمر؟

والجواب أنَّ خطبته قد تعمَّدوا اختصارها ولم يرووا كلَّ فقراتها، فبحسب رواية مسلم عن الصحابي الجليل جابر الأنصاري: حتَّى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحَّلت له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أوَّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأوَّل ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنَّه موضوع كلَّه، فاتّقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرَّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ كسوتهنَّ بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عنِّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنَّك قد بلغت وأدَّيت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات[1].

ولكنَّ الحقيقة أنَّ الرواة بتروا آخر الوصيَّة فجعلوا الاعتصام بخصوص كتاب الله والحال أنّ هذا الخبر نفسه قد روي عن جابر

---

(1) صحيح مسلم 4/ 41.

الأنصاري في مورد آخر مع إضافة مهمَّة، قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجَّته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعته يقول: يا أيّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي[1].

والعجيب أنَّ ابن هشام قد نقل الخطبة مطوَّلة في سيرته، ولمَّا وصل إلى هذا الموضع حرَّف الخطبة تحريفا قبيحا، فقال: وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبدًا أمرا بيِّنا: كتاب الله وسنَّة نبيِّه[2].

نعم، إنَّ رسول الله قد بيَّن في يوم عرفة طريق الحقِّ، وهو التمسُّك بكتاب الله وعترته، وأنَّ الهداية لا تكون إلَّا في هذا الطريق والضلال في غيره، وعرَّف الناس مقام أهل بيته، لكنَّه لم يصرِّح بمن هو الخليفة على التعيين، وهذا ما جعل "حزب النفاق" يتنفَّسون الصعداء، فعدم التصريح بالخلافة في هذا الحشد الجماهيري يسهِّل مهمَّتهم في حسم الأمر بالمدينة المنورة إذ أنَّها مركز قوَّتهم لاسيما إذا تواصلت حملتهم في التشكيك في ما يصدر عن النبي ﷺ والطعن في وصيِّه المحتمل، ولذلك لم يصدر منهم أيَّ شيء في حجَّة الوداع سوى ما تقدَّم.

---

(1) سنن الترمذي 5/ 328؛ صحَّح الألباني الحديث في السلسة الصحيحة 4/ 356.

(2) سيرة ابن هشام 6/ 10.

مفاجأة غير متوقَّعة:

انقضت مراسم الحجِّ، وقفل المسلمون راجعون إلى بلدانهم، وبدأ "حزب النفاق" يخطِّط لما بعد الوصول للمدينة فقد تجنَّبوا الأسوأ وسارت الأمور كما يريدون، لكن حصلت مفاجأة لم يحسب لها أحد منهم حسابًا، بل لم تخطر حتَّى على بال واحد منهم:

فبعد خروجهم من مكَّة المكرَّمة توقَّف النبي ﷺ وأعلن إعلانًا عامّا حدّد فيه مصير الإسلام من بعده ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، فالاسم الذي أجَّل إعلانه في مكَّة قد صرَّح به في "خمّ" المنطقة التي توقّف فيه بعد تسعة أيَّام من يوم عرفة أي في الثامن عشر من ذي الحجة وأعلنها مدويّة: "من كنت مولاه فعليٌّ مولاه"، وهذا ما عُرف فيما بعد بـ"حديث الغدير" وهو مستند الشيعة الأساسي على إمامة عليٍّ بن أبي طالب .

أمَّا صحيح البخاري فقد تجاهل هذا الإعلان ولم يعر له أي اهتمام، وأمَّا صحيح مسلم فقد وردت فيه إشارة عابرة لهذه الحادثة مرويّة عن زيد بن أرقم، والرواية كالتالي: حدَّثني يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلمَّا جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصلّيت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيرًا كثيرًا، حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سنِّي وقدم عهدي ونسيت

بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدَّثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلّفونيه، ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكَّة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر ثم قال: أمَّا بعد ألا أيّها الناس، فإنَّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربِّي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أوَّلها كتاب الله فيه الهدى والنُّور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه ثم قال: وأهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي[1].

وهذا الخبر على اختصاره احتوى أمورًا مهمَّة:

الأوَّل: أنَّ ما قاله النبي ﷺ في الغدير كان بمثابة الوصيَّة الأخيرة له، ولم يكن مجرَّد حديث عابر ولذلك بدأ كلامه بترسيخ هذا المعنى: "فإنَّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب"، فمثل هذه العبارة تدلّ على أهميّة ما سيأتي بعدها لاسيما إذا كان الكلام صادر من نبي مرسل وزعيم لدولة قويّة، فمن الطبيعي أن تحدِّد وصيَّته الأخيرة مستقبل الدولة.

الثاني: لقد دلَّ هذا الحديث الصحيح على أنَّ النبي ﷺ قد خطب خطبة كاملة في يوم الغدير فليس كلام النبي ﷺ محصورًا في قوله: "من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه" كما يذكر المحدِّثون

(1) صحيح مسلم 7/ 122.

والمؤرِّخون، بل كان نصًّا متكاملًا حسم فيه كلَّ ما يتعلَّق بمستقبل الحكم.

الثالث: إنَّ حديث الثقلين ذكر في يوم الغدير كما ذكر من قبل في يوم عرفة، وهو بمثابة الرابط بين الحدثين، فكأنَّ رسول الله يقول ما أجملناه هناك نفصِّله هنا، وقد روي عن زيد بن أرقم بطريق آخر مجموع الحديثين في سياق واحد، قال: لمّا رجع رسول الله ﷺ من حجّة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، فقال: كأنِّي قد دعيت فأجبت، إنِّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنّهما لن يتفرّقا حتَّى يردا عليّ الحوض، ثم قال: إنّ الله ﷻ مولاي وأنا مولى كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي، فقال: من كنت مولاه فهذا وليه.. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[1].

ورويت الحادثة كاملة عن علي نفسه: إنَّ النبي ﷺ حضر الشجرة بخم، ثم خرج آخذا بيد علي قال: ألستم تشهدون أنَّ الله تبارك وتعالى ربكم؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: ألستم تشهدون أنَّ الله ورسوله أولى بكم من أنفسكم وأن الله تعالى ورسوله أولياؤكم؟ فقالوا: بلى، قال: فمن كان الله ورسوله مولاه فإن هذا مولاه، وقد

(1) المستدرك على الصحيحين 3/ 109؛ عقَّب الحاكم بقوله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله.

تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله تعالى، سببه بيدي، وسببه بأيديكم، وأهل بيتي"[1].

الرابع: إنَّ هذا الخبر مشعر بأنَّ زيد بن أرقم كان يعيش حالة تقيَّة وخوف من البوح بهذا الحديث، والظاهر أنَّ السبب في ذلك هي الرقابة المفروضة من قبل حكَّام ذلك الزمان على من يحمل حديث رسول الله ﷺ، لاسيما الأحاديث الحسَّاسة التي من شأنها أن تغيِّر مجرى الأحداث وتكشف الحقائق، ولذلك نجده يطلب من زوَّاره عدم سؤاله: "والله لقد كبرت سنِّي وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدَّثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلّفونيه".

وهذه الرقابة على الحديث جعلته صعب التصديق حتَّى على بعض صغار الصحابة، فقد نقلوا عن أبي الطفيل قال: جمع الناس في الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما سمع لما قام، فقام ثلاثون من الناس، وقال أبو نعيم: فقام ناس كثير فشهدوا حين أخذ بيده، فقال للناس أتعلمون أنِّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، قال: فخرجت وكأنَّ في نفسي شيئًا، فلقيت زيد بن أرقم،

(1) المطالب العالية 16/ 142؛ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: هذا إسناد صحيح.

فقلت له: إنّي سمعت عليًّا يقول كذا وكذا، قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك له[1].

فرغم أنَّ الحادثة كانت جماهيريَّة وحضرها مجموعة كبيرة من الصحابة حتَّى قال جابر: كنَّا بالجحفة بغدير خمٍّ، وثمَّ ناس كثير من جهينة ومزينة وغفار[2]، إلَّا أنَّ بعض الصحابة مثل أبي الطفيل لم يكن عنده أيُّ علم عن هذا الحديث بل نقله لزيد بن أرقم مستنكرًا!

والذي يدلّ على وجود هذه الرقابة حول الغدير ما نقل عن أحمد بن حنبل إمام الحنابلة وزعيم أهل الحديث حيث نقل الخلال في كتاب السُّنَّة: أخبرنا زكريا بن يحيى، أنَّ أبا طالب حدَّثهم، أنَّه سأل أبا عبد الله عن قول النبي ﷺ لعلي: من كنت مولاه فعلي مولاه، ما وجهه؟ قال: لا تكلَّم في هذا، دع الحديث كما جاء[3].

فإن كان معنى الحديث واضحًا ولا إشكال فيه، ولا تتعدَّى دلالته الحثُّ على محبَّة علي كما هي الثقافة المذهبيَّة السنيَّة: لماذا امتنع أحمد بن حنبل عن شرحه لمن سأله عنه؟ بل نهاه عن التكلُّم فيه أصلًا! ألا يدلُّ هذا على أنَّ أحمد قد أحسَّ بخطورة معنى هذا الحديث على عامَّة الناس فسكت عنه؟

إنَّ فهم هذا المضمون لا يحتاج كلّ ما يثار في كتب الكلام

---

(1) مسند أحمد 4/ 370؛ صحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة 4/ 331.

(2) سير أعلام النبلاء 8/ 335؛ قال الذهبي: حديث عال حسن جدًّا.

(3) السنة للخلال 347؛ قال المحقّق: إسناده صحيح.

والعقائد وفي أروقة الحوارات المذهبيَّة، بل يكفي مجرَّد القراءة الموضوعية لإدراك معناه:

فمن يتتبَّع طرق الحديث يجد أنَّه قد وردت فيها عدَّة إشارات يمكن من خلالها تحديد في أي ساعة من ساعات النهار حصلت هذه الحادثة المهمَّة: لا سيما روايات زيد بن أرقم والتي فيها: (فخرج رسول الله ﷺ إلينا ظهرًا[1])، وقال في بعض ألفاظ الحديث:(في يوم ما أتى علينا يوم كان أشدُّ حرًّا منه[2])، أو ما نقله البراء بن عازب: (فنودي فينا الصلاة جامعة[3]).

وبمجموع هذه النقولات نصل إلى هذه النتيجة: وهو أنَّ هذا الاجتماع الكبير حصل في وقت الظهيرة قبيل صلاة الظهر في يوم شديد الحرِّ، بل بحسب تعبير زيد بن أرقم في أشدُّ الأيَّام حرارة!

والسؤال هنا: هل من المعقول أن يجمع النبي ﷺ في مثل هذا الحرِّ الشديد الذي لم يطقه حتَّى أهل الحجاز مثل زيد بن الأرقم، ليخبر الناس بأمر معروف ومعلوم عندهم وهو محبَّة علي ؟!

إنَّ لزمان وقوع الحدث مدخليَّة كبيرة في تقييم خطورته، فلو طرق بابك أحد الصباح فستعتقد أنَّ الأمر اعتيادي، لكن لو طرق باب بيتك بعد منتصف الليل ستجزم أنَّ طارق الباب يريدك في أمر

---

(1) مسند أحمد 4/ 368.

(2) المستدرك 3/ 533.

(3) مسند أحمد 4/ 281.

خطير، وعليه لو فتحت الباب وعلمت أنَّه يريدك في أمـر اعتيـادي فإنَّه يحقُّ لك أن تعترض عليه وتصفه بالسفاهة.

وكذلك للإطار المكاني دور كبير في فهم هذه الحادثـة المباركـة، إذ أنَّ اختيار هذا المكان المخصوص (غدير خم) لم يكن اعتباطًا:

فهذا المكان وصفه بعض من زاره بقولـه: ولـيس الغـدير عـلى طريق القوافل إلى المدينة، ولكنَّه شرق الطريق غير بعيد عنـه يميـل إليه المسافرون لوجود الماء الذي يجتمـع في الغـدير، وأرضـه سـهلة منبسطة، وفيه شجر ملتفٌّ في غيضة تسمّى خمّا سمِّي الغدير باسمها فقيل (غدير خم)، ولذا فهو من أماكن نزول المسافرين للتزود بالماء ووجود الظل وانبساط الأرض[1].

إذن فهذا المكان فيه ثلاث مواصفات مهمَّـة: انبـساط أرضـه، ووجود الظلِّ، والأهمُّ من هذا وجود الماء، وهذه العوامـل الثلاثـة تضمن أهمّ مناخ يمكن أن يوجد ليجتمع فيه الناس، وبتعبيرنا الآن غدير خم هو أكبر قاعة مؤتمرات يمكـن تحـصيلها في ذلـك الـزمن توفَّرت فيها كلُّ مقوِّمات الراحة.

ولهذا فإنّ صاحب الكلام السابق عقَّب بقوله: ولعلَّ هذا مـن أسباب اختياره ﷺ لخطبتـه، وذلـك لانبـساط أرضـه وسـهولتها، فيسهل اجتماع الناس فيه وجلوسهم حـول النبـي ﷺ، وهـو بهـذا

(1) حديث الغدير 30.

يشبه وادي عرنة الذي خطب فيه النبي ﷺ يوم عرفة، فهو واد أفيح فسيح دمث الأرض يسهل اجتماع الناس فيه وجلوسهم عليه[1].

ومن اللطائف ما عرف عن "غدير خم" من كون ارتداد الصوت فيه عال جدًّا، بحيث إذا تكلَّم أحد بكلام خافت سمعه من كان بعيدًا عنه، ولعلّ هذا من أسباب اختيار المكان إذ أنَّه يضمن سماع الجميع لما يقول النبي ﷺ.

وهنا يأتي السؤال المهمُّ: إذا كانت قضيَّة الغدير أمرا عرضيًّا، فلماذا اختار النبي ﷺ الذي لا ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ المكان بهذه العناية، بحيث كان المكان المختار مشابهًا لمكان خطبته في يوم عرفة؟ أليس هذا دليلًا على أنَّ ما سيخبر به النبي ﷺ لا يقلُّ أهميَّة عمَّا أخبر به في خطبة الحجِّ؟

والأهمّ من كلِّ هذا نجد أنَّ بعض الصحابة قد صدر منهم ما يخدم هذا الفهم للحديث، فقد ورد في بعض الطرق: فلقيه عمر بعد ذلك فقال له هنيئًا يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[2].

إنَّ كلَّ هذه المؤشِّرات تثبت صحَّة التحليل الذي طرحناها، وهو أنَّ الذي كان يوم الغدير هو إعلام رسمي من النبي ﷺ

---

(1) حديث الغدير 30.

(2) مسند أحمد 4/ 281.

بخليفته من بعده، بل هو تنصيب حقيقيٌّ له، خصوصًا مع رمزيَّة رفع اليد[1] وإلباسه عمامته[2] كما ورد في بعض طرق الحديث الكثيرة، ولو سلمت خطبة الغدير من رقابة السياسيين والمحدِّثين ووصلت لنا كاملة لعرف كلَّ العالم حقيقة ما حصل في ذلك اليوم.

وقد سلمت مصادر الشيعة من هذه الرقابة فنقلت كلَّ خطبة النبي ﷺ الطويلة في هذا اليوم وفصَّلت في أحداث هذا اليوم تفصيلا، وتجاوز الأمر مجرَّد التنصيب إلى حصول بيعة حقيقيَّة في ذلك اليوم:...فناداه القوم: سمعنا وأطعنا على أمر الله وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا وتداكُّوا على رسول الله وعلى علي فصافقوا بأيديهم، فكان أوَّل من صافق رسول الله ﷺ الأول والثاني والثالث والرابع والخامس وباقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس على طبقاتهم وقدر منازلهم، إلى أن صليت المغرب والعتمة في وقت واحد، وواصلوا البيعة والمصافقة ثلاثًا ورسول الله يقول كلما بايع قوم: الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين[3].

وممَّا ذكرناه تبيَّن الجواب على السؤال الذي دائما ما يُطرح: إذا كان الغدير تنصيبًا لعلي ، فلماذا لم يحصل هذا الأمر في مكَّة وتحديدًا

---

(1) مسند أحمد 4/ 181، سنن ابن ماجة 1/ 43، المستدرك 3/ 533.

(2) سنن البيهقي 10/ 14: عن أبي راشد الحبراني، سمعت عليًّا يقول: عمّمني رسول الله ﷺ يوم غدير خم بعمامة سدلها خلفي.

(3) الاحتجاج 1/ 160.

في يوم عرفة مع اجتماع الناس من شتَّى البلدان في صعيد واحد ووقت واحد؟

إذ أنَّه لو حصل هذا الأمر لاستطاع المنافقون التشويش على النبي ﷺ وإثارة الفتنة في بيت الله الحرام لأنَّهم كانوا على أتمِّ الاستعداد لذلك كما قدّمنا، لكنّ حنكة النبي ﷺ والتسديد الإلهي جعله يستخدم عنصر المفاجأة ليباغت القوم بهذا الإعلان المفاجيء في مكان وزمان لا يخطر على البال، فمن الذي يتوقَّع أن يكون الإعلان في صحراء خالية في حرِّ الظهيرة؟!

ولهذا لم يكن للمنافقين أيَّ ردَّة فعل حقيقيَّة إلَّا ما نقل من قصَّة الحارث بن النعمان الفهري[1]، ومرَّ التنصيب بسلام دون أيِّ تشويش، ومن هنا وجد "حزب النفاق" نفسه في مأزق حقيقيٍّ حيث باءت جميع خططه بالفشل وحصل ما كانوا يخشونه، فالآن لا يواجهون النبي ﷺ بل يواجهون خليفته الشرعي أيضًا: علي بن أبي طالب .

عقبة أخرى؟

تحدَّثت مصادر الشيعة عن وجود محاولة اغتيال أخرى للنبي ﷺ حصلت بعد بيعة الغدير: فقد روى علي بن إبراهيم القمِّي في تفسيره بعد ذكره لأحداث يوم الغدير: فقال أصحابه الذين ارتدوا

(1) تفسير القرطبي 18/ 278.

بعده: قد قال محمد في مسجد الخيف ما قال وقال ههنا ما قال، وإن رجع إلى المدينة يأخذنا بالبيعة له، فاجتمعوا أربعة عشر نفرًا وتآمروا على قتل رسول الله ﷺ وقعدوا في العقبة، وهي عقبة هرشى بين الجحفة والأبواء، فقعدوا سبعة عن يمين العقبة وسبعة عن يسارها لينفروا ناقة رسول الله ﷺ، فلمّا جنَّ الليل تقدَّم رسول الله ﷺ في تلك الليلة العسكر فأقبل ينعس على ناقته، فلمّا دنا من العقبة ناداه جبرئيل: يا محمد، إنَّ فلانا وفلانًا وفلانًا قد قعدوا لك، فنظر رسول الله ﷺ فقال: من هذا خلفي؟ فقال حذيفة اليماني: أنا يا رسول الله حذيفة بن اليمان، قال: سمعت ما سمعت؟ قال: بلى، قال: فاكتم، ثمَّ دنا رسول الله ﷺ منهم فناداهم بأسمائهم، فلمّا سمعوا نداء رسول الله ﷺ فرُّوا ودخلوا في غمار الناس، وقد كانوا عقلوا رواحلهم فتركوها ولحق الناس برسول الله ﷺ وطلبوهم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى رواحلهم فعرفهم، فلمّا نزل قال: ما بال أقوام تحالفوا في الكعبة إن مات محمد أو قتل ألّا يردوا هذا الأمر في أهل بيته أبدًا؟ فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فحلفوا أنّهم لم يقولوا من ذلك شيئًا ولم يريدوه ولم يكتموا شيئا من رسول الله ﷺ[1].

وهذه القصّة قد يرفضها القارئ لأوّل وهلة لأنَّ كتب التاريخ لم تتحدَّث إلّا عن محاولة اغتيال واحدة لم تشفع بثانية وهذا ما يضعف مصداقيّة هذه الرواية، إلّا أنَّ التنقيب في كتب التاريخ يثبت

(1) تفسير القمي 1/ 174.

أنَّ المؤرِّخين قد أشاروا إلى هذه القضيَّة أيضًا، وعليه فنحن لا نتحدَّث عن عقبة واحدة بل عن عقبتين أولاهما "عقبة تبوك" والثانية "عقبة هرشى":

فقد روى الطبراني في معجمه رواية تطابق معنى ولفظا رواية تفسير القمِّي، قال: قلنا كيف أصاب حذيفة ما لم يصب أبو بكر ولا عمر؟ قال صلة بن زفر: قد والله سألنا حذيفة عن ذلك، فقال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في مسير ذات ليلة فأدلجنا دلجة فنعس رسول الله ﷺ على راحلته، فقال أناس: لو دفعناه الساعة فوقع فاندقَّت عنقه استرحنا منه، فلمَّا سمعتهم تقدَّمتهم فسرت بينه وبينهم فجعلت أقرأ سورة من القرآن فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال: من هذا؟ قلت: حذيفة يا رسول الله، قال: أدن، فدنوت فقال: ما سمعت هؤلاء خلفك ما قالوا؟ قلت: بلى يا رسول الله ولذلك سرت بينك وبينهم، قال: أما إنَّهم منافقون فلان وفلان وفلان[1].

وهذه الرواية تختلف عن قضيَّة العقبة من عدَّة جوانب:

الأوّل: ففي خبر العقبة نجد تصريحًا بأنَّ عمّار كان موجودًا في الحادثة وهو المتولِّي لناقة رسول الله: "كان يقوده حذيفة ويسوق به عمار[2]" أمَّا في هذا الخبر فلا يوجد أيُّ ذكر لعمَّار.

---

(1) المعجم الكبير 3/ 164.

(2) مسند أحمد 5/ 453.

الثاني: من يقرأ خبر عقبة تبوك يجد أنَّ النبي ﷺ كان مستيقظًا ولذلك أمر مناديه بمنع الناس من المرور من العقبة وهو الذي تولَّى إرشاد عمَّار وحذيفة لطريقة التعامل مع الموقف، أمَّا في هذا الخبر فإنَّ النبي ﷺ كان نائمًا في بدء الأمر واستيقظ على صوت قراءة حذيفة للقرآن.

الثالث: أنَّ حذيفة لم يكن عالما بنوايا القوم إلَّا عندما هجموا على النبي ﷺ في رواية عقبة تبوك، أمَّا في هذا الخبر فقد علم حذيفة ما يريده القوم لمَّا سمعهم يتناجون فيما بينهم " فقال أناس: لو دفعناه الساعة فوقع فاندقَّت عنقه استرحنا منه، فلمَّا سمعتهم تقدَّمتهم[1]".

الرابع: أنَّ الذي منع اغتيال النبي ﷺ في خبر العقبة هو اشتباك عمّار مع القوم: "غشوا عمارًا وهو يسوق برسول الله ﷺ وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل[2]"، أمَّا في هذه الحادثة فإنَّ سير حذيفة بينه وبينهم كان حائلًا دون ذلك، ولعلَّ ما جرى في الحادثة السابقة جعلهم يخافون من تكرار الفضيحة.

فإذن هي حادثة أخرى تختلف عن حادثة تبوك، إلَّا أنَّها تشترك معها في عدَّة أمور فكلا الحادثتين وقعتا في عقبة، وكليهما كان حذيفة بن اليمان حاضرًا وله دور فيهما، وطريقة الاغتيال كانت

(1) المعجم الكبير 3/ 164.

(2) مسند أحمد 5/ 453.

واحدة في الحادثتين ومن هنا اختلط على المؤرِّخين الأمر بينهما ودمجوا الروايتين دمجًا، فوضعوا كلَّ روايات حذيفة الواردة حول قضيَّة الاغتيال تحت عنوان "عقبة تبوك" في حين أنَّ أغلب الروايات لم تحدَّد أيّ عقبة كانت وهكذا اختلط الحابل بالنابل، ولعلَّ السبب الآخر الذي قلّل من انتشار هذه الحادثة هو أنّه لم يبادروا بالتنفيذ كما في قضيّة تبوك بل أعرضوا عن الأمر بمجرّد رؤية حذيفة بن اليمان، ولهذا لم يعلم بها عامّة الناس وبقيت محصورة بين الخواص.

والمتتبِّع لكتب التاريخ والحديث والسير يجد شواهد متفرِّقة يمكن أن تثبت صحَّة هذه الحادثة:

الشاهد الأوَّل: روى البوصيري في الإتحاف بسنده: عن أبي هريرة قال: "هبطت مع النبي ﷺ من ثنية هرشى فانقطع شسعه فناولته شسعي، فأبى أن يقبلها وجلس في ظلِّ شجرة ليصلح نعله، فقال لي: انظر من ترى، قلت: هذا فلان، قال: بئس عبد الله فلان، ثم قال لي: انظر من ترى، قلت: هذا فلان، قال: بئس عبد الله فلان، ثم قال لي: انظر من ترى، قلت: هذا فلان، قال: نعم عبد الله فلان، فالذي قال له: نعم عبد الله فلان خالد بن الوليد، وأمَّا الآخران فلا أسمِّيهما أبدًا[1].

---

(1) إتحاف الخيرة المهرة 4/ 522.

والإطار المكاني لهذا الخبر مصرَّح به وهو "عقبة هرشى" مكان الحادثة، أمَّا الإطار الزماني فهو حجَّة الوداع بقرينة وجود أبي هريرة الذي لم يُعلم أنَّه قد رافق النبي ﷺ إلى مكَّة بعد إسلامه سوى في حجَّة الوداع، وبالتالي فالرواية تتفق زمانا ومكانا مع الحادثة التي نحن بصدد الحديث عنها، أمّا موضع الشاهد فيها فهو ذمُّ النبي ﷺ رجلين نزلا من العقبة بعده، بل الإصرار على إبلاغ هذا الذمّ لأبي هريرة، والسؤال الذي يطرح: ما هو الداعي لمثل هذا القول؟!

والأعجب ممَّا تقدَّم هو التعرُّض لخالد بن الوليد، حيث نقلوا أنّه نزل من هذه العقبة بعد النبي ﷺ كما في بعض الطرق الأخرى للحديث: "متدلِّيًا من هرشى"، وأنَّه المقصود من قول النبي ﷺ بقوله: "نعم عبد الله فلان". فلماذا طعن رسول الله ﷺ في رجلين ومدح ثالثًا؟ ولماذا يحاول أبو هريرة إقناع الناس بأنَّ الممدوح هو خالد؟ إنَّها فعلًا أسئلة محيّرة بالنسبة لكلِّ باحث تاريخي لكنَّ المقدار المطمأنُّ به أنَّ هذه الرواية لها علاقة بحادثة الاغتيال، ولو وصلتنا كاملة لكان الأمر أوضح.

والأمر الآخر الذي لا بدَّ من الوقوف عنده هو: خوف أبي هريرة من البوح بأسماء من ذمَّهم رسول الله ﷺ، فإن كانا من مشاهير المنافقين الذين يعرفهم حتَّى الصغير فما فائدة كتمان أمر معروف مشهور؟ وإن كانا من الذين مردوا على النفاق فلماذا يخاف منهم أبو هريرة؟ الجواب نجده في كلام أبي هريرة نفسه؛ حيث قال

في مورد آخر: حفظت عن رسول الله ﷺ وعاءين فأمّا أحدهما فبثثته وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[1].

وهذا الحديث من الوعاء الثاني الذي يتحدَّث عنه أبو هريرة، إذ يظهر أنَّ هذه الأسماء كان لها نفوذ كبير وسلطة قويَّة بحيث لو أحسُّوا بالخطر من أيِّ شخص فقد يقتلونه وإن كان أبو هريرة، ولذلك نجد أنَّ الحفَّاظ قد حذفوا صدر الرواية[2] وتركوا منها فقط "نعم عبد الله خالد" رغم أنَّ إسمه لم يرد في الحديث بل هو تفسير من أبي هريرة!

الشاهد الثاني: روى نعيم بن حماد خبرًا عن سالم بن عبد الله بن عمر أنَّه قال ونحن هابطون من هرشى، ونظر إلى جبل عن يساره، فقال: يحشر الناس فلا يبقى إلَّا رجلين في هذا الجبل، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان اذهب فانظر ما فعل الناس، فإذا حاذيًا هذه الثنية ثنية هرشى حشرًا على وجوههما[3].

وهذه الرواية تخبر عن رجلين يحشران على وجوههما في ثنيَّة هرشى، حشر الرجلين في ثنيّة هرشى ليس لأنّهما آخر من بقيا من الناس إذ أنَّ صريح القرآن ينصُّ على أنَّ الحشر يكون للجميع دفعة واحدة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا

---

(1) صحيح البخاري 1/ 38.

(2) مثل: أحمد في مسنده 2/ 360، ابن عساكر في تاريخ دمشق 16/ 245.

(3) الفتن 381.

﴿مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾، فلا يحتمل بقاء رجلين بدون سبب كما ينصُّ الخبر، بل إنَّ المحتمل بقوَّة أنَّ ربط حشر الرجلين بهرشى هو بسبب شيء ارتكباه فيها، وهذا ما يرجعنا إلى الشاهد الأوَّل الذي ذكرناه وفيه ذكر للرجلين الذين امتنع أبو هريرة عن تسميتهما!

والعجيب ما ورد في البخاري عن أبي هريرة حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلَّا العواف يريد عوافي السباع والطير، وآخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشًا حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرَّا على وجوههما[1].

وهذه الرواية بهذه الصياغة قريبة من جهة المضمون من الرواية التي ذكرناها لكنَّ التفاصيل المذكورة فيها تبعدها عن الاحتمال الذي ذكرناه، إلَّا أنَّ شرّاح الحديث قد نصُّوا على أمر مهمٍّ يقوِّي احتمالنا أكثر، فقد نصّ ابن حجر العسقلاني في شرحه لهذا الخبر: قوله "وآخر من يحشر راعيان من مزينة"، هذا يحتمل أن يكون حديثًا آخر مستقلًّا لا تعلَّق له بالذي قبله ويحتمل أن يكون من تتمة الحديث الذي قبله وعلى هذين الاحتمالين يترتب الاختلاف الذي حكيته عن القرطبي والنووي والثاني أظهر كما قال النووي[2].

---

(1) صحيح البخاري 2/ 222.

(2) فتح الباري 4/ 78.

وكلامه يضعنا أمام قرينة جديدة وهي أنَّ أبا هريرة أو الرواة الذين جاؤوا بعده قد ضيَّعوا معنى الحديث بدمجه مع غيره بحيث يصبح الأمر متعلِّقًا بالمدينة وأهلها وليس خاصًّا برجلين كما في الخبر الأوَّل، أمَّا تحديدهما براعيين من مزينة فلا شكَّ أنَّه داخل تحت سياسة إخفاء مدلول الحديث، والمحصَّل أنَّ وراء الأكمة ما وراءها.

الشاهد الثالث: تحدَّثت بعض المصادر عن قضيَّة حصلت لعائشة بنت أبي بكر في نفس المكان الذي نحن بصدد البحث فيه "عقبة هرشى"، فقد روى الحموي في معجمه: ابن أبي ذئب عن عمران بن قشير عن سالم بن سبلان قال: سمعت عائشة وهي بالبيض من يمني بسفح هرشى وأخذت مروة من المرو فقالت: وددت أنِّي هذه المروة[1].

وهذا التعبير يستعمل عادة للتعبير عن الندم والحسرة كما هو معروف عند أهل اللغة، وتعبيرها بـ"هذه المروة" دليل على أنَّ لهذا المكان خصوصيَّة وعلاقة بالأمر الذي تتندَّم عليه، فهل كانت تشير إلى محاولة اغتيال النبي في "عقبة هرشى"؟ وإذا كان الأمر كذلك فماهي علاقتها بهذه المكيدة: هل كان لها يد في ذلك أم كانت تعلم ولم تخبر رسول الله ﷺ عن نوايا القوم؟ كلُّ هذه مجرَّد محتملات قد تتقوَّى بعضها بالأسماء التي سرَّبت حول من شارك في مؤامرة "عقبة تبوك" لكن بالنهاية لازلنا أمام لغز حقيقيٍّ.

---

(1) معجم البلدان 5/ 449.

الشاهد الرابع: نقلت بعض المصادر رواية تتحدَّث عن صعود النبي ﷺ هذه العقبة، فقد روي: عن سعيد بن إبراهيم، عن زيد بن خالد الجهني: أن رسول الله ﷺ قال له وهو يصعد في ثنية هرشى: يا زيد، ما تعوَّذ الأوّلون بمثل: "قل أعوذ برب الفلق"، و"قل أعوذ برب الناس"[1].

وهذا الخبر فيه أمر غريب جدًّا، إذ أنّ الراوي لم يكتف بنقل ما يتعوَّذ به، بل اهتمّ بنقل الإطار المكاني وحال النبي ﷺ "وهو يصعد في ثنية هرشى"، فهل كان النبي ﷺ يعطي لهذا الصحابي درسًا عمليًّا في أهميَّة التعوُّذ حيث أنّ هذا الأمر قد حماه من موت محقَّق؟ إذ لا فائدة لذكر الراوي لهذا القيد المكاني إلّا الربط بمضمون المعوذتين والتي يستعاذ بهما "من شرِّ ما خلق" و "من شرِّ الوسواس الخنَّاس" ومؤامرة اغتياله من أجلى مصاديق الشرِّ الذي يستعاذ منه.

الشاهد الخامس: وردت مجموعة من الروايات تربط بين هذا المكان، وبين نبي الله موسى بن عمران ويونس بن متَّى: فقد روى البخاري في صحيحه بسنده: عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ مرّ بوادي الأزرق فقال: أيُّ واد هذا؟ فقالوا: هذا وادى الأزرق، قال: كأنِّي أنظر إلى موسى هابطًا من الثنيّة وله جؤار إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثنيّة هرشى فقال: أيُّ ثنيّة هذه؟ قالوا: ثنيَّة هرشى، قال: كأنّي أنظر إلى يونس بن متَّى على ناقة حمراء جعدة، عليه جبة من

---

(1) معجم ما استعجم 4/ 1351.

صوف خطان ناقته خلبة وهـو يلبِّـي[1]؛ وقـد ورد ذكـر موسـى في أخبار أخرى كما في صحيح ابن حبَّان: عن أبي هريرة أنَّ رسـول الله ﷺ قال: كأنِّي أنظر إلى موسى بن عمران منهبطًـا مـن ثنيَّـة هرشـى ماشيًا[2].

ويظهر من أوَّل وهلة أنَّ هذه الرواية لا علاقة لها بموضـوعنا، لكن الغريب أنَّ بعض الرواة قد حذف اسم الثنيَّة من الخـبر كـما في مستدرك الحاكم الذي نقله كالتالي: عن ابن عبـاس: أنَّ رسـول الله ﷺ مرَّ على ثنيَّة فقال: ما هذه؟ قالوا: ثنية كـذا وكـذا، فقـال: كـأنِّي أنظر إلى يونس بن متَّى على ناقة خطامها ليف وعليه جبَّة من صوف وهو يقول لبَّيك اللهم لبَّيك[3].

وهذه التعمية على المكان قد تكون قرينة على أنَّ القـوم ربطـوا بين هذا الحديث وبين قضيَّة الاغتيال التي يسعى الجميع لإخفائها، خصوصا أنَّ ذكر الأنبياء في خصوص هذه المواضـع أمـر مهـمٌّ فـما الربط بين موسى ويونس وبين هذا المكان؟ نعم ذكر شرَّاح الحديث وجوه عدَّة لهذا الخبر مفادها أنَّ الأنبياء قد حجُّوا أو أنَّه قد رآهم في معراجه، لكن هذه الوجوه لا تجيب على تركيز النبي ﷺ على المكان والسؤال عنه لجذب انتباه الناس.

---

(1) صحيح مسلم 1/ 105.

(2) صحيح ابن حبّان 9/ 71.

(3) المستدرك على الصحيحين 2/ 584.

والذي أحتمله بقوَّة أنَّ هذا الحديث فيه إشارة إلى ما سيحصل عند عودتهم من الحجِّ وهو محاولة الاغتيال، فذكره ﷺ لنبي الله موسى هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فهو تمهيد لحصول مؤامرة لقتله ﷺ، أمّا ذكر نبي الله يونس فهو إشارة لكيفيَّة قتله وهي الإلقاء كما ألقي يونس من السفينة لقتله، فهؤلاء المتآمرون يسعون إلى إلقاء النبي ﷺ من على راحلته ليقع ويموت كما مرَّ عليك في الخبر.

إنَّ هذه الحادثة ممّا قد ضيَّعه المؤرَّخون وتركوا ذكره، فإن كان قد وصلنا بعض الشيء حول "عقبة تبوك"، فإنَّ هذه العقبة لم يصلنا عنها شيء البتَّة سوى الروايات التي اشتبه فيها المؤرِّخون وظنُّوا أنَّها من أخبار "عقبة تبوك"، وخطورة هذه القضيَّة تكمن في أنَّ أصحاب هذه المؤامرة أثبتوا أنَّهم أصحاب مشروع سياسي متعلِّق بمستقبل الحكم في الإسلام ولذلك اختاروا هذا التوقيت بالذات، والسؤال الذي يُطرح هنا: كيف سيتعامل النبي ﷺ مع هذا التطوُّر الخطير؟

7

جيش أسامة

رجـع النبـي ﷺ إلى المدينـة المنـوَّرة بعـد أداء مراسـم الحـجِّ، وبسبب الأحداث التي حصلت في الطريق فإنَّ الكـلَّ كـان يترقَّـب ماهي الإجراءات النبويَّة التي ستتَّخذ بالمدينة المنوَّرة، خصوصًا وأنَّه ﷺ قد صرَّح أنَّه سينتقل إلى الرفيق الأعـلى: فـإنِّي لا أدرى لعـلِّي لا أحجُّ بعد حجَّتي هذه[1]؛ وفعلًا فإنَّه لم يبق في المدينـة إلَّا سـبعين أو ثمانين يومًا قبل وفاته ﷺ.

---

(1) صحيح مسلم 4/ 79.

إعلان التعبئة:

كان أوَّل القرارات وأهمَّها التي اتخذها النبي ﷺ عند وصوله المدينة المنوَّرة هو إعلان التعبئة العامَّة لغزوة جديدة تحت قيادة الشاب "أسامة بن زيد بن الحارثة"، والتوجُّه معه لقتال الروم الذين نكَّلوا بالمسلمين في غزوة مؤتة وانتهت بقتل ثلَّة من الصحابة منهم جعفر بن أبي طالب وزيد بن الحارثة.

قال الواقدي: فخرج بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي، فخرج به إلى بيت أسامة وأمر رسول الله ﷺ أسامة فعسكر بالجرف وضرب عسكره في سقاية سليمان اليوم، وجعل الناس يجدُّون بالخروج إلى العسكر فيخرج من فرغ من حاجته إلى معسكره ومن لم يقض حاجته فهو على فراغ ولم يبق أحد من المهاجرين الأولين إلَّا انتدب في تلك الغزوة: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في رجال من المهاجرين والأنصار عدَّة: قتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم بن حريش(1).

إنَّ هذه الحادثة قد تكون عاديَّة إذ أنَّ العشرة سنوات التي قضاها النبي ﷺ بالمدينة المنوَّرة كانت مليئة بالغزوات والسرايا، إلَّا أنَّ المهمَّ بالنسبة إلينا هو قوله: "ولم يبق أحد من المهاجرين الأوَّلين إلَّا انتدب في تلك الغزوة"، إذ أنَّ تركيز الرواة على حثِّ النبي ﷺ

---

(1) المغازي 2/ 118.

على خروج كبار المهاجرين في هذه الغزوة قد يكون إشارة إلى أمر مهمٍّ: هل كان الغرض من هذه التعبئة العامَّة هو إخلاء المدينة من كلِّ شخص له طموح سياسي في خلافة النبي ﷺ؟

فلو كان الغرض هو الغزوة نفسها وكسر شوكة الروم؛ لكان التركيز على انتداب الشباب الذي يمكن أن يتحمَّل مشقَّة الذهاب إلى مؤتة ومنازلة جيوش الروم على كثرة عددهم وشدَّة بأسهم، لكنَّ التركيز على خصوص كبار المهاجرين الذين هم في الأعمِّ الأغلب من الكهول والشيوخ يذهب بنا إلى قبول هذا التحليل التاريخي، فإعلان التعبئة العامَّة لم يكن لأجل القتال أوَّلًا وبالذات، بل كان بمثابة المناورة السياسيَّة لإخراج "حزب النفاق" من المدينة بحيث لا يكون لهم أيُّ تشويش على قضيَّة انتقال السلطة إلى من بايعه الناس في الغدير، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشكِّ أنَّ القوم مستعدُّون لفعل أيِّ شيء لبلوغ مآربهم وإن كان قتل رسول الله ﷺ!

التمرُّد المضاد:

لم يغب ما ذكرناه عن "حزب النفاق"، فقد فهموا أنَّ الغرض من هذا الجيش هو إبعادهم عن ساحة المنافسة ومنعهم من فعل أيِّ شيء يفسد تولِّي عليٍّ بن أبي طالب الأمر، ومن هنا بدؤوا في عمل تمرُّد مضاد لإبطال هذا الأمر النبوي وكسبَ الوقت، إذ أنَّ الحالة الصحيَّة للنبي ﷺ قد تدهورت جدًّا ووفاته وشيكة، وقد اختاروا كخطوة أولى تأليب الرأي العام ضدَّ أسامة بن زيد واللعب على

الوتر القبليّ: فهذا القائد كان في سنِّ الشباب ولم يبلغ العشرين من العمر وهذا ما لا يرتضيه العرب، أضف إلى ذلك أنَّ والده كان عبدًا وليس حرًّا، فكيف يكون أميرا على جيش يتألَّف من أشرف العرب نسبًا لاسيما قبائل قريش؟!

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر: بعث رسول الله ﷺ بعثًا وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطُعن في إمارته، وقال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إن كان لخليقًا للإمرة وإن كان لمن أحبَّ الناس إليَّ، وإنَّ هذا لمن أحبِّ الناس إليَّ بعده[1].

وهذا الحديث الصحيح قد نقل جزءًا من الواقعة، إلّا أنّه قد حذفت منه بعض الأمور المهمّة لكي يُعمِّى على الحقيقة:

الأوَّل: الحالة التي قال فيها النبي ﷺ هذا الكلام، فقد أخفي في هذا الخبر كلّ ما يدلُّ عليها، وقد نقل لنا ابن هشام بعض هذه التفاصيل المهمَّة، قال: عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء: أنَّ رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة بن زيد، وهو في وجعه، فخرج عاصبا رأسه حتَّى جلس على المنبر وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أمَّر غلامًا حدثًا على جلَّة المهاجرين والأنصار[2].

فهذا الكلام لم يكن كلاما عاديًا عابرًا، بل كان خطبة على منبر

---

(1) صحيح البخاري 8/ 117.

(2) السيرة النبوية 4/ 1064.

المسجد النبوي، ولم يكن النبي ﷺ في كامل صحّته بل كان معتلًّا مريضا، وكلُّ هذه القرائن تدلّ على أنَّ الخطب جلل، وأنّ هذا الكلام لم يكن مجرَّد طعن في شخص أسامة بن زيد، بل له خلفيَّات خطيرة جدًّا بحيث لا يمكن السكوت عنها وتأجيل حسم الموضوع، وهذا ما يؤكِّد صحَّة القراءة التي طرحناها للحدث.

الثاني: تحدِّث الخبر عن الطاعنين في إمرة أسامة بصيغة البناء للمجهول فقال "طُعن"، ومن حقّنا أن نستفسر عن هذا الطاعن الذي اعترض على أمر رسول الله ﷺ وألّب الناس عليه، وهذه الحقيقة قد تمَّ التصريح بها في بعض كتب السير، قال الواقدي: فقال رجال من المهاجرين وكان أشدّهم في ذلك قولا عيّاش بن أبي ربيعة[1].

إذن الطاعنون في أسامة لم يكونوا من المنافقين المشهورين بالنفاق كما ذكر البعض بل هم من المهاجرين الأوَّلين، وهذا ما يؤكِّد كلّ ما ذكرناه سابقًا: وهو أنَّ كلَّ الفتن التي أثيرت هي من طرف بعض المهاجرين، فهم الذين لهم طموحات سياسيَّة بخلافة النبي ﷺ لكونهم الأكثر حظًّا لعدَّة أسباب معروفة، وقضيَّة الطعن بإمرة أسامة بن زيد لم تكن إلَّا حلقة من مسلسل طويل من هذه القلاقل التي أثيرت طيلة السنوات العشر في المدينة المنوَّرة.

ومن هنا تعلم أيّها القارئ سبب إصرار رسول الله ﷺ على

---

(1) المغازي 2/ 118.

خروج هذا الجيش في أسرع وقت، فإنَّ بقاء هؤلاء يعني حدوث الفتنة لا محالة، وقد نقلوا أنَّ أمّ أيمن التي لا شكَّ في إيمانها وإخلاصها دخلت على النبي ﷺ فقالت: "أي رسول الله لو تركت أسامة يقيم في معسكره حتى تتماثل فإنَّ أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه، فقال رسول الله ﷺ: أنفذوا بعث أسامة"[1]؛ فالقضيّة لا تحتمل التأخير والتهاون بل هي أمر حسَّاس سيحدِّد لاحقًا مصير الإسلام!

هل طبَّقوا أمر النبي ﷺ ؟

رغم هذا الوعيد الشديد من النبي ﷺ الذي وصل إلى لعن المتخلِّفين كما تنقل بعض المصادر[2] إلَّا أنَّ القوم لم يرتدعوا بل واصلوا في غيِّهم وأكملوا تطبيق مخطَّطهم فامتنعوا عن الخروج في هذا الجيش تحت أعذار مختلفة وامتدَّ هذا التثاقل من السادس والعشرين من صفر يوم عقد اللواء إلى حين وفاته.

ولذلك نجد أنَّ هذا الأمر قد سبَّب إحراجا شديدا لبعض أهل السنَّة والجماعة، خصوصًا مع انتداب النبي ﷺ لبعض كبار الصحابة في هذا الجيش وفي المقابل سنجد لهم دورًا واضحًا في أحداث وفاته ﷺ، فكيف نجمع بين وجودهم في المدينة والأمر النبوي الصريح بخروجهم إلى الجرف والتحاقهم بجيش أسامة بن زيد؟

---

(1) المغازي 2/ 118.

(2) الملل والنحل 1/ 21.

ومن عجيب التوجيهات ما ذكره ابن تيميَّة الحرَّاني الذي حمَّل أسامة مسؤولية عدم الخروج:... ولا امتنع أحد من أصحاب أسامة من الخروج معه لو خرج، بل كان أسامة هو الذي توقَّف في الخروج لما خاف أن يموت النبي ﷺ فقال: كيف أذهب وأنت هكذا، أسأل عنك الركبان؟ فأذن له النبي ﷺ في المقام، ولو عزم على أسامة في الذهاب لأطاعه، ولو ذهب أسامة لم يتخلَّف عنه أحد ممَّن كان معه، وقد ذهبوا جميعهم معه بعد موت النبي ﷺ، ولم يتخلَّف عنه أحد بغير إذنه، وأبو بكر لم يكن في جيش أسامة باتفاق أهل العلم، لكن روي أنَّ عمر كان فيهم، وكان عمر خارجا مع أسامة لكن طلب منه أبو بكر أن يأذن له في المقام عنده لحاجته إليه فأذن له، مع أنَّ النبي ﷺ لما مات كان أحرص الناس على تجهيز أسامة هو وأبو بكر وجمهور الصحابة أشاروا عليه بأن لا يجهِّزه خوفًا عليهم من العدو، فقال أبو بكر: والله لا أحلُّ راية عقدها النبي ﷺ، وكان إنفاذه من أعظم المصالح التي فعلها أبو بكر في أول خلافته ولم يكن في شيء من ذلك نزاع مستقر أصلًا[1].

وكلامه باطل عاطل مخالف لما أثبته المؤرِّخون من خروج أسامة بن زيد امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ: فقد روى ابن سعد في طبقاته بسنده عن عروة بن الزبير: كتبت إليه – أسامة – فاطمة بنت قيس: إنَّ رسول ﷺ قد ثقل، وإنِّي لا أدري ما يحدث، فإن رأيت أن تقيم فأقم، فدوم أسامة بالجرف حتى مات رسول الله ﷺ[2].

(1) منهاج السنة 6/ 319.

(2) الطبقات الكبرى 4/ 68.

ولا شكَّ أنَّ هذه الاستماتة في إنكار وجـود كبـار الـصحابة في هذا الجيش هو لتبرير وجودهم في المدينة في المستقبل القريب، إذ إنَّه سيكون لهم دور كبير في الأحداث المستقبليَّة، وإذا لم يبرَّر بقاؤهم في المدينة فسيدخلون في دائرة من يحتمل فيهم الطعن في أسامة وقيـادة التمرّد ضدَّ الأوامر النبويَّة بالخروج.

8

وما أدراك ما يوم الخميس

من أهمِّ الحوادِث التي حصلت قبيل وفاة النبي ﷺ هي ما حصل في يوم الخميس أي قبل موته بأربعة أيَّام بما أنَّ موته ﷺ كان في يوم الإثنين الذي يليه، وهذا الحادثة اصطلح عليها بين المسلمين بـ"رزيَّة يوم الخميس" بعد أن أطلق عليها الصَّحابي عبد الله بن العبَّاس هذه التسمية كما سيأتينا.

القصَّة برواية الصحابة:

نقلت هذه القصَّة في عدَّة مصادر إسلامية بحيث قلَّما تجد كتابا تعرّض لسيرة النبي ﷺ أو لتاريخه لم يتحدّث عن هذه القضيّة، ومن هنا فإنّي سأنقل للقارىء العزيز أهمّ نصوص هذه الحادثة من مصادرها الأصليّة:

رواية ابن عبّاس: إنّ من أهمِّ رواة هذه الحادثة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس وقد نقلت رواياته في كتب الحديث بأسانيد صحيحة:

فقد نقل عنه البخاري ومسلم وغيرهما: لَمَّا حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي ﷺ هلمُّوا أكتب لكم كتابًا لا تضلُّوا بعده، فقال عمر: "إنَّ النبي ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله"، فاختلف أهل البيت فاختصموا: منهم من يقول قرِّبوا يكتب لكم النبي ﷺ كتابا لن تضلُّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي ﷺ قال رسول الله: "قوموا"، قال عبيد الله: وكان ابن عباس يقول إنَّ الرزيَّة كل الرزيَّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[1].

ورواها البخاري وغيره بواسطة سعيد بن الجبير أنَّه سمع ابن عباس: يقول يوم الخميس وما يوم الخميس ثمَّ بكى حتى بلَّ دمعه الحصى، قلت: يا ابن عباس ما يوم الخميس؟ قال: اشتدَّ برسول الله

(1) صحيح البخاري 7/ 9.

ﷺ وجعه فقال ائتوني بكتف أكتب لكم كِتَابًا لا تضلُّوا بعده أبـدًا، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع، فقالوا: ماله أهجر؟ اسـتفهموه، فقال: ذروني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليـه، فـأمر هـم بـثلاث قال: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مـا كنت أجيزهم، والثالثة إمَّا أن سكت عنها وإمَّا أن قالها فنسيتها[1].

ورويت عنه بلفظ آخر كما في صحيح مسلم: يوم الخميس وما يوم الخميس ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خدَّيه كأنَّها نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله ﷺ ائتوني بـالكتف والـدواة أو اللـوح والدواة أكتب لكم كتابًا لن تضلُّوا بعده أبدًا، فقالوا: إنَّ رسـول الله ﷺ يهجر[2].

رواية جابر الأنصاري: نقل عنه أحمد في مسنده هـذه الحادثـة؛ حيث قال: إنَّ النبي ﷺ دعا عند موته بصحيفة ليكتب فيها كتابا لا يضلُّون بعده، قال: فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها[3].

رواية عمر بن الخطاب: نقلها عنه الطبراني في المعجم الأوسط، قال: قال لما مرض النبي ﷺ قال: ادعـوا لي بـصحيفة ودواة أكتـب كتابا لا تضلُّون بعدي أبدًا، فكرهنا ذلك أشـد الكراهـة، ثـم قـال: ادعوا لي بصحيفة أكتب لكم كتابًا لا تضلُّون بعده أبدا، فقال النسوة من وراء الستر: ألا يسمعون ما يقول رسول الله ﷺ فقلـت: إنَّكـن صواحبات يوسف إذا مرض رسول الله ﷺ عصرتن أعيـنكن وإذا

(1) صحيح البخاري 4/ 66.
(2) صحيح مسلم 5/ 76.
(3) مسند أحمد 3/ 346.

صحَّ ركبتن رقبته، فقال رسول الله ﷺ: دعوهنَّ فإنهنَّ خير منكم[1].

هذه أهمّ ألفاظ الحادثة التي وردت في كتب الحديث مسندة ولنا عدَّة وقفات تأمُّلية مع هذه الحادثة التي بنظري القاصر هي أهمُّ حدث حصل في تاريخ النبي ﷺ:

أهميَّة الحادثة

إنّ الذي يلاحظ تعابير الصحابي ابن عبَّاس يجد أنَّه قد استخدم كلّ أساليب التهويل والتضخيم: فلمّا أراد ذكر اليوم قال "يوم الخميس وما يوم الخميس" على وزان ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ②﴾، ولم يكتف بذلك حتّى عرّف هذا اليوم بـ"الرزيَّة" بل "كلُّ الرزيَّة"، أي أنَّ ما حصل مصيبة عظيمة لا تقارن بها مصيبة، والأهمُّ من هذا أنَّه بكى لذكرها بكاء شديدًا حتَّى "جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خدَّيه كأنَّها نظام اللؤلؤ" أو كما في تعبير سعيد بن الجبير "حتَّى بلَّ دمعه الحصى".

والعجيب من ابن حجر العسقلاني الذي حاول توجيه بكاء ابن عبَّاس بقوله: وبكاء ابن عباس يحتمل لكونه تذكر وفاة رسول الله فتجدَّد له الحزن عليه[2]؛ ولا أدري هل خفي عليه قول ابن عباس: يوم الخميس ما يوم الخميس؟ فبكاؤه لأجل ما جرى في هذا اليوم لا لوفاة النبي ﷺ التي كانت في يوم الإثنين.

---

(1) المعجم الأوسط 5/ 287.

(2) فتح الباري 8/ 100.

فهذه التسمية وهذا البكاء الشديد دليلان على عظم هذه الحادثة في نظر ابن عبَّاس ترجمان القرآن وحبر الأمَّة ومن ثبت عند المسلمين أنَّه من الفقهاء بلا خلاف، فلذلك نحن أمام مصيبة عظيمة ولسنا أمام حادثة عابرة كما يحاول بعض الكُتَّاب تحجيمها.

ومن هنا كان السبيل إلى التخلُّص من هذه الرزيّة بالطعن في طريقة تعاطي ابن عباس مع الحادثة حتَّى جاؤوا بما يضحك بما الثكلى:

قال أحد شرَّاح البخاري: هذا آخر أحاديث الباب ويرويه ابن عبّاس ولم يكن حضر هذه القصَّة – وإن كان ظاهر الحديث أنَّه حضرها– لكنّه لمّا حدّث بهذا الحديث قال هذا الكلام،...وقول ابن عبّاس "إنَّ الرزيَّة كلَّ الرزيَّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه"، أي المصيبة كلَّ المصيبة، هكذا يرى ابن عبَّاس أنَّ هذه مصيبة، ولكن الدين قد كمل والحمد لله،...، أمَّا قول ابن عباس "إنَّ الرزيَّة كلَّ الرزيَّة" فهذا من اجتهاده حيث يقول: إنَّ المصيبة كل المصيبة ما حال بين رسول الله وبين كتابه، فاعتبر ابن عباس هذا مصيبة[1].

ومفاد كلامه: التشكيك في وجود ابن عبَّاس في الحادثة ممَّا يضعف شهادته، وعلى فرض وجوده فإنَّ ما ذكره لا يعدو كونه تضخيمًا للحدث نابعًا عن اجتهاده الشخصي وإلَّا فالحادثة لا

(1) منحة الجليل 1/ 314.

تسترعي كلَّ هذا الاهتمام؛ كلُّ هذا نتيجة إحساسه بخطورة هذه الحادثة والتبعات الخطيرة التي سيخلِّفها هذا الخطب الجلل!

والأمر الثاني الذي يدعونا للاهتمام بهذه الحادثة هو السياق التاريخي لها، حيث أنَّه ينبؤنا بأنَّ هذا الاجتماع الذي حصل في بيت رسول الله هو بمثابة الوصيَّة الأخيرة له، لذلك قدَّم رواة الحديث الكلام عن حالة رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: "اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه"، وقالوا: "لمَّا حضر رسول الله ﷺ" يعني ساعة احتضاره، بل تكفينا القرينة التاريخيَّة وهو أنَّه توفِّي في يوم الإثنين أي بعد أربعة أيَّام من هذه الحادثة.

ومن هنا فإنَّ مسلم صاحب الصحيح أورد هذا الحديث في "كتاب الوصية"، وهذا الأمر يضفي بعدا آخر لهذه الحادثة وهي أنَّها الوصيَّة الأخيرة لنبي الإسلام.

والأمر الآخر الذي يؤكِّد كلَّ ما سبق هو خطورة مضمون الكتاب، فمن الطبيعي جدًّا أن يكون بحسب هذه الظروف متعلِّقًا بمستقبل المسلمين الذين ظلَّ النبي ﷺ لسنين طويلة يزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، ولذلك نجد أنَّه قد أعطى صفة مائزة لهذا الكتاب وهو عصمته للأمَّة من الضلال: لا تضلُّوا بعده أبدًا.

فهذه الأمور الثلاثة تبيّن لنا أنَّا حادثة الخميس ليست مجرَّد حادثة عابرة ومجرَّد أمر جانبيٍّ هامشيٍّ في الإسلام بل هو أمر خطير بالغ الخطورة يمسُّ جوهر الإسلام ومستقبله.

إعلان التمرُّد

لم تكن الأمور المتقدَّمة غائبة عن من أسميناهم بـ"حزب النفاق" وأصحاب المشروع السياسي المناهض للمشروع النبوي، ولذلك لم يكن في صالحهم كتابة هذا الكتاب وحسم موضوع الخلافة فاعترضوا على النبي ﷺ ومنعوه من ذلك رفضًا لمضمون الكتاب.

وقد اختلفت تعبيرات الرواة في وصف الحادثة: فمنهم من عبَّر عن الموقف بقوله "فكرهنا ذلك أشدَّ الكراهة[1]"، وآخر بقوله: "فخالف عليها عمر بن الخطاب حتى رفضها[2]"، والأخطر من كلّ ما تقدَّم هو تبريرهم لهذا الرفض بقولهم: "إنَّ رسول الله ﷺ يهجر[3]" أو "ماله أهجر استفهموه[4]" أو "إنَّ رسول الله قد غلبه الوجع[5]"، فكلُّ هذه التعابير مفادها التشكيك في السلامة العقليَّة للنبي ﷺ، إذ أنَّ المرض قد أثَّر فيه بحيث لا يعلم ما يقوله ولا يمكن الأخذ بما يحكم به!

وهذه الكلمة بمثابة إعلان عزل للنبي ﷺ بسبب تأثير المرض على قدراته العقليَّة فالهجر بمعنى الهذيان، وحتَّى تخفيف العبارة إلى "غلبه الوجع" تؤدِّي إلى المعنى نفسه، ومن هنا فإنّ بعض الحفّاظ

---

(1) المعجم الأوسط 5/ 287.

(2) مسند أحمد 3/ 346.

(3) صحيح مسلم 5/ 76.

(4) صحيح البخاري 4/ 66.

(5) صحيح البخاري 7/ 9.

قد استنكر على بعض الرواة إيراد هذه العبارة في نصِّ القضيَّة فذكر الحديث مبتورًا ثمَّ قال: وهذا الحديث قد روي نحوه، عن ابن عباس من وجوه صحاح وزاد عبد الله بن عبد الله عليهم كلمة أنكرت عليه فصار الحديث منكرا من أجل الكلمة ولم نذكر الكلمة إجلالًا لرسول الله ﷺ(1).

وإذا أضفت لما تقدّم قولهم "حسبنا كتاب الله" يتبيَّن لك أنّ اعتراضهم لم يكن مجرَّد عمل عفوي بل كان إنهاء لكلّ دور لرسول الله ﷺ في هذه الحياة وإقصاء له عن الحياة السياسية، وهذا الذي جعل بعض الصحابة المخلصين يعترضون على قول "حزب النفاق" ويحاولون تقديم الكتاب للنبي ﷺ ممَّا حوَّل الاجتماع إلى لغو ولغط، بل وصل الأمر إلى تدخّل النساء في محاولة لنصرة النبي ﷺ أمام تخاذل الرجال "فقال النسوة من وراء الستر: ألا يسمعون ما يقول رسول الله ﷺ(2)"!

والذي يكشف أنَّ الأمر لم يكن عفويًّا هو أنَّ هذا السلوك قد استخدم سابقًا في أكثر من مورد لاسيما عند حديثه ﷺ عن قضيَّة الخلافة بعده:

فمثلًا لو رجعنا لحديث الاثني عشر خليفة المعروف والمشهور عند كلِّ المسلمين لوجدنا فيه جزئيَّة مهمَّة وهي عدم تمكُّن الراوي "جابر بن سمرة" من سماع بقيَّة حديث النبي ﷺ، فقد روى مسلم

---

(1) مسند البزّار 11/ 266.

(2) المعجم الأوسط 5/ 287.

في صحيحه عن جابر بن سمرة: لا يـزال الإسـلام عزيـزًا إلى اثنـي عشر خليفة، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلـت لأبي: مـا قـال؟ فقـال: كلُّهم من قريش[1].

والسبب في عدم فهمه لما ذكره النبي قد صرَّح به في بعض طرق الحديث الأخرى، فقد ذكر كما في مسند أحمد: ثم قال كلمة أصمَّنيها الناس[2]، أي منعني الناس من سماعها بحيث صرت كالأصمِّ، أمَّا كيف أصمَّه الناس فقد صرَّح به في مورد آخر فقـال: فكـبَّر النـاس وضـجُّوا[3]، وقـال: فجعـل النـاس يقومـون ويقعـدون[4]، ومـن الواضح أنَّ هذا التشويش كان متعمَّدًا لكي لا يسمع أحد ما يقولـه النبي ﷺ حول مستقبل الخلافة بعـده، إذ أنَّ القـوم يعـدُّون العـدَّة للانقلاب منذ أمد بعيد!

الموقف النبوي:

إنَّ الأمر الحاسم في هذه الحادثة هـو موقـف النبـي ﷺ الـذي طرد القوم من بيتهم ومنعهم من البقاء بقوله ﷺ: "قومـوا عنِّـي"، فإنَّ هذا العمل فيه إشارة قرآنية لقولـه تعـالى حكايـة عـن الأنبيـاء الـسابقين: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ، وقولـه: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ

(1) صحيح مسلم 6/ 3.

(2) مسند أحمد 5/ 98.

(3) مسند أحمد 5/ 98.

(4) مسند أحمد 5/ 99.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنَّ من ارتكب هذا العمل هو منافق بلا ريب ولا شكَّ، لأنّ مثل هذا العمل وهذا الاعتقاد يخالف:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾

وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾

وقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

فما فعله النبي ﷺ ليس إلّا تطبيقًا للأمر الإلهي الوارد في سورة التوبة بالغلظة على المنافقين: ، وبالتالي تعريف المجتمع بـ"حزب النفاق" المسؤول عن المكائد والدسائس العظيمة التي تعرَّضنا لبعضها كغزوة تبوك وقضيّة العقبة وما كان بعدها، وعليه فيكون آخر فعل قام به النبي ﷺ هو إقامة الحجَّة على الجميع بإسقاط جميع الأقنعة.

هل كتب الكتاب؟

إنَّ السؤال الذي يخطر ببال كلّ من يقرأ هذه الحادثة هو: ما الذي كان سيكتبه النبي ﷺ في هذا الكتاب؟ وإذا كان الأمر مهمّا إلى هذه الدرجة فلماذا ترك الكتابة وأعرض عنها؟

أمّا جواب السؤال الأوّل فلا شكَّ في أنَّ الأمر متعلِّق بأهمِّ مسألة وقع فيها اختلاف بين المسلمين وهي قضية الإمامة، فالنبي

ﷺ كان سيكتب كتابًا يبيِّن فيه اسم خليفته من بعده، وقد اعترف بهذا جملة من شرّاح الحديث، ولهذا يقول ابن الجوزي: اختلف العلماء في الذي أراد أن يكتب لهم على وجهين: أحدهما: أنّه أراد أن ينصَّ على الخليفة بعده، والثاني: أن يكتب كتابا في الأحكام يرتفع معه الخلاف، والأوَّل أظهر[1].

أمَّا السؤال الثاني فيمكن أن نجيب عليه بأمور:

الأوَّل: أنَّ مضمون الكتاب معروف مسبقًا، فقوله ﷺ في حديث الرزيَّة: "لن تضلُّوا بعده أبدًا"، هو عين ما قاله في يوم عرفة وفي يوم الغدير في حديث الثقلين: "ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلُّوا"، أي أنَّ ما سيكتب في هذا الكتاب هو النصَّ على خلافة علي بن أبي طالب ﷺ التي سبق وأن نصَّ عليها في غدير خم، ولعلَّ القوم فهموا هذا الأمر فلذلك منعوه من كتابة الكِتَاب، بل ادَّعى ابن حجر المكِّي أنَّ النبي ﷺ قد ذكر حديث الثقلين في ذلك اليوم: ثم اعلم أنَّ لحديث التمسُّك بذلك طرقًا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيًّا، ومرَّ له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه، وفي بعض تلك الطرق أنَّه قال ذلك بحجَّة الوداع بعرفة وفي أخرى أنّه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه[2].

---

(1) كشف المشكل 2/ 315.

(2) الصواعق المحرقة 2/ 440، لم أجد هذه الرواية في المصادر الحديثيَّة الموجودة بين أيدينا، إلّا أنّ مصادر الشيعة قد نقلت كلامه في ذلك اليوم، فقد روى الشيخ الطوسي في الأمالي 479 عن أمِّ سلمة: سمعت رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبض فيه يقول وقد امتلأت الحجرة من =

الثاني: إنّ الغرض من كتابة الكتاب قد انتفى بمجرّد هذا الرفض الذي واجهه منهم، فالهدف من الكتاب كان هو منع الاختلاف كما ورد في بعض طرق الحديث "لا يختلف فيه رجلان[1]"، ووقوع الخلاف في صاحب الكتاب وهو النبي ﷺ يفقد الكتاب قيمته، إذ أنّ الاتهام بأنّه يهجر يعني صدور الشيء عنه خارج إطار الوحي فيحتمل أن يدّعي مدّع فيما بعد أنّ هذا الحكم أو ذاك صدر منه في حالة غير طبيعيّة ويأتي آخر ويدّعي شيئا آخر وهكذا فيكون قد فتح باب يمكن من خلاله إسقاط كلّ الدين بسقوط المبلّغ وهو النبي ﷺ!

وهذا الجواب الذي ذكرناه هو عين ما أجاب به النبي ﷺ كما في لفظ الرواية في طبقات ابن سعد: اشتدّ بالنبي ﷺ وجعه فقال: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده أبدا، قال: فقال بعض من كان عنده: إنّ نبيّ الله ليهجر! قال: فقيل له ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: أو بعد ماذا؟[2]

الثالث: نقلت بعض المصادر أنّ النبي ﷺ قد كتب الكتاب

= أصحابه: أيّها الناس، يوشك أن أقبض قبضًا سريعًا فينطلق بي، وقد قدمت إليكم القول معذرة إليكم، ألا إنّي مخلّف فيكم كتاب الله ﷻ وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها فقال: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان بصيران لا يفترقان حتى يردا علي الحوض، فأسألهما ماذا خلفت فيهما.

(1) المعجم الكبير 11/ 30.

(2) الطبقات الكبرى 2/ 243.

بالفعل، فقد ذكر ابن حبَّان في كتاب الثقات: عن جابر أنَّ النبي ﷺ دعا بصحيفة عند موته فكتب لهم فيها شيئا لا يَضلُّون ولا يُضلُّون وكان في البيت لغط وتكلّم عمر فرفضها[1].

فهذا الخبر يعطينا تصوُّرا آخر عن الحادثة في غاية الخطورة، وهو أنّ هذا الرفض إنَّما كان لأجل ما كتب في هذا الكتاب، والذي تصدَّى لمعارضة ما كتب هو الصحابي عمر بن الخطاب، بل الذي يؤكِّد أنَّ الجميع قد علم بمضمون الكتاب هو ما ورد في بعض طرقه من أنَّ النبي ﷺ: "أوصى عند موته بثلاث[2]"، إذ إنَّ الجميع قد ذكر وصيّتين وهي إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد بالنحو الذي كان يجيزه النبي ﷺ، أمَّا الثالثة فقد اشترك الكلّ في عدم ذكرها: فمنهم من قال: "ونسيت الثالثة"[3]، ومنهم من كان أكثر مصداقيَّة فقال: "فإمَّا أن يكون سعيد سكت عن الثالثة عمدًا، وإمَّا أن يكون قالها فنسيتها"[4]، أي احتماليّة أن يكون الراوي قد أخفى هذه الجزئيَّة عمدا لحساسيَّتها!

وقد ذكرت المصادر الشيعيَّة أنَّ النبي ﷺ قد كتب الكِتَاب بعد خروج المعارضين وبقاء الخواص، فقد روى سليم بن قيس في كتابه عن علي بن أبي طالب : يا طلحة، ألست قد شهدت رسول الله ﷺ حين دعا بالكتف ليكتب فيها ما لا تضلُّ الأمَّة ولا تختلف، فقال

---

(1) الثقات 7/ 342.

(2) صحيح البخاري 4/ 31.

(3) صحيح البخاري 4/ 31.

(4) مصنّف عبد الرزاق 6/ 57.

صاحبك ما قال: "إنَّ نبي الله يهجر"، فغضب رسول الله ﷺ ثم تركها؟ قال: "بلى، قد شهدت ذاك"، قال: فإنَّكم لما خرجتم أخبرني بذلك رسول الله ﷺ وبالذي أراد أن يكتب فيها وأن يشهد عليها العامة، فأخبره جبرائيل أنّ الله عز وجل قد علم من الأمَّة الاختلاف والفرقة، ثمَّ دعا بصحيفة فأملى علي ما أراد أن يكتب في الكتف وأشهد على ذلك ثلاثة رهط: سلمان وأبا ذر والمقداد، وسمَّى من يكون من أئمَّة الهدى الذين أمر الله بطاعتهم إلى يوم القيامة[1].

والعجيب من بعض المصادر السنيَّة التي أوردت روايات تشير إلى أنَّ النبي ﷺ أراد أن يكتب كتابا بالخلافة لأبي بكر لكي لا يختلف فيه اثنان:

فقد روى الحاكم عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ ائتني بدواة وكتف أكتب لكم كتابا لن تضلُّوا بعده أبدا، ثم ولّانا قفاه ثم أقبل علينا فقال: يأبى الله والمؤمنون إلّا أبا بكر[2].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإنِّي أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر[3].

(1) كتاب سليم 211.

(2) المستدرك على الصحيحين 3/ 477.

(3) صحيح مسلم 7/ 110.

فكيف لم يسمع أحد بهذه الوصيَّة سوى ابني أبي بكر عائشة وعبد الرحمن دون بقيّة المسلمين؟

وهل من المعقول أن يكتب النبي ﷺ أو يصرِّح تصريحًا بهذه الخطورة ولا يُشهد عليه أحدا من الناس؟

كلُّ هذه التساؤلات تجعل الباحث يرجِّح كفَّة الرواية الشيعيّة التي تقول أنّ مضمون الكتاب متعلّق بالإمام علي ، وإلَّا لو كان الكتاب لأبي بكر فلماذا خالف عمر بن الخطاب؟

ولماذا يخشى الرواة التصريح بالوصيَّة الثالثة رغم أنَّها تحصيل حاصل؟

محاولات التبرير:

كما قد قرأت في الروايات السابقة فإنَّ قائد المعارضة كان عمر بن الخطَّاب، فهو الذي منع النبي ﷺ من كتابة الكتاب الذي كان ليعصم الأمَّة من الوقوع في الضلال، ومن هنا فإنَّ شرَّاح الحديث قد سعوا إلى تبرير هذا الفعل خصوصًا نسبة الهجر للنبي ﷺ:

وكانت المحاولة الأبرز هي محاولة النووي والتي تبنَّاها كلُّ من جاء بعده حيث قال: وأمَّا كلام عمر فقد اتَّفق العلماء المتكلِّمون في شرح الحديث على أنَّه من دلائل فقه عمر وفضائله ودقيق نظره، لأنّه خشي أن يكتب ﷺ أمورًا ربما عجزوا عنها واستحقُّوا العقوبة عليها لأنَّها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها، فقال عمر: "حسبنا كتاب الله" لقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ وقوله:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ فعلم أنَّ الله تعـالى أكمـل دينـه فـأمن الضلال على الأمة وأراد الترفيه على رسول الله ﷺ[1].

وربَّ عذر أقبح من ذنب: فإنّ هذا الكلام إقرار منه بـما قـدَّمنا سابقًا من أنَّ لازم هذا الفعل هو الاستغناء عـن النبـي ﷺ وعـدم الحاجة إلى أيِّ شيء من تشريعاته وتوجيهاته، ولذلك لم يقبلـوا منـه هذا الكتاب، وهذا ما التفت إليه ابن الجوزي إذ أنَّه ردَّ هذا الجواب ولم يقبله إلَّا أنَّه جاء بمصيبة أخرى أعظم من كـلِّ مـا تقـدَّم، قـال: وقوله: حسبكم كتاب الله: أي يكفيكم؛ قـال الخطـابي: إنَّـما ذهـب عمر إلى أنَّه لو نص بما يزيل الخلاف لبطلت فضيلة العلـماء، وعـدم الاجتهاد، قلـت: وهـذا غلـط مـن الخطـابي لـوجهين: **أحـدهما** أنَّ مضمونه أنَّ رأي عمر أجود من رأي رسول الله ﷺ، **والثاني** أنَّه لـو نصَّ على شيء أو أشياء لم يبطل الاجتهاد لأنَّ الحوادث أكثر مـن أن تحصر، وإنَّما خاف عمر أن يكون ما يكتبه في حالة غلبة المرض الذي لا يعقل معها القول، ولو تيقَّنوا أنَّه قال مع الإفاقة لبادروا إليه(2).

فهل يعقل أنَّ الصحابة لم يعلمـوا أنَّ النبـي ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾؟

وهل من المنطقي أنَّ الـصحابة هـم مـن يميِّـزون متـى يكـون كلامه ﷺ حجَّة ومتى لا يكون كذلك؟

(1) شرح صحيح مسلم 11/ 90.

(2) كشف المشكل 2/ 315.

إنَّ هذا الكلام هو طعن في أصل النبوَّة كما تقدَّم وفتح هذا الباب، ولو على سبيل الاحتمال سيسقط الدين من أساسه!

والذي أنصف من علماء أهل السنة والجماعة هو ابن حزم الظاهري حيث خطَّأ عمر بن الخطاب ومن كان معه فقال: هذه زلَّة العالم التي حذَّر منها الناس قديما، وقد كان في سابق علم الله تعالى أن يكون بيننا الاختلاف، وتضلُّ طائفة وتهتدي بهدى الله أخرى، فلذلك نطق عمر ومن وافقه بما نطقوا به، مما كان سببًا إلى حرمان الخير بالكتاب الذي لو كتبه لم يضلّ بعده، ولم يزل أمر هذا الحديث مهمًّا لنا وشجى في نفوسنا، وغصَّة نألم لها[1].

لكنَّ الحميَّة المذهبيَّة منعته من الوصول إلى الحقيقة كاملة فقال: وكنَّا على يقين من أنَّ الله تعالى لا يدع الكتاب الذي أراد نبيه ﷺ أن يكتبه، فلن يضلَّ بعده دون بيان، ليحيا من حيًا عن بيِّنة إلى أن من الله تعالى بأن أوجدناه فانجلت الكربة، والله المحمود وهو ما حدَّثناه عبد الله بن يوسف، ثنا أحمد بن فتح، ثنا عبد الوهاب بن عيسى، ثنا أحمد بن محمد، ثنا أحمد بن علي، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا عبيد الله بن سعيد، ثنا يزيد بن هارون، ثنا إبراهيم بن سعد، ثنا صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا، فإنِّي أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ ويقول قائل ويأبى الله والنبيون إلَّا أبا

(1) الإحكام 7/ 984.

بكر،...، إلى أن يقول:...فصحَّ أنَّ ذلك الكتاب كان في استخلاف أبي بكر لئلَّا يقع ضلال في الأمَّة بعده ﷺ[1].

ونحن نقول لابن حزم: لقد صار أبو بكر خليفة على المسلمين، واجتمع الناس عليه ورغم هذا فحال المسلمين من سيء إلى أسوأ، وليت الله يطلعك على أحوالنا اليوم لترى أين وصل بنا التشرذم والشقاق والفرقة، وتعلم خطأ هذا الاستنتاج الذي وصلت إليه.

ما بعد الخميس:

إنَّ ما حصل في يوم الخميس كان بمثابة إعلان عام لعزل النبي ﷺ، وإقصائه عن مسرح الأحداث تمامًا، ولذلك فإنَّ السلطة قد انتقلت عمليًّا إلى أبي بكر منذ ذلك اليوم، ومن هنا فإنّ الأحداث المتعلّقة بالنبي ﷺ ستكون داخل دائرة أهل بيته.

(1) الإحكام 7/ 985.

9

صويحبات يوسف

لا شكَّ أنَّ لإمامة الصلاة رمزيَّة كبيرة في الثقافة الإسلاميَّة، ولذلك كان لهذا المنصب بعد سياسي على مرِّ التاريخ خصوصًا في المساجد الكبيرة التي لها ارتباط بمركز القرار، ومن هذا المنطلق كانت قضيَّة نيابة إمامة الصلاة عن رسول الله ﷺ في أيَّام مرضه محلّ اهتمام بين المسلمين، إذ أنَّ قيام شخص بشغل هذا المنصب بأمر من رسول الله ﷺ هو بمثابة الإشارة لأهليَّته لكي يكون خليفة لرسول الله ﷺ.

أزمة التنصيب:

إنّ الأزمة التي كانت تواجه المتطلّعين للحكم هو وجود نصوص كثيرة من النبي ﷺ يمكن أن يستدلّ بها على أحقيَّة علي بن أبي طالب وأولويَّته[1]، ولذلك فإنَّ الأطراف التي كانت تتطلّع إلى هذا المنصب تفتقر لمثل هذه الإشارات النبويَّة الواردة في حق المنافس الأبرز.

هذا الأمر جعل الخطوة الأخيرة التي يحتاجها هذا الحزب هو الحصول على إشارة نبويَّة يمكن أن يرتكز عليها في إعطاء شرعيَّة لحكمه المترقِّب، وبالتالي لابدَّ من إيجاد شيء من هذا القبيل والتمسُّك به في الغد القريب، وقد وجدوا مبتغاهم في قضيّة الصلاة: فقد تقدَّم أبو بكر للصلاة في محراب رسول الله ﷺ وشاع بين الناس أنَّ الذي اختاره لهذه المهمَّة هو النبي ﷺ بنفسه، وفيما بعد أصبحت هذه الحادثة مرتكزًا للخلافة حيث اعتبرت نصًّا من رسول الله ﷺ وتولية عمليَّة لأبي بكر على المسلمين، بل كانت هذه المسألة حاضرة حتَّى في سقيفة بني ساعدة، ولذلك لا يخلو كتاب من كتب العقائد من ذكر هذه الحادثة والاستدلال بها على صحَّة الخلافة[2].

---

(1) قال أحمد بن حنبل وإسماعيل بن إسحاق القاضي: لم يُرو في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما روي في فضائل عليٍّ بن أبي طالب، وكذلك قال أحمد بن شعيب بن علي النسائي رحمه الله. (الاستيعاب 3/ 1115)

(2) ولهذا السبب فتح باب الوضع على مصراعيه واختلقت عشرات بل مئات الأحاديث الواردة في فضائل أبي بكر حتّى قال ابن الجوزي في =

على طاولة النقد:

بغضِّ النظر عن المناقشات الكلاميَّة والفقهيَّة لهذه الحادثة، فإنَّ الإثبات التاريخي لها مشكل جدًّا إذ أنَّ هذه القصَّة تعاني من اضطراب كبير في ألفاظها فلا يكاد يتَّفق راويان على نقل واحد:

الأمر الأوَّل: ذكرت بعض الروايات أنَّ التي أمرها رسول الله ﷺ بإبلاغ أبي بكر بأمر الصلاة هي عائشة، وهي التي وصفت أبا بكر بأنَّه رجل رقيق كثير البكاء، كما ورد في صحيح البخاري: عن أبي موسى، قال: مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت عائشة: إنَّه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس[1].

وفي مسند أحمد رواية أخرى تفصِّل الأمر: عن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنَّ أبا بكر رجل أسيف، وإنَّه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت: فقلت لحفصة قولي له، فقالت له حفصة: يا رسول الله إنَّ أبا بكر رجل أسيف، وأنَّه متى

= الموضوعات 1/ 304 تحت عنوان (باب في فضل أبي بكر الصديق): قد تعصَّب قوم لا خلاق لهم يدعون التمسك بالسنة فوضعوا لأبي بكر فضائل وفيهم من قصد معارضة الرافضة بما وضعت لعلي، وذكر العجلوني في كشف الخفاء 2/ 419، عبارة أبلغ حيث قال: وباب فضائل أبي بكر الصدِّيق أشهر المشهورات من الموضوعات.

(1) صحيح البخاري 1/ 165.

يقوم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر[1].

أمَّا الروايات الأخرى فتحدَّثت عن حصول الحادثة في مجلس رجال وأنَّ المخبر هو رجل آخر لا عائشة، فقد روى أحمد في المسند: عن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال: لما استعزَّ برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين، قال: دعا بلال للصلاة، فقال: مروا من يصلي بالناس، قال: فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبًا...[2].

وفي خبر آخر أخفي اسم المخبر، كما في رواية البخاري في عن الأسود قال: كنَّا عند عائشة فذكرنا المواظبة على الصلاة والتعظيم لها، قالت: لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأذّن، فقال: مروا أبا بكر فليصلّ بالناس، فقيل له: إنَّ أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له فأعاد الثالثة، فقال: إنَّكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالنّاس[3].

ولا ندري هل كان المجلس مجلس نساء لكي يستقيم القول المنسوب له ﷺ (إنَّكنَّ صواحب يوسف)، أو كان مجلس رجال بحيث يستقيم قول عبد الله بن زمعة (عنده في نفر من المسلمين)؟!

الأمر الثاني: نصَّت بعض الروايات على أنَّ القوم عرضوا على

(1) مسند أحمد 6/ 224.

(2) مسند أحمد 4/ 322.

(3) صحيح البخاري 1/ 162.

رسول الله أن لا يصلِّي أبا بكر بالناس لكونه كان رقيقًا وأسيفًا: فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن رسول الله ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، فقيل له: إنَّ أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له فأعاد الثالثة[1].

وفي خبر آخر، نجد أنَّ سبب عدم امتثال الأمر لأمر النبي ﷺ هو غياب أبي بكر، فقد روى أحمد في المسند: عن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال: لما استعزَّ برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين، قال: دعا بلال للصلاة، فقال: مروا من يصلي بالناس، قال: فخرجت فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائبا...[2].

الأمر الثالث: نجد في الروايات أنَّ النبي زجرهم، وأصرَّ على أن يصلِّي أبا بكر بالناس وقال الجملة المعروفة كما في لفظة البخاري: "مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس"[3]، ولذلك امتثل أبو بكر وصلَّى: "فخرج أبو بكر فصلَّى"[4].

لكن بعض الروايات ذكرت أنَّ عمر بن الخطاب قد قام وصلَّى بالناس بالفعل كما في رواية الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن زمعة:...فقلت: يا عمر، قم فصلِّ بالنَّاس، فقام فلمَّا كبَّر سمع

---

(1) صحيح البخاري 1/ 162.

(2) مسند أحمد 4/ 322.

(3) صحيح البخاري 1/ 162.

(4) صحيح البخاري 1/ 162.

رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلًا جهيرًا، فقال رسول الله ﷺ: فأين أبو بكر؟ يأبى الله والمسلمون ذلك، فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلَّى عمر تلك الصلاة، فصلَّى بالناس[1].

الأمر الرابع: هو أنَّ جملة الروايات ذكرت أنَّ أبا بكر صلَّى بالناس، وهي التي يُتمسَّك بها لإثبات النصِّ عليه، لكنَّها معارضة بروايات أخرى صحيحة صريحة في أنَّ أبا بكر لم يصلِّ بالناس:

فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة: فخرج أبو بكر فصلَّى فوجد النبي ﷺ من نفسه خفَّة، فخرج يهادى بين رجلين كأنِّي انظر رجليه يخطَّان الأرض من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر، فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك ثم أتى به حتى جلس إلى جنبه، فقيل للأعمش: وكان النبي ﷺ يصلِّي وأبو بكر يصلِّي بصلاته والناس يصلّون بصلاة أبي بكر، فقال برأسه: نعم[2].

وفي صحيح مسلم: وفى حديث ابن مسهر: ...فأتي برسول الله ﷺ حتى أجلس إلى جنبه، وكان النبي ﷺ يصلِّي بالناس وأبو بكر يسمعهم التكبير، وفي حديث عيسى: فجلس رسول الله ﷺ يصلي وأبو بكر إلى جنبه، وأبو بكر يسمع الناس[3].

فالرواية صريحة في أنَّ النبي ﷺ هو الذي أمّ القوم وليس أبو بكر كما يدَّعي القوم، بل الشيء الأهمُّ في هذه الرواية هو تصرّف

(1) المستدرك على الصحيحين 3/ 641.

(2) صحيح البخاري 1/ 162.

(3) صحيح مسلم 2/ 23.

النبي ﷺ عندما علم بأنَّ أبا بكر يصلِّي بالناس: فقد ورد في بعض طرق الحديث: "فلما دخل في الصلاة، وجد رسول الله ﷺ في نفسه خفَّة، فقام يهادى بين رجلين ورجلاه يخطَّان في الأرض حتَّى دخل المسجد[1]".

فبحسب علم مصطلح الحديث يطلق هذا الحديث "مضطرب"، إذ لا توجد فيه أيَّ جزئيَّة وقع اتفاق الرواة عليها، وبالتالي لا يمكن البناء على حادثة تاريخيَّة بمثل هذا الاضطراب.

العنصر النسوي:

لأوَّل مرّة يظهر العنصر النسوي على السطح ويكون عاملًا مؤثِّرا في طريقة سير الأحداث، فقد رأيت في الروايات المتقدّمة دور عائشة بنت أبي بكر وزوجة رسول الله ﷺ في قضيَّة الصلاة وكذلك بعض نسائه ﷺ، والأهمُّ من هذا هو الوصف النبوي لهنّ بأنَّهنَّ "صويحبات يوسف"، فإنَّ هذا التعبير النبوي يجعلنا نقف وقفة جادّة عند هذه النقطة، بل لعلّ المفتاح في فهم كلِّ الواقعة تتمحور عند هذه الإشارة النبويَّة.

فلو رجعنا إلى القرآن الكريم؛ فإنَّنا نجد أنّه ذمَّ صويحبات يوسف كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا

---

(1) صحيح البخاري 1/ 175.

وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ فقد نسب إليهنّ المكر والخديعة.

وفي آية آخرى قال عزَّ من قائل: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ فنسب إليهنَّ الكيد.

ومن هنا احتار كبار شرّاح الحديث في كيفيَّة توجيه هذا الخبر وحمله على محمل يليق بما يعتقدونه في نساء النبي ﷺ، ويكفينا ذكر توجيه ابن عبد البر الذي يعتبر أكثر من اقترب من الحقيقة في شرحه للحديث، قال: وأمّا قوله: "إنَّكن لأنتنَّ صواحب يوسف" فإنَّه أراد النساء وأنَّهن يسعين أبدا إلى صرف الحق واتباع الهوى، وأنَّهن لم يزلن فتنة يدعون إلى الباطل ويصدُّون عن الحقِّ في الأغلب، وقد روي في غير هذا الحديث في النساء هنَّ صواحب يوسف وداود وجريج، وقد قال ﷺ في النساء: "إنَّ منهنَّ مائلات عن الحقِّ مميلات لأزواجهن"، وقال: "ما تركت بعدي فتنة أضرُّ على الرجال من النساء"[1].

فكلامه صريح في أنِّ هذا التعبير يدلُّ على ذمٍّ للدور الذي لعبوه في هذه الحادثة، لكن انتماءه المذهبي أفسد كلَّ شيء حين ختم كلامه بقوله: "وخرج كلامه هذا منه ﷺ على جهة الغضب على أزواجه وهنَّ فاضلات وأراد جنس النساء غيرهن والله أعلم"[2]!

---

(1) الاستذكار 2/ 355.

(2) الاستذكار 2/ 355.

فإنَّه سعى للدفاع عن نساء النبي ﷺ والتملُّص من الذمّ الذي نسب إليهنَّ، لكن وقع في انتقاص النبي ﷺ ونسبة صدور خلاف الحقِّ منه في حالة الغضب، ناسيا أو متناسيًا أنَّه ﷺ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [1]!

الحقيقة بلسان المعتزلة:

نقل ابن أبي الحديد قراءة شيخه أبو يعقوب المعتزلي لهذه الحادثة بعد أن جمع بين ألفاظها المضطربة، قال: فلمَّا ثقل رسول الله ﷺ في مرضه، أنفذ جيش أسامة، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام المهاجرين والأنصار، فكان عليٌّ حينئذ بوصوله إلى الأمر - إن حدث برسول الله ﷺ حدث- أوثق وتغلّب على ظنِّه أنَّ المدينة لو مات لخلت من منازع ينازعه الأمر بالكلية، فيأخذه صفوًا عفوًا وتتمُّ له البيعة، فلا يتهيَّأ فسخها لو رام ضدَّ منازعته عليها، فكان من عود أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه، وإعلامه بأنَّ رسول الله ﷺ يموت - ما كان ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف، فنسب علي عائشة أنّها أمرت بلالًا مولى أبيها أن يأمره فليصلِّ بالناس، لأنَّ رسول الله كما روى، قال: "ليصلِّ بهم أحدهم" ولم

---

(1) إنَّ هذه الحادثة تظهر لنا أمرا آخرًا مهمًا وهو تجذُّر العداء بين عائشة وعلي بن أبي طالب ، فقد امتنعت أن تذكر اسمه في من حمل النبي ﷺ وخرج به إلى المسجد وقد عبّر ابن عبّاس عنها بقوله: لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع (تاريخ الطبري 2/ 433)، وفي رواية أخرى: ولكن عائشة لا تطيب لها نفسًا بخير (مصنف عبد الرزاق 5/ 430)، وهذا يدلُّ على عظم الشرخ القائم في البيت النبوي.

يعيِّن وكانت صلاة الصبح، فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رمق يتهادى بين علي والفضل بن العباس، حتَّى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثمَّ دخل فمات ارتفاع الضحى، فجعل يوم صلاته حجَّة في صرف الأمر إليه، وقال: أيّكم يطيب نفسًا أن يتقدّم قدمين قدمهما رسول الله في الصلاة؟ ولم يحملوا خروج رسول الله ﷺ إلى الصلاة لصرفه عنها، بل لمحافظته على الصلاة مهما أمكن، فبويع على هذه النكتة التي اتَّهمها علي على أنَّها ابتدأت منها، وكان علي يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيرًا، ويقول: إنَّه لم يقل ﷺ: "إنَّكن لصويحبات يوسف" إلَّا إنكارا لهذه الحال، وغضبا منها لأنَّها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما، وأنَّه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب فلم يجد ذلك، ولا أثر مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر، ويمهِّد له قاعدة الأمر وتقرَّر حاله في نفوس الناس، ومن اتبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار[1].

إنَّ الظاهر من كلِّ ما تقدَّم أنَّ النبي ﷺ امتنع عن الخروج للصلاة لشدَّة مرضه وكان من المفترض أن يتصدَّى أحد للقيام بهذا الدور كما هي العادة في حال غياب النبي ﷺ عن المدينة[2]، إلَّا أنَّ القوم أرادوا أن يستغلُّوا هذا الفراغ بالترويج لأبي بكر بحيث يحصل على شرعيَّة تخوِّل له الصعود إلى سدَّة الحكم في المستقبل

(1) شرح نهج البلاغة 9/ 196.

(2) كان دأب النبي ﷺ أن ينصِّب من يؤمّ الصلاة في حالة غيابه، فقد روى ابن حبَّان في صحيحه 5/ 506 بسند صحيح عن عائشة: أنّ النبي ﷺ استخلف ابن أم مكتوم يصلّي بالناس.

القريب، ولذلك أشاعوا أنَّ النبي ﷺ هو الذي نصَّبه لذلك وعيَّنه في هذا المنصب، والذي قام بهذا الدور الخطير عائشة زوجة النبي ﷺ بمساعدة بعض النساء بحيث انتشر الخبر في المدينة، إلَّا أنَّ النبي ﷺ قد أفسد كلَّ شيء لمَّا قام وهو في أسوأ أحواله ومنع أبا بكر من إمامة الصلاة وأمَّ الناس وهو على مشارف الموت!

ولذلك نجد تلاعبا بهذه الحقيقة فحاولوا إخفاء تنحية أبي بكر عن الصلاة: فقد روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك: أنَّ أبا بكر كان يصلِّي بهم في وجع النبي ﷺ الذي توفِّي فيه، حتّى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأنَّ وجهه ورقة مصحف، ثمَّ تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصفَّ، وظنَّ أنَّ النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتمُّوا صلاتكم وأرخى الستر فتوفِّي من يومه[1].

ماذا عن جيش أسامة؟

لا يمكن الفصل بين هذه الحادثة وبين ما تقدَّم من الحديث عن جيش أسامة، فقد تقدَّم أنَّ النبي ﷺ قد انتدب عامَّة المهاجرين للخروج في هذا الجيش وقد نصُّوا أنّ منهم أبا بكر وعمر، فمن المفترض أن يكونوا في هذا الحين قد عسكروا مع أسامة بالجرف[2]،

---

(1) صحيح البخاري 1/ 166.

(2) الجرف منطقة تبعد عن المسجد النبوي قرابة 7 كم، وكانت تعتبر ثكنة عسكريّة يتجمّع فيها الجيش وتنتقل منها الحملات.

لكن بقدرة قادر نجدهم في داخل المدينة بل بجانب رسول الله ﷺ!

وهذا الأمر جعل المؤرِّخين يضطربون في هذه المسألة ويحاولون تخريج هذا التعارض: ومن قال: إنَّ أبا بكر كان فيهم فقد غلط، فإنَّ رسول الله ﷺ اشتدَّ به المرض وجيش أسامة مخيِّم بالجرف، وقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلِّي بالناس كما سيأتي، فكيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من ربِّ العالمين؟ ولو فرض أنَّه قد انتدب معهم، فقد استثناه الشارع من بينهم بالنصِّ عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام[1].

فقد جعل ابن كثير أمر النبي ﷺ لأبي بكر بالصلاة هو ناسخ لأمره بخروجه مع الجيش، والحمد لله أنّه لم يخرج أحد من المناوئين لأبي بكر فذكر أنّ قول النبي ﷺ "مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس" مرفوض لأنَّ النبي ﷺ كان يهجر أو غلبه الوجع، واللبيب بالإشارة يفهم.

الحصول على الشرعيَّة:

إنَّ الخطوة الأخيرة للوصول إلى الحكم هو الحصول على الشرعيَّة الدينية من النبي ﷺ خصوصا وأنَّ المجتمع المدني قام على أحلاف دينيَّة لا قبليَّة، إلَّا أنَّ المهمَّ في هذا الفصل من القصَّة هو ظهور بعض زوجات النبي ﷺ كلاعب رئيسيٍّ على مسرح الأحداث بل كعامل مؤثِّر بقوَّة سيكون له دور رئيسي في المستقبل.

(1) البداية والنهاية 5/ 242.

10

لا تلدُّوني!

ذكرت كُتب التاريخ والحديث حدثًا غريبًا حصل في الأيّام الأخيرة لحياة النبي ﷺ، ولأهميَّة هذا الحدث نجد بعض كُتَّاب السير قد أرَّخوا لهذا الحدث[1]، ومن ها أفردنا له هذا الفصل لنقف على جميع حيثيَّاته، خصوصًا وأنَّ لهذا الحدث ارتباطًا وثيقًا بسبب وفاته ﷺ.

(1) مغازي الواقدي 3/ 1119.

ما هي قصَّة اللدِّ؟

اللدُّ[1] في اللغة هو جعل الدواء في فم المريض بغير اختياره إمَّا لكونه فاقدا للوعي أو لكراهته للدواء كما هو الحال بالنسبة للأطفال الذين يمتنعون عن أخذ الدواء خوفًا من مرارة مذاقه، وهذا الذي حصل مع رسول الله ﷺ حيث قامت زوجاته بلدِّه في مرض موته!

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: لددناه في مرضه فجعل يشير إلينا أن لا تلدُّوني، فقلنا كراهية المريض للدواء، فلمَّا أفاق، قال: ألم أنهكم أن تلدُّوني؟ قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد في البيت إلَّا لدَّ وأنا أنظر إلَّا العباس فإنَّه لم يشهدكم[2].

وقد روى أحمد بن حنبل الرواية كاملة عن عروة بن الزبير: أنَّ عائشة قالت له: يا ابن أختي، لقد رأيت من تعظيم رسول الله ﷺ عمِّه أمرا عجيبًا وذلك أنَّ رسول الله ﷺ كانت تأخذه الخاصرة فيشتدُّ به جدًّا فكنَّا نقول أخذ رسول الله ﷺ عرق الكلية لا نهتدي أن نقول الخاصرة، ثم أخذت رسول الله ﷺ يومًا فاشتدَّت به جدًّا

---

(1) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم 14/ 199: قال أهل اللغة اللدود بفتح اللام هو الدواء الذي يصبُّ في أحد جانبي فم المريض ويسقا أو يدخل هناك بأصبع وغيرها ويحنَّك به.

(2) صحيح البخاري 5/ 143.

حتّى أغمي عليه وخفنا عليه وفزع الناس إليه فظننّا أنَّ به ذات الجنب فلددناه، ثم سري عن رسول الله ﷺ وأفاق فعرف أنّه قد لدَّ ووجد أثر اللدود، فقال: ظننتم أنَّ الله عزَّ وجل سلَّطها عليّ؟ ما كان الله يسلِّطها عليّ، والذي نفسي بيده لا يبقى في البيت أحد إلّا لدَّ، فرأيتهم يلدُّونهم رجلًا رجلًا، قالت عائشة: ومن في البيت يومئذ فتذكَّر فضلهم، فلدَّ الرجال أجمعون وبلغ اللدود أزواج النبي ﷺ فلددن امرأة امرأة حتى بلغ اللدود امرأة منّا – قال ابن أبي الزناد: لا أعلمها إلّا ميمونة– قال: وقال بعض الناس أم سلمة قالت: إنِّي والله صائمة، فقلنا: بئسما ظننت أن نتركك وقد أقسم رسول الله ﷺ، فلددناها والله يا ابن أختي وإنّها لصائمة[1].

قد تكون الحادثة للوهلة الأولى أمرًا طبيعيًّا يحصل لكلِّ مريض لكن بالنظر الدقيق في هذه الرواية وبتتبُّع اختلاف طرقها وتغاير ألفاظها ستتغيَّر هذه النظرة قطعًا وستطرح هذه الأسئلة:

ما هو مرض رسول الله ﷺ ؟

ممَّا أجمع عليه المؤرِّخون أنّه ﷺ مات بسبب مرض أصابه، لكنَّ السؤال المهمّ الذي يجب فعلًا طرحه هو: ماهو المرض الذي أصابه تحديدًا؟ وما هو سببه؟

إنَّ حديث اللدِّ يشير إلى أنّه مصاب بداء ذات الجنب " فظننَّا أنَّ

(1) مسند أحمد 6/ 118.

به ذات الجنب فلددناه[1]"، والدواء الذي لـدّه النبـي ﷺ هـو دواء لخصوص هذا المرض، إلَّا أنّنا نجد في نفس الخبر إنكارا واضحا من النبي ﷺ على من ينسب إليه هذا المرض كما في روايـة مـسند أحمـد "ظننتم أنَّ الله ﷻ سلَّطها علي؟ ما كـان الله يـسلِّطها عـلي[2]"، وفي مصدر آخر: "ما كان الله ليجعل لها عليّ، سلطانًا إنّ ذات الجنب من الشيطان[3]" وغيرها من الألفاظ المختلفة، لكنَّ العجيب أنَّ عائشة بنت أبي بكر كانت مصرَّة على أنَّه مات بهذا المرض، وقد روى عنها الحاكم النيسابوري: مات رسول الله ﷺ من ذات الجنب[4].

والذي يزيد العجب أنَّها روت عن النبي ﷺ أنَّه قال في مرضـه الذي مات فيه: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[5].

فهي إذن تحدَّث تارة أنَّ النبي ﷺ مات من ذات الجنـب رغـم نفيه ﷺ أنَّ هذا الأمر يصيبه، وتارة أخرى تحدِّث أنَّه مات من سـمِّ خيبر الذي كان في السنة السابعة من الهجرة، فلماذا لازالت متمسِّكة بأنَّ فيه هذا البلاء؟ بل حتَّى في نفس قضيَّة اللدِّ: إذا كـان النبـي ﷺ

---

(1) مسند أحمد 6/ 118.

(2) مسند أحمد 6/ 118.

(3) سبل الهدى والرشاد 12/ 228.

(4) المستدرك 4/ 405.

(5) صحيح البخاري 5/ 137.

قد أخبرها بعلّته وأنّها سبب مرضه وموته فكيف تعتقد أنَّ بـه ذات الجنب؟!

والظاهر أنَّ هناك بوقًا إعلاميَّة قد عمدت لنشر هذه الشائعة في أوساط المجتمع الإسلامي لغاية في نفس يعقـوب، فقـد روى ابـن سعد في طبقاته: دخلت أم بشر بن البراء على النبـي ﷺ في مرضـه، فقالت: يا رسول الله، ما وجدت مثل هذه الحمَّى التي عليـك عـلى أحد، فقال النبي ﷺ لها: يضـــاعف لنـا الـبلاء كـما يـضاعف لنـا الأجر، ما يقول الناس؟ قالت: قلت: يقولون به ذات الجنب، فقال رسول الله ﷺ ما كـان الله ليـسلِّطها عـلى رسـوله، إنَّهـا همـزة مـن الشيطان[1].

إنَّ هذه الأسئلة تجعلنا نرتاب في هـذه الأحاديـث التـي تـذكر سبب وفاة رسول الله ﷺ، والذي يزيدنا حيرة وارتيابًـا في مجريـات الأحداث ما ورد عن عبد الله بن مسعود من قوله: لئن أحلف بـالله تسعًا أنّ رسول الله ﷺ قتل قتلًا أحـبُّ إلي مـن أن أحلـف واحـدة وذلك بأنَّ الله عز وجل اتخذه نبيًّا وجعله شهيدًا[2]!

فهل هناك من ينفي كون النبي ﷺ قد قتل قتلًا وجعـل وفاتـه طبيعيَّة؟

(1) الطبقات الكبرى 2/ 236.

(2) مسند أحمد 1/ 381.

وماهي علاقة هؤلاء بعائشة التي روَّجت لموته بذات الجنب؟[1]

وهل لحديث اللدِّ علاقة بالموضوع؟

لماذا رفض أن يلدَّ؟

إنَّ الأمر المهمّ في حديث اللدِّ هو رفض النبي ﷺ لهذا الأمر مسبقا وعدم قبوله ذلك كما نُصّ عليه صريحًا في خبر البخاري: "فجعل يشير إلينا أن لا تلدُّوني[2]"، فاللدُّ هو أن يسقى المريض دواء لا أكثر ولا أقل، فلماذا هذا الرفض؟

ذكرت عائشة مُبَرِّرين:

الأوّل: "كراهية المريض للدواء[3]"، وهذا التبرير هو مسيء بالدرجة الأولى للنبي ﷺ إذ أنَّه محتمل في حقِّ الطفل الصغير الذي

(1) ذات الجنب: هي الدبيلة والدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وتنفجر إلى داخل، وقلَّما يسلم صاحبها، وذو الجنب الذي يشتكي جنبه بسبب الدبيلة (النهاية في غريب الحديث والأثر 1/ 304) ولعلَّ هذا التعريف كاف لمعرفة سبب إصرار القوم على إشاعة إصابة رسول الله ﷺ بهذا المرض، إذ أنَّه مسمَّى آخر للدبيلة التي أبحت علامة يعرف بها أهل النفاق كما تقدَّم في البحوث السابقة، وموت النبي ﷺ بها من شأنه أن يخلط الأوراق ويشوِّش على الناس في مدى فاعليَّة هذه العلامة ودلالتها على أهل النفاق، فتأمَّل.

(2) صحيح البخاري 5/ 143.

(3) صحيح البخاري 5/ 143.

ينفر من مرارة الدواء فيتجنَّبه، أمَّا إذا كان الحديث عن رجل تجاوز الستين من عمره وحاكم لدولة مترامية الأطراف وفوق كلُّ هذا نبي من أنبياء الله فهذا لا يمكن تصديقه بأيِّ حال من الأحوال!

الثاني: أنَّه كان ﷺ صائما كما ورد في السيرة الحلبيَّة التي ورد فيها: "فإنكم لددتموني وأنا صائم[1]"، وهذا التبرير غير مقبول أيضا فإنَّ الذي يفسد صوم الصائم هو الأكل والشرب عمدا أمَّا لو سقي شيئًا وهو غير مختار كأن يكون نائما أو في حالة إغماء فإنَّ صومه صحيح بإجماع فقهاء المسلمين، وهذه الرواية تقول أنَّه ﷺ لُدَّ وهو في حالة إغماء، فكيف يغضب النبي لهذا؟ خصوصًا أنَّه صوم مستحبٌّ لا واجب ويمكن للإنسان أن يعرض عنه ويفطر في أيِّ وقت!

إذن ما ورد من تبرير لرفضه الدواء هو غير مقبول عقلًا وشرعًا ومنطقًا، وعليه فلابدَّ من وجود سبب ثالث جعل النبي ﷺ يمتنع عن ذلك، ونحن لا نريد استباق الأحداث وجعل احتمالات كالحديث عن خوفه من محاولة اغتياله بالسمِّ، لكن الجدير بالذكر هو ما هو الداعي لذكر عائشة بنت أبي بكر لهذه المبرّرات مع أنَّها باطلة بالضرورة؟ ولماذا تحاول أن تدافع عن قضيَّة اللدِّ؟!

(1) السيرة الحلبيّة 3/ 471.

هل كان يثق في زوجاته؟

الأغرب ممَّا تقدَّم هو ردَّة فعل النبي ﷺ بعد استيقاظه من غشوته، حيث أنّه وجّه عتابًا شديدًا لنسائه اللواتي لددنه، وأمر بلدِّهنَّ جميعًا باستثناء عمِّه العبَّاس بن عبد المطلب كما في الخبر المتقدِّم: فقال: لا يبقى أحد في البيت إلَّا لدَّ وأنا أنظر إلَّا العباس فإنّه لم يشهدكم[1].

بل من يقرأ بعض ألفاظ هذه الحادثة يقف على شدَّة في تعامل النبي ﷺ مع من لدَّه بحيث أمر كلَّ من حضر الواقعة بأن يلدَّ حتَّى أنَّ بعض زوجاته أجبرن على شرب الدواء وهنَّ صائمات:" فلددناها والله يا ابن أختي وإنَّها لصائمة"[2]، فما هو سبب هذا التصرُّف الصارم من النبي ﷺ تجاه من يريد به الخير ويتمنَّى له الصحة والعافية؟! فهل الذي كان يسامح أعدى أعدائه ويتجاوز عنهم رغم فظاعة ما صنعوه حتَّى قال في فتح مكَّة "لا تثريب عليكم اليوم" يمكن أن يتعامل مع زوجاته بهذه الصورة؟!

والنقطة المثيرة للاهتمام فعلًا هي استثناء العبَّاس من شرب الدواء دون غيره من الذين شهدوا الواقعة، فكلُّ من شهد الواقعة أجبر على شرب الدواء سوى العبَّاس عمُّ رسول الله ﷺ، وهذا

---

(1) صحيح البخاري 5/ 143.

(2) مسند أحمد 6/ 118.

الاستثناء له دلالات خطيرة ويكفيك إثباتًا لذلك اضطراب عائشة في تعليله:

فقد أرجعت في بعض الروايات سبب الاستثناء إلى أنَّ العبَّاس لم يشهد اللدَّ، إذ قالت: لا يبقى أحد في البيت إلَّا لدَّ وأنا أنظر إلَّا العباس فإنَّه لم يشهدكم[1]؛ والحال أنَّها قد أثبتت في مورد أنَّ العباس شهد اللدَّ بل كان هو صاحب الفكرة وهو المنفِّذ، فقد روى البيهقي بسنده عن عائشة: ثم تمادى برسول الله ﷺ وجعه فاستقرَّ برسول الله ﷺ وهو يدور على نسائه في بيت ميمونة فاجتمع إليه أهله، فقال العباس: إنَّا لنرى برسول الله ﷺ ذات الجنب فهلمُّوا فلنلدَّه فلدُّوه[2].

وفي مورد آخر، علَّلت استثناء رسول الله ﷺ العبَّاس بكونه من باب التعظيم والتبجيل، فهي التي بدأت حديثها كما في رواية مسند أحمد بقولها: لقد رأيت من تعظيم رسول الله ﷺ عمَّه أمرًا عجيبًا[3].

وإذا أضفنا هذا النص الخطير الذي ترويه عائشة: أنَّ النبي ﷺ قال بعد ما دخل بيته واشتدَّ وجعه: "هريقوا على من سبع قرب لم

---

(1) صحيح البخاري 5/ 143.

(2) دلائل النبوة 7/ 169.

(3) مسند أحمد 6/ 118.

تحلل أوكيتهن"[1]؛ أي قرب ماء مغلقة بإحكام، فإنَّنا نكون أمام معضلة حقيقيَّة تحتاج إلى حلٍّ:

لماذا يرفض النبي ﷺ الدواء من نسائه؟

ولماذا يسقي الجميع من الدواء الذي سُقي منه؟

ولماذا يرفض أن يصبّ عليه ماء من قربة مفتوحة الأوكية؟

كلُّ هذه المعطيات تفرض علينا طرح هذا السؤال الحسَّاس جدًّا: هل كان النبي ﷺ يثق في زوجاته؟ أو كان يستريب في بعضهن على الأقل؟

من الذي باشر اللدَّ؟

العجيب في حديث اللدِّ محاولة التعمية على الفاعل وجعل المشهد يبدو ضبابيًّا جدًّا، فعمليَّة اللدِّ يقوم بها عادة واحد فقط، فهي مجرَّد وضع دواء في فم المريض، والحال أنَّ لسان حديث اللدِّ يشير إلى أنَّ الجميع قد اشترك في هذه العمليَّة فقد عبَّرت عائشة:

---

(1) صحيح البخاري 1/ 57؛ وقد حاول الشرَّاح توجيه هذا الخبر، فقال القسطلاني في شرحه على البخاري 1/ 275: "والحكمة في عدم حلِّ الأوكية لكونه أبلغ في طهارة الماء وصفائه لعدم مخالطة الأيادي"؛ ولا أدري من أين فهم هذا؟ المعنى وما الدليل عليه؟ فلو كان الأمر مجرَّد طهارة وصفاء لكفى النبي ﷺ أن يأمر بعدم الاقتراب من قرب الماء فيحصل الغرض.

بـ"لددنا"، والمثير أنَّها نقلت أنَّ النساء قد نسبن هذا الفعل للعبَّاس بن عبد المطلب رغم أنَّه لم يكن حاضرًا كما حدَّثت هي بنفسها في مورد آخر!

وقد حاولت بعض المصادر التاريخيَّة تعيين اللادَّ، فألصقت بعضها التهمة بالعباس بن عبد المطلب "فأخذ العباس يلدده[1]"، ومرَّة بأسماء بنت عميس: "فلددوه أي لددته أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها[2]"، ومرَّة ألحقوا بأسماء أمّ سلمة: "كانت أم سلمة وأسماء بنت عميس[3]"، هما لدتاه ومرَّة أخرى الحديث عن عدد كبير من الحضور: "فرأيتهم يلدُّونهم رجلًا رجلًا[4]"، وبهذا لا يمكن للباحث تحديد الفاعل على التعيين أمام هذا الاختلاف الشديد.

وهنا لا بدَّ لنا من السؤال حول سبب هذا الاضطراب الكبير في الرواية والاختلاف في تحديد الفاعل، فالذي رويت عنه قضية اللدِّ هو شخص واحد وهي عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي ﷺ وهي التي كانت قريبة جدًّا من مسرح الأحداث، فلا ندري لماذا لم تنقل القضيَّة بدقَّة وتخبر الجميع بمن لدَّ رسول الله؟!

---

(1) السيرة الحلبية 3/ 471.

(2) السيرة الحلبية 3/ 471.

(3) الطبقات الكبرى 2/ 236.

(4) مسند أحمد 6/ 118.

بل حتَّى في يوم اللـدِّ نجـد هـذا التعتـيم موجـودًا، إذ أنَّ كـلَّ الروايات تشير إلى أنَّ المجتمعين عند النبي ﷺ قـد وجّهـوا أصـابع الاتهام إلى العباس بن عبد المطلب ولم يـصرِّحوا بمـن هـو الفاعـل الحقيقي ولذلك لدَّ النبي ﷺ كلَّ من كان في ذلك البيت!

هل مات مسموما؟!

لو جمعنا كلَّ المعطيات السابقة فإنَّنا نقف على حقيقة خطيرة وهي: احتماليَّة أن يكون النبي ﷺ قد قُتِلَ ولم يمت موتًا طبيعيًّا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الاحتمالية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ فلم يستبعد هذا الأمر وجعله أمرًا محتمل الوقوع.

نحن لا نجازف إذا قلنا أنَّ قضية مقتله أمر مسلَّم الوقـوع بـلا ريب ولا شكَّ عند كلِّ المسلمين، بـل مـن المـسلَّم أيـضا أنَّـه مـات مسموما لكنَّ نزاعنا الآن في من الذي قتله ومـا هـو الـدافع لـذلك القتل؟ نعم لا شكَّ أنَّ اليهود لهم دور في سمِّه كـما في قـضيَّة خيـبر المرويَّة عند المسلمين كافَّة لكن أليس من المحتمل أن يكون تعـرَّض لقضيَّة سمٍّ ثانية؟!

إنَّ حادثة اللدِّ مع المعطيات المختلفة التي ذكرناها لا يمكن أن تفسَّر إلَّا في إطار خوف النبي ﷺ من تعرُّضه لعمليَّة اغتيال من الداخل لا سيما من العنصر النسوي، وهذا ما يرجعنا إلى نقطة

البداية وهي غزوة تبوك من أنَّ العدوَّ الحقيقي هو داخلي لا خارجي، بل إنَّ هذه القراءة تمكِّننا من فهم قضايا كثيرة غامضة في الشأن الإسلامي كالوعيد الشديد الوارد في سورة التحريم لبعض نسائه، كقوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (1) وقوله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ ، إذ ليس من المعقول أن ينزِّل الله سورة تحوي كلَّ هذا الوعيد والتقريع لمجرَّد كلمة صدرت من امرأةٍ في حال غيرتها على زوجها[2]!

لماذا حدَّثت به عائشة؟

لا يمكن أن نختم هذا الفصل دون التعرُّض سؤال مهمٍّ وهو:

---

(1) لَّما واجه النبي ﷺ كفَّار قريش في أوَّل معركة بين الطرفين "غزوة بدر" والتي كانت مواجهة مصيريَّة أنزل الله مددًا سماويًّا لمؤازرة النبي ﷺ فقال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾، أمَّا في هذه المواجهة مع نسائه فقد حشد الله كلَّ الملائكة، بل جعل ذاته المقدَّسة على رأس قائمة المساندين لنبيِّه ﷺ في هذه المواجهة التي لا تقلُّ خطورة عن غزوة بدر.

(2) روت كتب التفسير عِدَّة روايات مفادها أنّ هذه السورة قد نزلت في عائشة وحفصة حينما قالتا للنبي ﷺ: نجد فيك رائحة المغافير، وقد برُّروا صنيعهم بأنَّ مثل هذه الأمور من غيرة النساء.

لماذا حدَّثت عائشة بقضيَّة اللدِّ؟ ولماذا كرَّرت التحديث بها كما يظهر من عدد الرواة الذين نقلوها عنها؟ وهل ينسجم تحديثها بهذا الخبر مع النتيجة التي وصلنا لها؟

يمكن الإجابة بأنَّ قضيَّة مقتله مسمومًا ﷺ قد انتشرت بين الناس وشاعت فيما بعد، خصوصًا مع وجود مروِّجين لهذه الفكرة مثل عبد الله بن مسعود وغيره ممَّا جعل السؤال عن القاتل يُطرح بقوَّة، خصوصًا مع صعوبة تصديق العقل موته بسمٍّ يهودية خيبر في الظروف الاعتياديّة، وبالتالي فإنَّ من يمكن أن تدور حوله الشبهة سيسعى إلى تبرئة نفسه أمام من يسأل مثل هذه الأسئلة، فما كان منها إلَّا أن أكثرت من الحديث عن قضيَّة اللدِّ وأظهرت الأمر بصورة تمنع من اعتقاد أنّ ما لدَّ به النبي ﷺ هو سمٌّ، لأنَّه لو كان كذلك لمات من شَرَبَه بعده من الحضور.

11

اللحظات الأخيرة

دخل النبي ﷺ حالة الاحتضار، وبدأ العدُّ التنازلي لارتحاله إلى الرفيق الأعلى، وقد فصَّلت كتب التاريخ والحديث أحداث الاحتضار بدقَّة، وذكرت كلَّ كبيرة وصغيرة حول هذه اللحظات الأخيرة التي عاشها النبي ﷺ، لكنَّ المصيبة أنَّ هذا التفصيل – غير المعتاد- كان لأغراض أخرى سياسيَّة بالدرجة الأولى!

والذي يهمُّنا في هذا الفصل هو البحث في مكان احتضاره ﷺ:

الرواية الحكومية:

من يقرأ الروايات التي تتحدَّث عن احتضاره ﷺ يجد فيها تركيزًا على أنَّ مرضه وموته كان في بيت عائشة بنت أبي بكر، بل التركيز على أنَّها كانت آخر شخص رآه النبي ﷺ وتحدَّث معه:

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة أنَّها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتعذَّر في مرضه "أين أنا اليوم؟ أين أنا غدًا؟" - استبطاء ليوم عائشة- فلمَّا كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري ودفن في بيتي(1).

وفي رواية أخرى قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستنّ به، فأبده رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقصمته ونفضته وطيَّبته ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استنانًا قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: في الرفيق الأعلى ثلاثًا، ثم قضى، وكانت تقول: مات ورأسه بين حاقنتي وذاقنتي(2).

عائشة مرَّة أخرى:

إنَّ الحديث المتقدِّم هو من روايات عائشة بنت أبي بكر فلم ينقل عن غيرها، وهذا ما يجعلنا أمام نقطة استفهام كبيرة جدًّا، إذ

---

(1) صحيح البخاري 2/ 106.

(2) صحيح البخاري 5/ 139.

كيف تنفرد إمرأة بنقل حدث بهذه الأهميَّة خصوصًا مع توفُّر الداعي لنقله وعدم وجود المانع، فكلُّ الصحابة يعرفون أين كان يمرَّض رسول الله فلماذا لم ينقل عن أحد منهم التحديث بذلك؟

والأهمُّ من هذا وجود تيَّار رافض لهذه القصَّة: فقد روى ابن سعد بسنده عن أبي غطفان قال: سألت ابن عباس أرأيت رسول الله ﷺ توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفي وهو لمستند إلى صدر علي، قلت: فإنَّ عروة حدَّثني عن عائشة أنَّها قالت توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري! فقال ابن عباس: أتعقل؟ والله لتوفي رسول الله ﷺ وإنَّه لمستند إلى صدر علي، وهو الذي غسَّله وأخي الفضل بن عباس وأبى أبي أن يحضر وقال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نستتر فكان عند الستر[1].

فهذا الحديث يثبت وجود تشكيك مبكِّر بين الناس في الرواية الحكوميَّة لهذه الحادثة وهو الذي استدعى سؤال بني هاشم عصبة النبي ﷺ عن الأمر، والذي ينبؤك بحساسيَّة الموضوع طريقة ردِّ عبد الله بن عباس التي فيها نوع من الشدَّة على هذا السائل، بل وإقامة الدليل على كذب الرواية الحكوميَّة المنتشرة بين الناس، وهذا ما يجعلنا نتأكَّد من أنَّ إشاعة هذه الرواية بين الناس كانت لأغراض سياسيَّة بحتة كما سيأتيك.

---

(1) الطبقات الكبرى 2/ 263.

آثار الكذبة:

عندما تقرأ في روايات تمريض النبي ﷺ في بيت عائشة تجد آثار الكذب واضحة وجليَّة، في الرواية التي قدَّمناها نجد أنَّ موته في بيت عائشة كان محض مصادفة ولم يكن بترتيب مسبق: إن كان رسول الله ﷺ ليتعذَّر في مرضه "أين أنا اليوم؟ أين أنا غدًا؟" - استبطاء ليوم عائشة- فلمَّا كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري ودفن في بيتي[1].

لكن في رواية أخرى نجد عائشة تصرَّح أنَّ النبي ﷺ هو الذي يختار أن يمرَّض في بيت عائشة واستأذن بقيَّة نسائه لذلك: لَّما ثقل النبي ﷺ واشتدَّ به وجعه استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي، فأذن له فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخطُّ رجلاه في الأرض بين عباس ورجل آخر[2].

وحتى روايات الاستئذان فيها اختلاف: فهذه الرواية نقلت أنَّه جاء إلى بيتها وهو محمول على رجلين ورجلاه تخطَّان الأرض، في حين أنَّها نقلت صورة ثانية لدخوله ﷺ إلى بيتها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ ببابي ممَّا يلقى الكلمة ينفع الله عز وجل بها، فمرَّ ذات يوم فلم يقل شيئا ثم مرَّ أيضا فلم يقل شيئا مرتين أو ثلاثا، قلت: يا جارية ضعي لي وسادة على الباب وعصَّبت رأسي، فمرَّ بي فقال: يا عائشة ما شأنك؟ فقلت: أشتكي رأسي، فقال: أنا

---

(1) صحيح البخاري 2/ 106.

(2) صحيح البخاري 1/ 57.

وا رأساه، فذهب فلم يلبث إلَّا يسيرًا حتى جيء به محمولًا في كساء، فدخل علي وبعث إلى النساء، فقال: إنِّي قد اشتكيت وإنِّي لا أستطيع أن أدور بينكنَّ، فائذن لي فلأكن عند عائشة أو صفيَّة ولم أمرض أحدًا قبله[1].

وهذا الاضطراب يجعلنا نشكِّك في أصل الحادثة خصوصًا مع ما مرَّ عليك من وجود تكذيب صريح من ابن عبَّاس بهذه الرواية، وما سيأتيك من وجود رواية آخرى اجتهد المؤرِّخون وكتَّاب السير في طمسها وتغييبها عن الواقع التاريخي.

رواية أخرى:

هناك رواية أخرى مضادَّة لهذه الرواية نقلت في كتاب التاريخ عن مجموعة من الصحابة، وهي أنَّ النبي ﷺ قد احتضر عند علي وابنته فاطمة وأنَّ الذين شهدوا لحظاته الأخيرة هم خصوص أهل بيته لا عائشة كما في الخبر المتقدِّم.

والمهمُّ في هذه الرواية أنَّه لم ينفرد بها أحد:

فقد رويت مسندة عن آل علي: قال رسول الله ﷺ في مرضه "ادعوا لي أخي" قال: فدعي له علي، فقال: "ادن منِّي" فدنوت منه فاستند إلي، فلم يزل مستندا وإنَّه ليكلِّمني حتَّى إنَّ بعض ريق النبي ﷺ ليصيبني، ثم نزل برسول الله ﷺ وثقل في حجري فصحت: يا

(1) مسند أحمد 6/ 219.

عباس أدركني فإنّي هالك، فجاء العباس فكان جهدهما جميعًا أن أضجعاه[1].

ورويت عن أمّ سلمة زوجة رسول الله ﷺ أنّها قالت: والذي أحلف به، إن كان علي لأقرب الناس عهدًا برسول الله ﷺ، عُدنا رسول الله ﷺ غداة وهو يقول: "جاء علي، جاء علي" مرارًا، فقالت فاطمة: كأنّك بعثته في حاجة؟ قالت: فجاء بعد، قالت أم سلمة: فظننت أنَّ له إليه حاجة فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، وكنت من أدناهم إلى الباب، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ وجعل يسارَّه ويناجيه، ثم قبض رسول الله ﷺ من يومه ذلك فكان علي أقرب الناس عهدًا[2].

ورويت عن جابر الأنصاري: أنَّ كعب الأحبار قام زمن عمر، فقال ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين: ما كان آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: سل عليًّا، قال: أين هو؟ قال: هو هنا، فسأله فقال علي: أسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال "الصلاة الصلاة"، فقال كعب" كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أمروا وعليه يبعثون، قال: فمن غسَّله يا أمير المؤمنين؟ قال: سل عليًّا،

---

(1) الطبقات الكبرى 2/ 263.

(2) المستدرك على الصحيحين 3/ 138؛ وقد صحَّحها الحاكم ووافقه الذهبي في تصحيحه، وقسم أم سلمة في صدر الرواية مشعر بوجود رواية أخرى منتشرة بين الناس تسعى أمُّ سلمة إلى تكذيبها.

قال: فسأله فقال: كنت أغسِّله وكان العباس جالسًا و كان أسامة وشقران يختلفان إليَّ بالماء[1].

بل اعترف بهذه الحقيقة الشعبي المحسوب على التيار المناهض للبيت العلوي[2]، قال: توفي رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي وغسله علي والفضل محتضنه وأسامة يناول الفضل الماء[3].

وهي صريحة في أنَّ آخر من شهد النبي ﷺ هو علي بن أبي طالب بل هو الذي تولَّى أمر تغسيله وتجهيزه كما سيأتينا لاحقًا، وهذه الحقيقة التاريخيَّة قد رواها بنو هاشم بالإضافة لجابر بن عبد الله الأنصاري وأم سلمة وإقرار عمر بن الخطاب بذلك كما في النصِّ المتقدِّم.

---

(1) الطبقات الكبرى 2/ 263.

(2) عامر بن شراحيل الشعبي تابعي ولد في فترة حكم عمر بن الخطاب، ومن أعجب ما نقل عنه ما نقله إسماعيل بن أبي خالد حيث قال: سمعت الشعبي يحلف بالله عزَّ وجل لقد دخل عليٌّ حفرته وما حفظ القرآن (تأويل مشكل القرآن 233)؛ وذكر الحاكم النيسابوري كلامًا خطيرًا عن الشعبي حيث قال: وممَّا حملني على تحرير هذه الرسالة، أن حضرت مجلسًا حضره أعيان الفقهاء والقضاة والأمناء من المزكِّين وغيرهم، وجرى بحضرتهم ذكر أمير المؤمنين ، فانتدب له عين من أعيان الفقهاء فقال: كان عليٌّ لا يحفظ القرآن، وهذا الشعبي قد نصَّ عليه، إلى أن يقول: إنَّ الشعبي لم يسمع منه - أي من أمير المؤمنين - إنَّما رآه رؤية، ثمَّ ظهر ميله إلى أعدائه طمعًا في الدنيا. (فضائل فاطمة الزهراء 20).

(3) الطبقات الكبرى 2/ 263.

السياق التاريخي للحادثة:

لا شكَّ أنَّ الإصرار على مثل هذه الجزئيَّة ومحاولة ترسيخها كحقيقة تاريخيَّة مهمٌّ جدًّا لهذه الجماعة، فهذه القضيَّة مرتبطة ارتباطا وثيقا بقضيَّة الخلافة والإمامة، والرابط بين الأمرين حديث روي عن عائشة أيضا أخرجه البخاري في صحيحه، قال: ذكروا عند عائشة أنَّ عليًّا كان وصيًّا، فقالت: متى أوصى إليه وقد كنت مسندته إلى صدري؟ أو قالت: حجري، فدعا بالطست فلقد انخنث في حجري فما شعرت أنَّه قد مات فمتى أوصى إليه؟[1]

إذن السبب في محاولة طمس الواقعة هو دفع ما شاع بين الناس من أنَّ النبي ﷺ قد أوصى لابن عمِّه علي بن أبي طالب بالخلافة، إذ أنّ ثبوت موت رسول ﷺ الله في بيته وعلى صدره قد يكون بابًا لتصديق هذا الأمر الذي أريد طمسه، فمن باب الإجراء الوقائي كذَّبوا هذا الخبر واخترعوا قصَّة "بين سحري ونحري" لمنع تسريب أيِّ تصريح للنبي ﷺ ساعة وفاته.

الذهبي في ورطة:

ومن يقرأ تعامل المؤرّخين مع هذا الخبر يرى تأثير الانتماء المذهبي على حكمهم على هذه الروايات، وسنأخذ على سبيل المثال شمس الدين الذهبي لكونه مؤرِّخا ومحدِّثا في نفس الوقت:

فقد نقل خبرًا يتعرَّض إلى وفاة النبي ﷺ برواية مختلفة عن الرواية الحكوميَّة التي ترويها عائشة، قال: حدَّثنا أبو يعلى، حدَّثنا

---

(1) صحيح البخاري 3/ 186.

كامل بن طلحة، حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني يحيى بن عبد الله المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: ادعوا لي أخي، فدعي أبو بكر فأعرض عنه، ثم قال: ادعوا لي أخي، فدعى له عثمان، فأعرض عنه، ثم دعى له علي فستره بثوبه وأكبَّ عليه، فلما خرج من عنده قيل له: ما قال لك؟ قال :علَّمني ألف باب كل باب يفتح ألف باب[1].

وعلَّق عليه بقوله: قلت :كامل صدوق، وقال ابن عدي :لعلَّ البلاء فيه من ابن لهيعة، فإنَّه مفرط في التشيُّع[2].

إلَّا أنَّ الذهبي قد دافع عن ابن لهيعة -في كتابه الآخر- وانتقد من يرميه بالتشيُّع وحمَّل وزر هذا الحديث على رجل آخر حيث قال: ومناكيره جمَّة ومن أردئها كامل بن طلحة عن ابن لهيعة أنَّ حيي بن عبد الله أخبره عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رسول الله ﷺ قال في مرضه:ادعوا لي أخي فدعوا له أبا بكر فأعرض عنه، ثم قال: ادعوا لي أخي، فدعوا له عمر فأعرض عنه ثم عثمان كذلك، ثم قال: ادعوا لي أخي، فدعوا له علي، فستره بثوبه وانكبَّ عليه فلمَّا خرج قيل له: يا أبا الحسن ماذا قال لك؟ قال:علَّمني ألف باب يفتح كل باب ألف باب، رواه أبو أحمد بن عدي ثم قال: لعلَّ البلاء فيه من ابن لهيعة فإنَّه مفرط في التشيُّع، كذا قال ابن عدي وما رأيت أحدًا قبله رماه بالتشيُّع وكامل الجحدري

---

(1) ميزان الاعتدال 2/ 483.

(2) ميزان الاعتدال 2/ 483.

وإن كان قد قال أبو حاتم: لابأس به، وقال ابن حنبل: ما علمت أحدًا يدفعه بحجة، فقد قال فيه أبو داود:رميت بكتبه، وقال ابن معين ليس بشيء، فلعلّ البلاء من كامل والله أعلم[1].

إذن ليس المتهم بالحديث ابن لهيعة بل هو كامل الجحدري بحسب هذا الكلام، لكنَّ المفاجأة أنَّ الذهبي قد رجع عن هذا القول ودافع عن كامل، لكن هل سلَّم بصحَّة الحديث: الجواب لا بل بقي على تكذيبه الخبر وسجَّل قضيَّة الوضع ضدَّ مجهول!

قال في السير: فأمَّا قول أبي أحمد بن عدي في الحديث الماضي: علَّمني ألف باب يفتح كل باب ألف باب "فلعلَّ البلاء فيه من ابن لهيعة فإنَّه مفرط في التشيع" فما سمعنا بهذا عن ابن لهيعة، بل ولا علمت أنّه غير مفرط في التشيع، ولا الرجل متَّهم بالوضع، بل لعلَّه أدخل على كامل فإنّه شيخ محلُّه الصدق، لعلَّ بعض الرافضة أدخله في كتابه ولم يتفطَّن هو فالله أعلم[2].

وهذه الرواية التي يحاول الذهبي دفعها أخطر من كلِّ الروايات السابقة، إذ أنّها تثبت أنّ رسول الله ﷺ لم يكن يرتضي هؤلاء الثلاثة فلذلك أعرض عنهم ولم يكلِّمهم، والأهمُّ من هذا محاولة جعلهم في الواجهة وربطهم بالنبي ﷺ وهذا ما يرجعنا لحديث الصلاة الذي ناقشناه سابقًا وبحثنا من الذي نسب الأمر بصلاة أبي بكر للنبي ﷺ.

---

(1) تاريخ الإسلام 2/ 483.

(2) سير أعلام النبلاء 8/ 26.

12

إنك ميت

بعد مسيرة 63 سنة انتقل النبي ﷺ إلى رحمة الله تعالى، وعرجت روحه إلى الرفيق الأعلى، وكانت المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى على المسلمين الذين استقبلوا هذا الخبر بكلِّ حزن وأسى وضجَّت المدينة لموته ضجَّة لا مثيل لها حيث ارتبط اسمها بوجوده ﷺ فتغيَّرت من يثرب إلى المدينة المنوَّرة التي طابت بهجرته المباركة.

وعند انتشار خبر وفاته ﷺ حصل أمر غريب جدًّا: فقد ظهرت فئة تمنع من التصريح بوفاة النبي ﷺ وتتوعَّد كلَّ من يدَّعي ذلك بالسيف، إذ أنَّ النبي ﷺ لم يمت بحسب دعواهم بل هو غائب كغيبة موسى عن قومه، أو رفعه الله إليه كما رفع عيسى وسيرجع في القريب العاجل، وكان قائد هذه الفئة هو: عمر بن الخطَّاب.

فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح، قال إسماعيل يعنى بالعالية، فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلَّا ذاك وليبعثنَّه الله فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم[1].

وفي رواية الدارمي: فقام عمر فقال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يمت ولكن عرج بروحه كما عرج بروح موسى، والله لا يموت رسول الله ﷺ حتَّى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم، فلم يزل عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه مما يوعد[2].

بل نقل أبو الفداء نصًّا أخطر من هذا، قال: لَمَّا قبض الله نبيَّه

(1) صحيح البخاري 4/ 194.

(2) سنن الدارمي 1/ 39.

قال عمر بن الخطاب: من قال: إنَّ رسول الله ﷺ مات علوت رأسه بسيفي هذا وإنَّما ارتفع إلى السماء[1]!

فالقضيَّة ليست مجرَّد صدمة نفسية أُصيب بها عمر بن الخطاب أو شبهة عقديَّة عرضت له بسبب موت رسول الله ﷺ بل تعدَّى الأمر هذا ليصبح تهديدا صريحًا بالقتل لكلِّ من تسوِّل له نفسه القول بأنَّ النبي ﷺ قد مات، والغريب ليس الموقف نفسه؛ إذ قد يصدم الإنسان ويعاني ما يعانيه من الصدمة، لكنَّ المفاجأة أن يصدر هذا الموقف من عمر بن الخطاب، فهو الذي كان قبل أيَّام قليلة يصف النبي ﷺ بأنَّه "يهجر" وهو الذي قال: "حسبنا كتاب الله"، و"غلبه الوجع"وبرَّروا له بأنَّ النبي ﷺ إنسان يعرض عليه ما يعرض على غيره، وكذلك هو صاحب الموافقات[2] الذي ينزل الوحي مخالفا لرأي رسول الله ﷺ وموافقا لرأيه، فما الذي تغيَّر الآن؟ وأين ذهب هذا العلم والفهم؟!

والذي يؤكِّد أنَّ الأمر ممَّا دُبِّر بليل أنَّه قد اعتذر عن هذه المقالة لاحقا حيث قال: أيَّها الناس، إنِّي كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إلي رسول الله ﷺ، ولكنِّي قد كنت أرى أنَّ رسول الله ﷺ سيِّد برَّ أمرنا[3]؛ إلَّا أنَّنا

---

(1) تاريخ أبي الفداء 1/ 156.

(2) جعل السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) بابا أسماه: في موافقات عمر، قال فيه: قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين (تاريخ الخلفاء: 111).

(3) سيرة ابن هشام 4/ 1075.

نجده بعد سنوات يؤكِّد أنَّ مقالته قد استنبطها من كتاب الله عزَّ وجل، فقد روى ابن هشام في سيرته أنَّ عمر بن الخطَّاب قال لعبد الله بن عبَّاس: يا ابن عبَّاس، هل تدرى ما كان حملني على مقالتي التي قلت حين توفِّي رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: لا أدرى يا أمير المؤمنين، أنت أعلم، قال: فإنَّه والله، إن كان الذي حملني على ذلك إلَّا أنِّي كنت أقرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، فوالله إن كنت لأظنُّ أنَّ رسول الله ﷺ سيبقى في أمَّته حتَّى يشهد عليها بآخر أعمالها، فإنَّه للذي حملني على أن قلت ما قلت[1].

واختلافه في تبرير مقولته يوم وفاة النبي ﷺ خير دليل على أنَّ هناك دافعًا آخر خلف هذه المقولة.

قصَّة السنح[2]:

الأمر الآخر الجدير بالذكر هو عدم تواجد أبي بكر داخل المدينة عند وفاة النبي ﷺ، فقد ورد في صحيح البخاري أنَّه كان في السنح[3]، وفي رواية سيرة ابن هشام تفصيل هذه القصَّة، قال: فلما

---

(1) سيرة ابن هشام 4/ 1075.

(2) قال البكري في معجم ما استعجم 3/ 760: بضمّ أوَّله وثانيه، بعده حاء مهملة منازل بني الحارث ابن الخزرج بالمدينة ، بينها وبين منزل رسول الله ﷺ ميل.

(3) صحيح البخاري 4/ 194.

فرغ رسول الله ﷺ من كلامه، قال له أبو بكر: يا نبي الله إنّي أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحبُّ، واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟ قال: نعم، ثم دخل رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح[1].

رمزية الإعلان الرسمي:

لا شكَّ أنَّ لإنكار عمر بن الخطاب ارتباطا وثيقا بغياب أبي بكر، إذ أنَّ للإعلان الرسمي للوفاة رمزيَّة لا يمكن إنكارها، فالشخص الذي سيعلن هذا الخبر سيصعد على منبر رسول الله ﷺ وسيخطب في الناس أوّل خطبة بعد وفاة النبي ﷺ وهذه الأمور هي من صلاحيَّات الخليفة المرتقب لا غير.

ومن هنا فإنَّ إعلان علي بن أبي طالب للوفاة هي بمثابة تولٍّ عملي لهذا المنصب الذي سيشتدُّ عليه النزاع فيما بعد وبالتالي انتهاء حلم كلِّ من خطَّط لنيل هذا المنصب، ولذلك كان من الضروريِّ تأجيل هذا الإعلان إلى حين قدوم أبي بكر إلى المدينة المنوَّرة وتولِّي هذه المهمَّة، وأفضل طريقة لهذا التأجيل هي ما صنعه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بالتشويش على وفاة النبي ﷺ ومنع الناس من استيعاب الأمر.

والذي يشهد على هذا أنَّ أبا بكر لم يبذل جهدًا كبيرًا في إقناع

---

(1) سيرة ابن هشام 4/ 1068.

عمر بن الخطاب بذلك، فبمجرَّد أن صعد إلى المنبر وخطب في الناس وقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ حتَّى اقتنع مباشرة، وقد قال واصفًا لهذا الموقف: والله ما هو إلَّا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتَّى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أنَّ رسول الله ﷺ قد مات[1].

علما أنَّ هذه الآية قد تلاها عليها الناس لكنَّه تجاهلهم ولم يعرهم انتباها: وقام عمر بن الخطاب يخطب الناس ويتوعَّد من قال مات بالقتل والقطع ويقول: إنَّ رسول الله ﷺ في غشية لو قد قام قتل وقطع، وعمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم بن أم مكتوم في مؤخَّر المسجد يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾[2].

وقد يقول قائل أنَّ هذا التحليل التاريخي فيه نوع من التحامل على الخليفة الثاني، إلَّا أنَّ من يقرأ ماضيه مع رسول الله ﷺ والأحداث التي ستأتيك تباعًا سيعلم جيِّدا صحَّة ما ذكرناه.

---

(1) سيرة ابن هشام 4/ 1071.

(2) البداية والنهاية 4/ 481.

13

أحداث الدفن

أُعلن رسميًّا وفاة رسول الله ﷺ في مسجده المطهَّر، وبدأت مراسم تجهيزه وتكفينه والاستعداد لدفنه كما هو معروف من الطقوس الإسلاميَّة، ولعلَّ القارىء تصوَّر أنَّه قد أعلن الحداد في المدينة وأقيم العزاء للنبي ﷺ وجاءت الوفود معزِّية من مشارق الأرض ومغاربها كما هو الحال عند وفاة أيِّ زعيم من الزعماء، لكنَّ الوضع مختلف تمامًا فكلُّ هذا لم يحصل إلّا في عالم الخيالات الورديَّة أمَّا في عالمنا الواقعي فالحقيقة سوداء.

تشتُّت الشمل:

إنَّ أوَّل بليَّـة ابتليـت بهـا الأمَّـة الإسـلاميَّة هـي التـشتُّت والانقسام، فـما إن مـات رسـول الله ﷺ حتَّـى ظهـرت الفرقـة ولم يوارى جسمه الطاهر الثرى بعد، وقد نقل لنا ابن إسـحاق صـورة مصغَّرة للتحزُّب الذي حصل بعد الوفاة، قال: ولَّما قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبـادة في سـقيفة بنـي ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بـن العـوام وطلحـة بـن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقيَّة المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فـأتى آتٍ إلى أبـى بكـر وعمر، فقال: إنّ هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بنى ساعدة، قد انحازوا إليه، فـإن كـان لكـم بـأمر النـاس حاجـة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهـم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يفـرغ مـن أمره قد أغلق دونه الباب أهله[1].

فالصراع السياسي بدأ قبـل الفـراغ مـن تجهيـز رسـول الله ﷺ ودفنه وقد انخرط في هذا الـصراع كبـار الـصحابة مـن المهـاجرين والأنصار، والذي يهمُّنا هو ذكر أبي بكر وعمر ضمن هذه الأسماء، فهؤلاء كانوا أقرب الناس لرسول الله ﷺ وبحسب القراءة السائدة للتاريخ كانوا من أشدِّ النـاس حبًّـا للنبـي ﷺ، لكـن بقـدرة قـادر نجدهم لا يعيرون أيَّ اهتمامًا لموته بل كان جلُّ اهتمامهم منصبًّا على النزاع القائم حول الحكم!

---

(1) سيرة ابن هشام 4/ 1071.

وهذا الموقف لوحده كافٍ لإعادة قراءة تاريخ الرجلين وقربهما من النبي ﷺ، فإنَّ مثل هذا السلوك لا يمكن أن يصدر من شخص امتلأ حبُّه بآخر، فإلى يومنا هذا يترك الصاحب كلَّ أشغاله للتفرُّغ لعزاء صاحبه ولا يلتفت لأيِّ شيء آخر سوى الحزن على فقد الصاحب، ولو صدر خلاف هذا فإنّه يكون مذمومًا عند الكلِّ.

وقد سبَّب هذا الموقف إحراجا لبعض المؤرِّخين والمحدِّثين فتصدّوا للتبرير، فمنهم النووي الذي قال: وكان عذر أبي بكر وعمر وسائر الصحابة واضحًا، لأنَّهم رأوا المبادرة بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع تترتَّب عليه مفاسد عظيمة، ولهذا أخَّروا دفن النبي ﷺ حتَّى عقدوا البيعة لكونها كانت أهمِّ الأمور كيلا يقع نزاع في مدفنه أو كفنه أو غسله أو الصلاة عليه أو غير ذلك وليس لهم من يفصل الأمور، فرأوا تقدم البيعة أهم الأشياء[1].

وما ذكره عليه لا له: فإذا كان موضوع الخلافة مهمًّا بحيث يلزم من تركه وقوع مفاسد كبيرة عظيمة فلماذا تركه النبي ﷺ ولم يبيِّنه للناس؟ أليس الأولى به ﷺ أن يتصدَّى لحسم هذا الموضوع ويمنع وقوع الفتنة؟ أم أنَّ أبا بكر وعمر أغير على الإسلام من نبيِّ الإسلام؟

---

(1) شرح صحيح مسلم 12/ 78.

أصوات المساحي[1]:

قد يقول قائل: إنَّ غياب الصحابة عن تجهيز رسول الله ﷺ كان بسبب موضوع البيعة المهمِّ جدًّا لمستقبل الأمَّة، لكن بعد استتباب الأمر واجتماع الناس على أبي بكر تفرَّغوا لجنازة رسول الله ﷺ وشيَّعت ذلك التشييع المهيب ثمَّ قاموا بواجب العزاء لأهله...

وهذا الكلام يصلح أن يكون سيناريو من بنات أفكار مخرج أو كاتب، أمَّا التاريخ الذي يحمل الحقيقة فإنَّه ينقل لنا صورة مغايرة تماما عن هذا الكلام، فالنبي ﷺ قد دفن ولم يشهده أحد من هؤلاء الذين ذهبوا للتنازع والتنافس على الحكم، بل لم يكن عندهم أيُّ علم بقضيَّة دفنه ولا فكرة عن مكان مدفنه أصلًا!

فقد روى الزهري بعض تفاصيل الدفن فقال: توفي رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس يوم الإثنين، فشغل الناس عن دفنه بشبَّان الأنصار، فلم يدفن حتى كانت العتمة، ولم يله إلَّا أقاربه، ولقد سمعت بنو غنم صريف المساحي حين حفر لرسول الله ﷺ وإنَّهم لفي بيوتهم[2].

وفي خبر آخر عنه: دُفِنَ النبي ﷺ ليلًا فقالت بنو ليث: كنَّا نسمع صريف المساحي ورسول الله ﷺ يدفن بالليل[3].

---

(1) مساحي جمع لمسحاة وهي آلة لحفر الأرض.

(2) الطبقات الكبرى 2/ 304.

(3) الطبقات الكبرى 2/ 304.

وفي رواية أصرح قال: دفن رسول الله ﷺ ليلًا، قال شيوخ من الأنصار في بني غنم: سمعنا صوت المساحي آخر الليل ليلة الثلاثاء(1).

والمفاجأة أنَّ عائشة زوجة النبي ﷺ والتي من المفترض أنَّه مات في حجرها ودفن في بيتها قد روي عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتَّى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء(2).

والسؤال هنا: من الذي كان يعلم بدفن رسول الله ﷺ إذا كان كلُّ هؤلاء لم يعلموا بدفنه حتَّى أقرب الناس إليه كزوجته عائشة؟! الجواب تجده في رواية ابن إسحاق المتقدِّمة وتحديدًا في قوله: ورسول الله ﷺ في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله(3).

وكذلك روى البلاذري في أنسابه عن سعيد بن المسيب قال: ولي غسل رسول الله ﷺ وإجنانه دون الناس أربعة: العباس، وعلي، والفضل بن العباس، وصالح مولى رسول الله ﷺ(4).

بل نصَّت رواية صحيحة صريحة على غياب الشيخين: أبي بكر

---

(1) الطبقات الكبرى 2/ 305.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 1078.

(3) سيرة ابن هشام 4/ 1071.

(4) أنساب الأشراف 1/ 570.

وعمر - عن مراسم الدفن، وهي ما رواه ابن أبي شيبة بسنده عن عروة بن الزبير: أنَّ أبا بكر وعمر لم يشهدا دفن النبي ﷺ، كانا في الأنصار فدفن قبل أن يرجعا[1].

ورغم وضوح هذه الحقيقة التاريخيَّة إلَّا أنَّ هذا لم يمنع البعض من اختلاق فضيلة لأبي بكر عند دفن رسول الله ﷺ، فقد قال قائلهم: وهذا أوَّل اختلاف وقع بين الصحابة، فقال بعضهم: ندفنه بمكَّة مولده ومنشئه، وبعضهم بمسجده، وبعضهم بالبقيع، وبعضهم ببيت المقدس مدفن الأنبياء، حتَّى أخبرهم أبو بكر بما عنده من العلم، قال ابن زنجويه: وهذه سنَّة تفرَّد بها الصديق من بين المهاجرين والأنصار ورجعوا إليه فيها[2].

فهل حضر الصحابة أساسًا دفنه حتى يختلفوا؟

وهل كان أبو بكر موجودًا أصلًا لكي يحسم الخلاف؟

حتَّى الأكفان!

لم يكتف هؤلاء بالإعراض عن رسول الله ﷺ وعدم الاهتمام بجنازته، بل نقلت المصادر التاريخيَّة مأساة أخرى حصلت، لو انتحب الإنسان طول عمره لأجلها لم يكن مبالغًا، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة: دخلت على أبي بكر فقال: في كم كفَّنتم النبي ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها

---

(1) مصنّف ابن أبي شيبة 8/ 572.

(2) الصواعق المحرقة 34.

قميص ولا عمامة، وقال لها: في أيِّ يوم توفِّي النبي ﷺ؟ قالت: يوم الاثنين، قال: فأيّ يوم هذا؟ قالت: يوم الإثنين، قال: أرجو فيما بيني وبين الليل، فنظر إلى ثوب عليه كان يمرَّض فيه به ردعٌ من زعفران فقال: اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفِّنوني فيها[1].

وهذه الرواية تحمل في طيَّاتها مأساة أخفاها الرواة كعادتهم بعد أن اختصروا الحديث اختصارًا مخلًّا، وتمام الخبر أخرجه أحمد في مسنده عن عائشة: أنَّ أبا بكر قال لها: في أيِّ يوم مات رسول الله ﷺ؟ فقالت: في يوم الإثنين، فقال: ما شاء الله إنِّي لأرجو فيما بيني وبين الليل، قال: ففيم كفَّنتموه؟ قالت: في ثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة، وقال أبو بكر: انظري ثوبي هذا فيه ردع زعفران أو مشق فاغسليه واجعلي معه ثوبين آخرين، فقالت عائشة: يا أبت هو خلق، قال: إنَّ الحي أحقُّ بالجديد، وإنما هو للمهلة، وكان عبد الله بن أبي بكر أعطاهم حلَّة حبرة، فأدرج فيها رسول الله ﷺ ثم **استخرجوه منها** فكفِّن في ثلاثة أثواب بيض، قال: فأخذ عبد الله الحلَّة فقال: لأكفننَّ نفسي في شيء مسَّ جلد النبي ﷺ، ثم قال بعد ذلك: والله لا أكفنَّ نفسي في شيء منعه الله ﷻ نبيه ﷺ أن يُكفَّن فيه[2].

---

(1) صحيح البخاري 2/ 106.

(2) مسند أحمد 6/ 132.

فهذا النصُّ يشير إلى أنَّ النبي ﷺ قد جُرِّد من أكفانه بعد أن أدرج فيها، وسبب تجريده من أكفانه هو أنَّ هذه الثياب كانت جديدة بقرينة الربط بينه وبين حديث أبي بكر، والعجيب أنَّه نسبوا هذه الفعلة الشنيعة لله ﷻ حيث قال ابن أبي بكر: منعه الله عز وجل نبيَّه!

وهذا ما يجعلنا أمام كومة من الأسئلة:

لماذا جرَّدوا رسول الله ﷺ من أكفانه؟

ومن الذي ارتكب هذا الأمر الفظيع؟

ومن الذي أشار عليهم بذلك؟

إنَّ هذه الأسئلة لا جواب عليها في المقدار الذي وصلنا من تاريخ النبي ﷺ لكنَّنا أمام رزيَّة أخرى تفوق كلَّ الرزيا التي تعرَّضنا لها في الفصول السابقة، فالنبي الذي بذل لأجل أمَّته الغالي والنفيس حتَّى جعلهم دولة قويَّة بعد أن كانوا قبائل مشتَّتة تستخسر فيه هذه الأمَّة التي بعث إليها أن تكفِّنه في ثياب جديدة!

أين دُفن رسول الله ﷺ ؟

قد اتضح عند أيَّها القارىء العزيز أنَّ الحزب القرشي يسعون إلى استغلال كلِّ كبيرة وصغيرة لخلق غطاء شرعي يمكّنهم من اعتلاء العرش قريبًا عاجلًا، وممّا لا شكّ فيه أنّ قضيَّة دفن رسول الله ﷺ هي من القضايا المهمَّة التي سيسعون لاستغلالها، وقد قدَّمنا

أنَّهم حاولا اختلاق فضيلة لأبي بكر في قضيَّة دفن مكان رسول الله ﷺ والحال أنَّه لم يحضر الجنازة أصلًا!

أمَّا الجديد في هذا الفصل فهو البحث في مكان دفن رسول الله ﷺ تحديدًا، فالرواية المشهورة هي أنَّه مات ودفن في بيت عائشة بنت أبي بكر، بل ادعى ابن كثير تواتر الأمر، قال: قد علم بالتواتر أنّه عليه الصلاة والسلام دفن في حجرة عائشة التي كانت تختصُّ بها شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن بعده فيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما[1].

لكنَّ هذا التصوُّر يصطدم بعدَّة أمور مهمَّة:

أوَّلًا: لقد ثبت بما لا يدع مجالا للشكّ أنَّ النبي ﷺ لم يمرَّض في بيت عائشة وأنَّ تلك القصَّة مختلقة وآثار الكذب فيها واضحة جليَّة، وقد نقلنا روايات متضافرة في أنَّ احتضاره كان بمحضر بني هاشم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب.

ثانيًا: كيف يكون النبي ﷺ مدفونا في بيت عائشة والحال أنَّها لم تكن تعلم أصلا بدفنه لولا سماع أصوات المساحي، حيث قالت: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتّى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء[2].

ثالثًا: إنَّ الحجرة المباركة التي تحوي قبره تقع في الجهة الشرقيَّة

---

(1) السيرة النبوية 4/ 541.

(2) سيرة ابن هشام 4/ 1078.

للمسجد النبوي، في حين أنَّ بيت عائشة لا يقع في هذه الجهة بل هو في الجهة الجنوبيَّة أي في جهة القبلة، والذي يدلُّ على ذلك:

ما رواه البخاري بسنده عن محمد بن هلال: أنَّه رأى حجر أزواج النبي ﷺ من جريد مستورة بمسوح الشعر، فسألته عن بيت عائشة فقال: كان بابه من وجهة الشام، فقلت: مصراعًا كان أو مصراعين؟ قال: كان بابًا واحدًا، قلت من أيِّ شيء كان؟ قال: من عرعر أو ساج[1].

وروى البخاري أيضًا: أنها كانت ترجِّل النبي ﷺ وهي حائض وهو معتكف في المسجد وهي في حجرتها يناولها رأسه[2].

وإذا أضفنا تأكيد مالك أنَّ: حجر أزواج النبي ﷺ ليست من المسجد، ولكن أبوابها شارعة في المسجد[3] يتبيَّن أنَّ بيت عائشة هو في الجهة القبليَّة للمسجد أي في جنوبه لا شرقه مكان الحجرة النبويَّة المطهَّرة، لأنَّه لو كان بيتها عند الحجرة وبابه جهة الشام لما كان شارعا في المسجد بل يكون خارجه!

رابعًا: إنَّ لحجرة عائشة وبقيَّة حجرات نساء النبي ﷺ بابا واحِدًا كما تقدَّم من رواية البخاري: كان بابا واحدا[4]، أمّا الحجرة

---

(1) الأدب المفرد 168؛ وصحّح الألباني سنده في صحيح الأدب المفرد 290.
(2) صحيح البخاري 2/ 260.
(3) موطأ مالك برواية الزهري 1/ 175.
(4) الأدب المفرد 168؛ وصحّح الألباني سنده في صحيح الأدب المفرد 290.

التي دفن فيها النبي ﷺ كان لها بابًا، والذي يـدلُّ عليـه: مـا ورد في صفة الصلاة عـلى رسـول الله ﷺ عنـد وفاتـه، فقـد روى أحمـد في مسنده عن أبي عسيم: أنَّه شهد الصلاة على رسـول الله ﷺ، قـالوا: كيف نـصلِّي عليـه؟ قـال: ادخلـوا أرسـالًا أرسـالًا، قـال: فكـانوا يدخلون من هذا البـاب فيـصلُّون عليـه ثـم يخرجـون مـن البـاب الآخر[1].

ولعلَّ هذا الاختلاف لوحده كاف لإثبات تغاير الحجرتين.

خامسًا: أنَّ كتب التاريخ نقلت أنَّ عائشة باعت بيتهـا لمعاويـة بن أبي سفيان، وقد نقل ابن سعد هذه الحادثة فقـال: واشـترى مـن عائشة منزلها يقولون بمائة وثمانين ألف درهـم ويقـال بمائتـي ألـف درهم[2].

فهل من المعقول أن يكون المباع هو البيت الـذي احتـوى قـبر النبي ﷺ والذي هو في داخل المسجد؟

وقد يقول قائل: كيف تشكِّك في قضيَّة متواترة كـما ذكـر ابـن كثير، ولا يختلف فيها اثنان من المسلمين؟ والجواب أنَّ هذه القضيَّة لم تكن محلَّ تسالم بالصورة التي ذكرها ابن كثير، والدليل على ذلـك ما رواه ابن سعد في طبقاته: انهدم الجدار الذي على قبر النبي ﷺ في زمان عمر بن عبد العزيز، فأمر عمر بعمارته قال: فإنَّه لجالس وهـو

(1) مسند أحمد 5/ 81؛ والسند صحيح

(2) الطبقات الكبرى 8/ 164.

يبنى إذ قال لعلي بن حسين: قم يا علي فقم البيت، يعني بيت النبي ﷺ فقام إليه القاسم بن محمد فقال: وأنا أصلحك الله، قال: نعم وأنت فقم، ثم قال له سالم بن عبد الله: وأنا أصلحك الله، قال: اجلسوا جميعا وقم يا مزاحم فقمه، فقام مزاحم فقمه، قال مسلم: وقد أثبت لي بالمدينة أنَّ البيت الذي فيه قبر النبي ﷺ بيت عائشة، وأنَّ بابه وباب حجرته تجاه الشام[1].

إذن الأمر لم يكن مسلَّم به في سنة 100هـ تقريبًا أي في حياة بعض الصحابة والتابعين، بل كان محلَّ شكٍّ ولذلك قال مزاحم: وقد أثبت لي بالمدينة أنّ البيت الذي فيه قبر النبي ﷺ بيت عائشة.

بل حتّى الروايات التي ذكرناه في أوّل البحث مشعرة بهذا الأمر، فعندما يقول الراوي "فسألته عن بيت عائشة[2] فإنَّ هذا مشعر بأنَّ هذا البيت لم يكن معروفًا في ذلك الوقت، في حين أنَّ قبر رسول الله ﷺ كان معروفا ويتعبّد المسلمون بزيارته والسلام عليه، وعليه فالقرائن التاريخيَّة تكذِّب قصة دفن النبي ﷺ في حجرة عائشة.

بقي الكلام في تحديد مكان دفنه ﷺ، فإن لم يكن في حجرة عائشة، فأين دفن وما الدليل على ذلك؟

---

(1) الطبقات الكبرى 2/ 307.

(2) الأدب المفرد 168؛ وصحّح الألباني سنده في صحيح الأدب المفرد 290.

والجواب أنّه كانت لرسول الله ﷺ حجرة خاصّة ليست تابعة لواحدة من زوجاته:

وقد أشار لها البخاري في قصّة اعتزال النبي ﷺ زوجاته حيث روى عن ابن عبّاس: "أصبحنا يوما ونساء النبي ﷺ يبكين عند كل امرأة منهنَّ أهلها، فخرجت إلى المسجد فإذا هو ملآن من الناس، فجاء عمر بن الخطاب فصعد إلى النبي ﷺ وهو في غرفة له[1].

وكان النبي ﷺ يتعبّد في هذه الغرفة: حيث روى أحمد في المسند عن أنس: أنَّ النبي ﷺ كان يصلّي ذات ليلة في حجرته فجاء أناس فصلُّوا بصلاته[2].

وقد تقدَّم أنَّ النبي ﷺ اجتمع بالمسلمين في يوم الخميس وكان في البيت رجال كُثر، وكما ورد في بعض ألفاظ حديث اللدِّ أنّ البيت كانت في جماعة، وغيرها من القرائن الكثيرة التي تثبت أنّه تمرَّض في هذه الحجرة وتوفي فيها بل ودُفِنَ بها، ومنشأ الاشتباه هو أنَّ حكومة السقيفة وضعت يدها على كلّ ممتلكات النبي ﷺ ومنها هذه الحجرة فأصبحت عائشة هي التي تتصرّف فيها فنسبت إليها.

صراع العقل والعاطفة:

من يقرأ هذه الأحداث التي قدَّمناها -بعيدا عن أيّ عاطفة مسبّبة عن تقديس لشخصيّات ولّدها الانتماء المذهبي- يقف

---

(1) الأدب المفرد 168؛ وصحّح الألباني سنده في صحيح الأدب المفرد 290.

(2) مسند أحمد 3/ 103؛ والسند صحيح.

مذهولًا أمام ما صنعه الأصحاب بجنازة النبي ﷺ، إذ إنَّها لم تجد منهم أيّ اهتمام كما هو الحال في كلِّ زمان ومكان، فلم نسمع أنَّ أحدًا من الصحابة جاء وعزّى أهل بيت النبي ﷺ أو عمل لهم طعامًا كما هي السُّنَّة النبويَّة، لكنَّنا نجد صراعًا على الرئاسة ونزاعًا على الحكم كما سيأتيك مفصَّلا، فهل الكرسي عندهم أهمُّ من رسول الله؟!

14

وتمخضت السقيفة

تقدَّم أنَّ جُلَّ الصحابة قد انشغلوا عن رسول الله ﷺ بالتنازع في شأن الكرسيِّ، وقد مرَّ عليك أنَّ قسماً من الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ولحق بهم مجموعة من المهاجرين على رأسهم: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة الجرَّاح...

نفتح في هذا الفصل ملفَّ السقيفة والنزاع السياسي الذي نشأ في يوم وفاة رسول الله ﷺ وما تمخَّضَ عنه هذا النزاع من انتقال السلطة لأبي بكر: فهل كان سلمياً كما نسمع دائماً؟ وهل فعلاً

حصلت شورى في هذه السقيفة؟ والسؤال الأهمُّ هنا: ما مصير من عارض مخرجات اجتماع السقيفة؟!

الرواية الحكوميَّة:

نشرع في نقل قصَّة السقيفة كما يرويها عمر بن الخطاب أحد الشهود العيان في الواقعة، بل كان صاحب الدور الأبرز فيها، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: كنت أقرئ رجالا من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجَّة حجَّها إذ رجع إليَّ عبد الرحمن فقال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: "يا أمير المؤمنين هل لك في فلان يقول لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلَّا فلتة فتمَّت"، فغضب عمر ثم قال: إنِّي إن شاء الله لقائم العشيَّة في الناس، فمحذِّرهم هؤلاء الذي يريدون أن يغصبوهم أمورهم، قال عبد الرحمن: فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإنَّ الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنَّهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتَّى تقدم المدينة فإنَّها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكِّنًا، فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومنَّ بذلك أوَّل مقام أقومه بالمدينة، قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلـمَّا كان يوم

الجمعة عجَّلنا الرواح حين زاغت الشمس حتَّى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جالسًا إلى ركن المنبر، فجلست حوله تمسُّ ركبتي ركبته فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب فلمَّا رأيته مقبلًا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولنَّ العشيَّة مقالة لم يقلها منذ استخلف، فأنكر عليٌّ وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقل قبله؟ فجلس عمر على المنبر، فلمَّا سكت المؤذِّنون قام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أمَّا بعد فإنِّي قائل لكم مقالة قد قدِّر لي أن أقولها لا أدري لعلَّها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدِّث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا أحلُّ لأحد أن يكذب عليَّ، إنّ الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلُّوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، ثم إنَّا كنَّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنَّه كفر بكم إن ترغبوا عن آبائكم أو إن كفرا بكم أن ترغبوا عن آبائكم إلَّا، ثم إنَّ رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرى عيسى بن مريم وقولوا عبد الله ورسوله، ثم إنَّه بلغني أنَّ قائلا منكم يقول: والله لو مات عمر بايعت فلانا، فلا يغترنَّ امرؤ أن يقول إنَّما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمَّت ألا وإنَّها قد كانت كذلك ولكنَّ الله وقى شرَّها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلًا عن غير

مشورة من المسلمين فلا يُبايع هو ولا الـذي بايعـه تغـرُّة أن يقـتلا، وإنَّه قد كان من خبرنا حين تُوفِّي الله نبيِّـه ﷺ أنَّ الأنـصار خالفونـا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنَّا علي والـزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبـا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلمَّا دنونا منهم لقينا رجلان منهم صالحان فذكرا ما تمـالى عليـه القـوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننـا هـؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينَّهم، فانطلقنا حتَّى آتينـاهم في سـقيفة بنـي سـاعدة، فـإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ قالوا: هـذا سـعد بـن عبادة، فقلـت: مالـه؟ قـالوا: يوعـك، فلـما جلـسنا قلـيلًا، تـشهَّد خطيبهم، فأثنى على الله لما هو أهله ثم قال: أمّا بعد، فـنحن أنـصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصـلنا وأن يحـضنونا مـن الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلَّم وكنـت زوَّرت مقالـة أعجبتنـي أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحدَّ، فلمَّا أردت أن أتكلم قال أبو بكر: عـلى رسـلك، فكرهـت أن أغـضبه، فتكلَّم أبو بكر فكان هو أحلم منِّي وأوقر والله مـا تـرك مـن كلمـة أعجبتني في تزويري إلَّا قال في بديهته مثلها أو أفضل، حتى سـكت فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولم يعرف هذا الأمر إلَّا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نـسبًا ودارًا، وقـد رضـيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخـذ بيـدي وبيـد أبي

عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدّم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحبَّ إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلّا أن تسوّل إليّ نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن، فقال قائل الأنصار: أنّا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف، فقلت ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة، قال عمر: وإنّا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلًا منهم بعدنا، فإمّا بايعناهم على ما لا نرضى وإمّا نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يقتلًا[1].

تسمية الأمور بأسمائها:

إنَّ هذا النصَّ المتقدِّم يحوي دلالات مهمَّة تلخِّص كلَّ الصراع السياسي الذي دار في ذلك الزمن وبقيت آثاره إلى السنة الأخيرة من حكم عمر بن الخطاب؛إذ أنَّ الرجل لم يكن بصدد إعلام الناس بحقيقة ما جرى في سقيفة بني ساعدة بل كان في مقام الردِّ على تيَّار له حضور في أوساط المسلمين يدعو لبيعة شخص لم تسمِّه الرواية

---

(1) صحيح البخاري 8/ 25.

في حالة موت عمر بن الخطاب مستدلًّا بكيفيَّة بيعة عمر لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، ولأنَّ هذا الشخص لم يكن مرضيًّا عند عمر فإنَّه من الضروري أن يسعى لمنع وصوله إلى الحكم مع تبرير ما جرى في سقيفة بني ساعدة بحيث لا يقع في تناقض صارخ، فما فعله هو بالأمس عين ما يريد فلان من الناس فعله بعد موته.

ومن هنا نعلم أنَّ قصَّة السقيفة المرويَّة عن عمر بن الخطاب في البخاري ليست حكاية عن واقعة، بل هو خطاب سياسي الغرض منه المنع من وصول "فلان" للحكم بالطريقة نفسها التي وصل بها أبو بكر، وبالتالي فاعتبار هذا النقل هو الرواية الرسميّة للسقيفة أمر خاطىء، لأنّ هذا النقل لم يشتمل على تمام الحدث بل اكتُفي فيه بالتعرّض لما يريد به عمر بن الخطاب تبرير الماضي القريب.

والذي يثبت هذا أنَّ عبد الرحمن بن عوف كان متخوِّفا من تعرُّض عمر بن الخطاب لهذا الموضوع، ولذلك تعمَّد أن يثنيه عن خطبته في مكَّة المكرَّمة وطلب منه التأجيل للمدينة المنوَّرة، وفي هذا دلالة واضحة على خطورة الموضوع وتأزّم الوضع السياسي، إذ أنَّ عمر بن الخطاب كان بمثابة صندوق الأسرار لكلِّ الأحداث المنصرمة وبَوحه بكلّ ما يعلم في حالة غضب سيفسد كلّ شيء، وهذا ما يؤكِّد ما ذكرناه مرارا وتكرارا في الكتاب من أنَّ السلطة السياسيَّة كانت تتعمّد إخفاء الأحداث.

وقى الله شرّها؟

من أهمّ فلتات لسان عمر وصفه لبيعة السقيفة بأنّها "فلتة وقى الله المسلمين شرَّها" بل أفتى صراحة بقتل من يعود لمثلها فقال:... فلا يغترنّ امرؤ أن يقول إنّما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمّت ألا وإنّها قد كانت كذلك ولكنّ الله وقى شرّها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرّة أن يقتلا[1].

وهذا ما يهدم ركنا ركينا قامت عليه القراءة السائدة للتاريخ الإسلامي وهو أنَّ السلطة انتقلت لأبي بكر عن طريق شورى واتفاق بين الصحابة، فمن يقرأ هذا الحديث الذ ي رواه عمر رفيق درب أبي بكر يجد أنّ هذا الاجتماع أبعد ما يكون عن الشورى ويكفيك أنَّ عمر بن الخطاب رفض تطبيق المنهج نفسه من بعده، فلو كان الأمر شورى حقيقيَّة كما دلّ عليها الكتاب والسنة فلماذا يرفض تطبيقها بعده؟ بل يدعو لقتل من يسعى لمثلها!

ويكفيك لنفي أنّ الأمر كان شورى: أنَّ أهل السقيفة أنفسهم لم يُجمعوا على أبي بكر بل كانوا مختلفين في الأمر، ولو قلنا باتفاقهم فإنّ من كان في السقيفة لا يُمثِّل عشر معشار سكّان المدينة، فضلًا عن بقيّة أفراد الدولة الإسلامية التي تمتدّ إلى اليمن جنوبًا وإلى بلاد الشام شمالًا.

---

(1) صحيح البخاري 8/ 25.

ولهذا فإنَّ السؤال المهمّ الذي يُحدِّد مصير الإسلام والمسلمين: هل كانت خلافة أبي بكر شرعيَّة؟ فإن كانت تستند على أدلَّة دينيَّة من الكتاب أو السنة فكيف جهلها الأنصار؟ ولماذا لم يحتجَّ أبو بكر نفسه بها في سقيفة بني ساعدة؟ وإن كان المستند هو شورى المسلمين: فقد رأيت أنّه لم تكن هناك شورى أصلًا باعتراف عمر بن الخطاب!

وما لم تثبت خلافة أبي بكر بدليل تسقط معها خلافة عمر؛ إذ إنّ خلافته مرتكزة على تنصيب من أبي بكر[1]، وتسقط بعدها خلافة عثمان لأنّه من الستة الذين عيّنهم عمر بن الخطاب وهكذا..، فالقضيّة مصيريّة وليست بتلك البساطة التي يُتعامل معها في التاريخ وفي كُتب الكلام، وإثبات هذه المسألة أو نفيها يُغيِّر الكثير الكثير.

رواية ابن عقبة:

ذكرت بعض المصادر التاريخيَّة الأخرى رواية عن موسى بن عقبة صاحب المغازي المشهور ينقلها عن الزهري أوّل من كتب في السيرة كما ذكرنا في مقدِّمة الكتاب، قال: لما توجَّهوا إلى سقيفة بني ساعدة وأراد عمر أن يتكلّم ويسبق بالقول ويمهّد لأبي بكر ويتهدّد

---

(1) روى البخاري في صحيحه 8/ 126: عن عبد الله بن عمر قال: قيل لعمر ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منِّي أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير منِّي رسول الله.

من هناك من الأنصار[1]، وقال عمر: خشيت أن يقصر أبو بكر عن بعض الكلام وعن ما أجد في نفسي من الشدّة على من خالفنا، زجره أبو بكر فقال: على رسلك فستكفى الكلام إن شاء الله تعالى، ثم سوف تقول بعدي ما بدا لك، فتشهّد أبو بكر، وأنصت القوم، ثم قال: بعث الله محمدًا بالهدى ودين الحق، فدعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى ما دعانا إليه، فكنّا معشر المهاجرين أوّل الناس إسلامًا، ونحن عشيرته وأقاربه، وذوو رحمة، فنحن أهل النبوّة وأهل الخلافة وأوسط الناس أنسابًا فى العرب، ولدتنا العرب كلّها، فليست منها قبيلة إلّا لقريش فيها ولادة، ولن تعترف العرب ولا تصلح إلّا على رجل من قريش، هم أصبح الناس وجوهًا، وأبسطه ألسنًا، وأفضله قولًا، فالناس لقريش تبع، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، وهذا الأمر بيننا وبينكم قسمة إلّا بلمه، وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وأحبّ الناس إلينا، وأنتم الذين آووا ونصروا، وأنتم أحقّ الناس أن لا تحسدوهم على خير أتاهم الله إياه، فأنا أدعوكم إلى أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح ووضع يديه عليهما، وكان قائمًا بينهما فكلاهما قد رضيته للقيام بهذا الأمر، ورأيته أهلًا لذلك، فقال عمر وأبو عبيدة: ما ينبغي لأحد بعد رسول الله ﷺ أن يكون فوقك يا أبا بكر، أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثاني اثنين، وأمرك رسول الله ﷺ حين اشتكى فصلّيت بالناس،

---

(1) اعتراف بأنّ سلاح الوعيد كان حاضرًا بقوّة في سقيفة بني ساعدة.

فأنت أحق بهذا الأمر، قالت الأنصار: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، وما خلق الله قومًا أحبّ إلينا ولا أعزَّ علينا منكم، ولا أرضى عندنا هديًا، ولكنا نشفق بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلًا منكم فإذا مات أخذنا رجلًا من الأنصار فجعلناه، فإذا مات أخذنا رجلًا من المهاجرين فجعلناه، فكنا كذلك أبدًا ما بقيت هذه الأمّة بايعناكم ورضينا بذلك من أمركم، وكان ذلك أجدر إن يشفق القرشيّ إن زاغ أن ينقض عليه الأنصاريّ، وأن يشفق الأنصاريّ إن زاغ أن ينقض عليه القرشيّ، فقال عمر: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلّا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلّا به، ولن تعرف العرب الإمارة، إلَّا له، ولن تصلح إلَّا عليه، والله لا يخالفنا أحد إلّا قتلناه[1]، فقام الحباب بن المنذر من بني سلمة، فقال: منَّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، أنا جذيلها المحك وعذيقها المرجب، دفت علينا منكم دافة أرادوا أن يخرجونا من أصلنا ويختصّونا من هذا الأمر، وإن شئتم كرَّرناها جزعة، فكثر القول حتى كادت الحرب تقع بينهم، وأوعد بعضهم بعضًا، ثم ترادّ المسلمون وعصم الله لهم دينهم، فرجعوا بقولٍ حسن، وسلموا الأمر لله وعصوا الشيطان، ووثب عمر فأخذ بيد أبي بكر وقام أسيد بن حضير الأشهلي وبشير بن سعد أبو النعمان بن بشير يستبقان ليبايعا أبا بكر فسبقهما عمر فبايع ثم بايعا معًا، ووثب أهل السقيفة يبتدرون البيعة، وسعد بن عبادة مضطجع يوعك، فازدحم الناس

(1) لم يكن ما تقدّم مجرّد وعيد بل تحوَّل إلى تهديد صريح بالقتل.

على أبي بكر، فقال رجل من الأنصار: اتقوا سعدا، لا تطؤه فتقتلوه، فقال عمر وهو مغضب: قتل الله سعدا، فإنَّه صاحب فتنة، فلمَّا فرغ أبو بكر من البيعة رجع إلى المسجد فقعد على المنبر فبايعه الناس حتَّى أمسى، وشُغلوا عن دفن رسول الله حتى آخر الليل من ليلة الثلاثاء مع الصبح[1].

رواية الطبري:

ذكر الطبري روايةً طويلةً حول قضيَّة السقيفة، ولعلَّها هي الوحيدة التي استوعبت كلّ أحداث ذلك اليوم، نقلها عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري: أنّ النبي ﷺ لمّا قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد سعد بن عبادة، وأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض، فلمّا اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمّه: إنِّي لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلّهم كلامي ولكن تلق منّي قولي فأسمعهم، فكان

---

(1) الاكتفاء 2/ 53؛ لقد نصّ على صحّة مغازي ابن عقبة جملة من العلماء مثل مالك وابن معين واعتبروها أصحّ المغازي المتداولة، وفي ذلك يقول الذهبي في السير 6/ 114 بعد أن نقل تصحيح وثناء العلماء على مغازي ابن عقبة: وأمّا (مغازي موسى بن عقبة) : فهي في مجلد ليس بالكبير، سمعناها، وغالبها صحيح، ومرسل جيد، لكنها مختصرة، تحتاج إلى زيادة بيان، وتتمة؛ وقد أحسن في عمل ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في تأليفه المسمَّى بكتاب (دلائل النبوة)؛ وقد لخصت أنا الترجمة النبوية، والمغازي المدنية، في أول (تاريخي الكبير) ، وهو كامل في معناه - إن شاء الله -

يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، أنّ محمدا لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلّا رجال قليل، وكان ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزّوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيمًا عموا به، حتّى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، وخصّكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدّ الناس على عدوّه منكم، وأثقله على عدوّه من غيركم، حتّى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيد المقادة صاغرًا داخرًا حتَّى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب، وتوفّاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين، استبدّوا بهذا الأمر دون الناس، فأجابوه بأجمعهم أن قد وفّقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإنّك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى، ثم إنَّهم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأوَّلون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم: فإنَّا نقول إذا منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن، وأتى عمر الخبر فأقبل إلى منزل النبي ﷺ فأرسل إلى أبي بكر وأبو بكر في الدار وعلي بن أبي طالب دائب

في جهاز رسول الله ﷺ، فأرسل إلى أبي بكر أن أخرج إلي، فأرسل إليه إنِّي مشتغل إليه، إنّه قد حدث أمر لابدَّ لك من حضوره، فخرج إليه فقال: أما علمت أنّ الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول منّا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح، فماشوا إليهم ثلاثتهم فلقيهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة فقالا لهم: ارجعوا فإنَّه لا يكون ما تريدون، فقالوا: لا نفعل، فجاؤوا وهم مجتمعون، فقال عمر بن الخطاب: أتيناهم وقد كنت زويت كلاما أردت أن أقوم به فيهم، فلمّا أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق، فقال لي أبو بكر: رويدًا حتى أتكلّم ثم أنطق بعد بما أحببت، فنطق فقال عمر: فما شيء كنت أردت أن أقوله إلّا وقد أتى به أو زاد عليه، فقال عبد الله بن عبد الرحمن: فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ الله بعث محمدًا رسولًا إلى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدّوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتّى ويزعمون أنها لهم عنـــده شافعة ولهم نافعـــة وإنما هي مـــن حجـــر منحوت وخشب منجـــور، ثم قرأ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وقالوا ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخصّ الله المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدّة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إيّاهم، وكلّ الناس لهم مخالف زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلّة عددهم وشنف الناس

لهم وإجماع قومهم عليهم، فهم أوّل من عبد الله في الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ولا ينازعهم ذلك إلّا ظالم وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلّة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور، قال: فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم، فإنَّ الناس في فيئكم وفى ظلِّكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلّا عن رأيكم، أنتم أهل العزّ والثروة وأولوا العدد والمنعة والتجربة ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم، أبى هؤلاء إلّا ما سمعتم، فمنّا أمير ومنكم أمير، فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيّها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولّي أمرها من كانت النبوّة فيهم وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لاثم أو متورّط في هلكة، فقام الحباب بن المنذر فقال: يا معشر الأنصار، املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد وتولّوا عليهم هذه الأمور، فأنتم

والله أحقُّ بهذا الأمر منهم، فإنَّه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك وغذيقها المرجب أما والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة، فقال عمر: إذا يقتلك الله، قال: بل إيّاك يقتل، فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنّكم أوّل من نصر وآزر فلا تكونوا أوّل من بدَّل وغيَّر، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار، إنَّا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبيّنا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإنَّ الله ولى المنة علينا بذلك، ألا إنّ ﷺ من قريش، وقومه أحقّ به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم، فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيّهما شئتم فبايعوا، فقالا: لا والله، لا نتولَّى هذا الأمر عليك، فإنّك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدَّمك أو يتولّى هذا الأمر عليك، ابسط يدك نبايعك، فلمّا ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير بن سعد عققت عقاق ما أحوجك إلى ما صنعت، أنفست على ابن عمَّك الإمارة؟ فقال: لا والله، ولكنِّي كرهت أن أنازع قومًا حقًّا جعله الله لهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم

بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم،...، فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطؤون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتقوا سعدا لا تطؤوه، فقال عمر: اقتلوه قتله الله، ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك، فأخذ سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفى فيك واضحة، فقال أبو بكر: مهلًا يا عمر الرفق ههنا أبلغ فأعرض عنه عمر، وقال سعد: أما والله لو أنّ بي قوّة ما أقوى على النهوض لسمعت منّي في أقطارها وسككها زئيرًا يحجرك وأصحابك، أما والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع، احملوني من هذا المكان[1].

ونقل لنا رواية أخرى تتحدَّث عن حصول اشتباك مسلَّح في السقيفة: لمَّا قام الحباب بن المنذر انتضى سيفه وقال: أنا جذيلها المحكك وغذيقها المرجّب، أنا أبو شبل في عرينة الأسد يعزى إلى الأسد، فحامله عمر فضرب يده فندر السيف فأخذه، ثم وثب على

(1) تاريخ الطبري 2/ 455؛ قال ابن الأثير في كامله 1/ 3 واصفًا كتاب الطبري: فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو الكتاب المعوّل عند الكافّة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه...وإنّما اعتمدت عليه من بين المؤرّخين إذ هو الإمام المتقن حقًّا، الجامع علما وصحّة اعتقاد وصدقًا.

سعد ووثبوا على سعد وتتابع القوم على البيعة وبايع سعد وكانت فلتة كفلتات الجاهلية قام أبو بكر دونها، وقال قائل حين أوطئ سعد: قتلتم سعدًا، فقال عمر: قتله.. الله إنّه منافق واعترض عمر بالسيف صخرة فقطعه[1].

شورى السيوف:

إنَّ هذه الروايات تُصوِّر لنا حقيقة ما حصل في سقيفة بني ساعدة بلا تزيين ولا تزويق: صراع قبلي وعصبيَّات جاهلية وُظِّفت في نزاع الزعامة، والأهمّ من هذا استعمال لغة القوّة والتهديد والوعيد، بل سلّ السيوف والاشتباك في داخل السقيفة التي من المفترض أن تكون مكانًا للتشاور وتبادل الآراء حول مستقبل الحكم!

أضف إلى ما تقدّم تغييب أهل السقيفة لبقيّة الأمَّة الإسلاميَّة وعلى رأسهم الأقرب لرسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وبني هاشم، فلم يفكِّر أحد منهم في أخذ رأيهم في الموضوع ولا حتى الإشارة إليها، بل حتَّى رسول الله ﷺ كان غائبًا في تلك الشورى، فلم نجد أحدًا تطرَّق إلى أحاديث النبي ﷺ حول موضوع الخليفة والخلافة.

انتهى اجتماع السقيفة ببيعة من حضر من المهاجرين لأبي بكر وكذلك بايعه الأوس نكاية بالخزرج الذين طمحوا في هذا المنصب

(1) تاريخ الطبري 2/ 459.

وأرادوا تولية سعد بن عبادة الأمر، إلّا أنَّ هذا الأمر لا يعني استتباب الأمن لأبي بكر لأنَّ بقيّة سكان المدينة والمدن الأخرى لم يكن لهم أيُّ مشاركة في كلّ ما جرى ذلك اليوم، وبالتالي ستكون هناك جملة من الإجراءات التي سيتَّخذها الحاكم الجديد لتثبيت عرشه.

15

الملك العقيم

لعلَّ ما تقدَّم كـان كافيـا لتغييـر نظـرة كـلٍّ مـن خُـدِعَ بقـضيَّة الشورى لأوّل انتقال في السلطة في تاريخ المسلمين، فالأمر لم يكـن فيه شورى لا من قريب ولا من بعيد بل كان شعار عمر بن الخطاب مهنـدس الحكـم في ذلـك الوقـت: لا والله، لا يخالفنـا أحـد إلّا قتلناه[1].

(1) الاكتفاء 2/ 54.

وما سيأتيك الآن هو مجرَّد لمحة بسيطة عن ما فعلته السقيفة وأصحابها بأهل ذلك الزمان:

الاغتيال السياسي:

تقدَّم في رواية السقيفة أنّ سعد بن عبادة كان مرشَّحًا لنيل منصب الخلافة بعد أن قدّمه قومه لذلك، واختيار أبي بكر لم يكن برضاه أو برضى قومه بل كان تحت الوعيد والتهديد، ويكفينا للتدليل على هذا ما ذُكر في رواية البخاري التي يسلِّم الكلُّ بصحّتها حيث ورد فيها: ثم بايعته الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة[1].

أمّا رواية الطبري فإنّها تُفصِّل ما جرى على سعد بن عبادة وحقيقة الوضع: فأقبل الناس من كل جانب يُبايعون أبا بكر وكادوا يطؤون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحاب سعد: اتّقوا سعدا لا تطؤوه، فقال عمر: اقتلوه قتله الله، ثم قام على رأسه فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك، فأخذ سعد بلحية عمر فقال: والله لو حصصت منه شعرة ما رجعت وفي فيك واضحة، فقال أبو بكر: مهلًا يا عمر الرفق ههنا أبلغ فأعرض عنه عمر، وقال سعد: أما والله لو أنّ بي قوّة ما أقوى على النهوض لسمعت منّي في أقطارها وسككها زئيرًا يحجرك وأصحابك، أما والله إذا لألحقنَّك بقوم كنت فيهم تابعًا غير متبوع، احملوني من هذا المكان[2].

---

(1) صحيح البخاري 8/ 25.

(2) تاريخ الطبري 2/ 455.

هذا ما حدث في سقيفة بني ساعدة، أمّا بعدها فقد بقي سعد بن عبادة معارضًا لحاكم السقيفة غير قابل بشرعيّة ملكه وهذا ما نجده جليًّا في ذيل رواية الطبري والتي فيها: وتُرك أيّامًا ثم بُعث إليه أن أقبل فبايع فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل، وأخضّب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي، فلا أفعل وأيم الله لو أنّ الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتّى أعرض على ربِّي وأعلم ما حسابي، فلمّا أتي أبو بكر بذلك قال له عمر: لا تدعه حتّى يبايع، فقال له بشير بن سعد: إنَّه قد لجَّ وأبى، وليس بمبايعكم حتّى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس تركه بضارِّكم، إنّما هو رجل واحد، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد واستنصحوه لما بدا لهم منه، فكان سعد لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ويحجّ ولا يفيض معهم بإفاضتهم، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر[1].

وكلام سعد يدلّ على أنّ القضيّة لم تكن مجرّد نزاع سياسي خسره في السقيفة، بل الظاهر أنّه يعلم عن القوم أشياء عظيمة تمنعه من أن يُبايعهم ويذعن لحكمهم فهو يصرِّح بأنَّ قتالهم واجب عليه، وأنّ موته في سبيل ذلك فيه مرضاة لله ﷻ، ومن هنا كان بقاء سعد

(1) تاريخ الطبري 2/ 459.

بن عبادة خطرًا يهدِّد عرش السقيفة ولذلك اغتيل مباشرةً بعد أن تولّى عمر بن الخطاب الحكم:

قال ابن عبد البرّ في الاستيعاب: ولم يختلفوا أنّه وجد ميّتًا في مغتسله وقد اخضرَّ جسده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلًا يقول ولا يرون أحدًا:

قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْرَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةْ   وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمٍ فَلَمْ يُخْطِ فُؤَادَهْ

ويقال: إنّ الجنّ قتلته(1).

ومنهم من ذكر أنّ السبب في قتله عين أصابته من الجنّ، قال العيني: قال الخطابي: عيون الجن أنفذ من الأسنّة، ولما مات سعد سُمع قائل من الجنّ يقول:

قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْرَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةْ   وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمٍ فَلَمْ يُخْطِ فُؤَادَهْ

قال: فتأوّله بعضهم، أي: أصبناه بعين(2)!!

فما حصل لسعد بن عبادة كان جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصّد، أعلنت يوم السقيفة عندما قال قائلهم: "اقتلوا سعدا" ونُفّذت بعد سنتين، إلّا أنَّ هذا الملف قد أُقفل لكنّ قضيّته لم تسجّل ضدّ مجهول بل سُجّلت ضدّ الجن الذين قتلوه بسهامهم أو بأعينهم، ومن ذلك التاريخ لم نسمع الجنَّ قتلت أحدًا من الناس!

---

(1) الإستيعاب 2/ 599.

(2) عمدة القاري 21/ 266.

احتلال المدينة:

إنَّ الملاحظ في حوار السقيفة أنَّ أبا بكر وعمر قد كانا يتكلَّمان من منطلق قوَّة، رغم أنَّه بحسب موازين القوى فإنَّ كفَّة الأنصار أرجح نظرًا لكثرتهم وترابطهم بخلاف المهاجرين، وهذا ما جعل البعض يُفسّر أنّ هذه القوّة ليست إلّا ثقة بالنفس وشدَّة في الحقّ من الشيخين، لكنّ المعطيات التاريخيّة تنبؤنا بأمر آخر لا يقلّ خطورة عمّا تقدّم، إذ أنّ الشيخين كانا يمتلكان قوّة ضاربة تمكّنت من مباغتة الكلّ ورجّحت كفّتهم.

وهذه الحقيقة قد صرَّح بها عمر بن الخطاب كما في نقل الطبري: أنّ أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلّا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر[1].

ونقل ابن الأثير نصًّا آخرًا يؤيّد نفس المعنى، قال: وجاءت أسلم، فبايعت، فقوي أبو بكر بهم، وبايع الناس بعد[2].

إذن بالجمع بين النصّين نعلم أنّ تسليم أهل المدينة لأبي بكر كان بعد دخول بني أسلم وبيعتهم له، لكن يبقى الغموض سيّد

(1) تاريخ الطبري 2/ 459.

(2) الكامل في التاريخ 2/ 331؛ التزم ابن الاثير بصحّة ما ينقله في تاريخه حيث قال في مقدّمة كتابه 1/ 4: على أنّي لم أنقل إلّا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممّن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحّة ما دوّنوه ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصباء والآلي.

الموقف: ما العلاقة بين أبي بكر وعمر من جهة وبين بني أسلم؟ فلا يوجد حلف بين قبائلهم ولا ارتباط مسبق تحدّث عنه التاريخ؟!

الجواب على هذا السؤال تجده في بعض المصادر غير السنيّة التي نقلت عن كتب أبي مخنف لوط بن يحيى[1] أشهر المؤرّخين في عصره حيث روى: كان جماعة من الأعراب قد دخلوا المدينة ليمتاروا منها، فشُغل الناس عنهم بموت رسول الله ﷺ، فشهدوا البيعة، وحضروا الأمر، فأنفذ إليهم عمر واستدعاهم، وقال لهم: خذوا بالحظّ من المعونة على بيعة خليفة رسول الله، واخرجوا إلى الناس واحشروهم ليُبايعوا، فمن امتنع فاضربوا رأسه وجبينه، قال: والله لقد رأيت الأعراب تحزَّموا، واتّشحوا بالأزر الصنعانية، وأخذوا بأيديهم الخشب، وخرجوا حتى خبطوا الناس خبطًا، وجاؤوا بهم مكرهين إلى البيعة[2].

ولا يمكن عند التعرُّض لهذه الأحداث إغفال ما ذكره سليم بن قيس الهلالي الذي يعتبر أقدم من أرّخ لهذه الأحداث، فهو الذي نقل عن من شهد الواقعة بلا واسطة، قال: فلمّا قُبض رسول الله ﷺ تخوَّفتُ أن تتظاهر قريش على إخراج هذا الأمر من بني هاشم، فلمّا صنع الناس ما صنعوا من بيعة أبي بكر أخذني ما يأخذ الواله

(1) لوط بن يحيى الأزدي الغامدي (توفي سنة 157هـ) كان والده من أصحاب علي بن أبي طالب ، والجدير بالذكر أنّ لهذا المؤرّخ كتاب اسمه (السقيفة) ولعلّ هذه الروايات وماقبلها منقولة منه.

(2) الجمل: 59، كما نقله ابن أبي الحديد في شرحه للنهج: 1/ 219.

الثكول، مع ما بي من الحزن لوفاة رسـول الله ﷺ، فجعلـت أتـردَّد وأرمق وجوه الناس، وقد خلا الهاشـميون برسـول الله ﷺ لغسله وتحنيطه، وقد بلغني الذي كان من قول سعد بن عبادة ومـن اتبعـه من جهلة أصحابه، فلم أحفل بهم، وعلمت أنه لا يـؤول إلى شيء، فجعلتُ أتردَّد بينهم وبـين المسجد، وأتفقَّـد وجـوه قـريش، فـإنّي لكذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، ثم لم ألبث حتى إذا أنـا بـأبي بكـر وعمر وأبي عبيدة قد أقبلوا في أهل السقيفة وهم محتجـزون بـالأزر الصنعانية، لا يمرّ بهم أحـد إلا خبطـوه، فـإذا عرفـوه مـدّوا يـده، فمسحوها على يد أبي بكر، شاء ذلك أم أبى[1].

فدخول هذه الأعداد من أعراب بني أسلم لم يكن صـدفة بـل كان مخطّطا له مسبقًا، ولعلَّ الذي أعطاهم إشارة البدء في التنفيذ هو الصحابي الذي كان خارج المدينة في يوم وفاة رسـول الله ﷺ تحـت ذريعـة الـذهاب لزوجتـه في الـسنح، وبـثّ الـشبهة بـين النـاس وتشكيكهم في وفاة النبي ﷺ كان لغرض كـسب الوقـت لـدخول هذه الجموع للمدينة، وبالتالي يكون هذا الحـزب الأكثـر اسـتعدادا لمواجهة كلّ من يعارض هذا الحكم الجديد، فأيّ شورى هذه؟!

هل انتهت المعارضة؟

كان سعد بن عبادة يُمثِّل أهمّ معارض من الأنـصار، فالرجـل كان زعيم الخزرج وكبيرهم إلّا أنّ مرضـه ومخالفـة الأوس مكَّنـت

(1) كتاب سليم: 138.

الحكام الجدد من تحييده هو وقبيلته منذ يوم السقيفة وإقصائه من ساحة المنافسة، بل إخراج كلّ الأنصار من هذه الدائرة، لكن المشكلة العويصة التي بقيت تواجه هؤلاء هي المعارضة الموجودة في المهاجرين المتمثّلة في بني هاشم وحلفائهم، فالمرشّح الأصلي لها المنصب بل الذي نُصّ عليه ونُصّب فعلا في يوم الغدير هو: عليٌّ بن أبي طالب الهاشمي، وعدم خضوع هذا الرجل يعني عدم خضوع بني هاشم الأقرب لرسول الله ﷺ وبالتالي عدم استقرار الملك!

ومن هنا فإنَّ الصدام مع بني هاشم لاسيما البيت العلوي آتٍ لا محالة، ولذلك اتجهت الأنظار نحو بيت فاطمة بنت رسول الله ، فحسم النزاع لا يكون إلَّا بالعبور من هذا البيت.

16

فإنّ محمداً قد مات

لم يكن أحد يتوقّع أنّ أبا بكر قد قصد كلّ ما تحمله الكلمة من معنى عندما قال: فإنّ محمّدا قد مات[1]، إذ أنّه طبّق هذه العبارة تطبيقًا عمليًّا في صراعه مع عليّ بن أبي طالب وبقيّة أفراد البيت النبوي ، فلم يُبد أيّ تعاطف ولين في التعامل مع معارضتهم لحكمه، ولذلك حصلت أحداث خطيرة جدًّا مثّلت أوج الصراع على الكرسيّ في تلك الحقبة.

(1) صحيح البخاري 5/ 143.

المعارضة السلبيّة:

يكاد الكلُّ أن يجمع على أنَّ علي بن أبي طالب قد اتخذ دور "المعارضة السلبيّة"، فهو منذ وفاة رسول الله ﷺ لم يخرج من داره ولم يتعرّض لقضيّة الحكم أصلًا، وهذا ما أزعج السلطات إذ أنّ وجوده في بيته ودخول الخواص عليه دون غيرهم يجعلهم يرتابون في الأمر ويخافون ممّا يمكن أن يخطّط له، خصوصًا وأنّه لم يصدر منه أيّ تصريح رسمي يبيّن فيه موقفه من كلّ ما حصل.

قال ابن سحاق: ولمّا قبض رسول الله ﷺ انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بنى ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة[1].

وقال ابن الأثير: فقال: وتخلّف عن بيعته: علي، وبنو هاشم، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد بن العاص، وسعد بن عبادة الأنصاري[2].

الحسابات السياسيّة:

ليس من الممكن السكوت عن علي بن أبي طالب كما سُكت عن سعد بن عبادة، فهذا الأخير لا يمتلك سابقة في الإسلام ورصيدًا عاطفيًا في قلوب المسلمين كالذي يمتلكه الإمام عليّ، ولم يكن له من الفضائل والخصائص كالتي ملأ بها النبي ﷺ الخافقين

(1) سيرة ابن هشام 4/ 1071.

(2) أسد الغابة 3/ 223.

في حقّ عليّ، ومن هنا كان لابدّ من التحرُّك السريع قبل أن يبادر عليّ بالتحرُّك خصوصا وأنّ كفّة كبار المهاجرين تميل إليه:

فقد ذكر ابن الفداء في تاريخه: فبايع عمر أبا بكر، وانثال الناس عليه يبايعونه في العشر الأوسط من ربيع الأول سنة إحدى عشرة، خلا جماعة من بني هاشم، والزبير، وعتبة بن أبي لهب، وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبي ذر، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبيّ بن كعب، ومالوا مع علي بن أبي طالب[1].

بل نقل الطبري نصًّا يفيد أنّ بعض الأنصار امتنعوا عن بيعة أبي بكر بسبب ولائهم لعلي، قال: فقالت الأنصار أو بعض الأنصار لا نبايع إلّا عليًّا[2].

ومن هنا فإنّ أيّ تحرّك علويّ سيكون خطيرًا جدًّا مع وجود هذه الشعبيّة في أوساط الناس، والأهمّ من هذا أنّ القوم لا حجّة لهم أمامه: فما استدلّوا به في السقيفة على الأنصار هو عين ما يمكن أن يستدلّ به عليّ عليهم فيكون أقوى حجّة بذلك[3]، فضلًا عن رصيده الكبير من الأحاديث النبويّة، وبالتالي فلا مجال للدخول في

(1) تاريخ أبي الفداء 1/ 156.

(2) تاريخ الطبري 2/ 443.

(3) كانت حجّة أبي بكر وعمر في السقيفة قربهم من النبي ﷺ لكونهم قرشيّين، ونسوا أو تناسوا أنّ عليّا أقرب منهم نسبًا وسببًا من النبي ﷺ.

نقاشات معه في هذا الأمر خصوصًا مع بلاغته التي يُضرب بها المثل، فلم يبق إلّا حلّ واحد وهو استعمال لغة القوّة!

الأمر بالحسم:

صدر الأمر من الخليفة أبي بكر بالتوجّه لدار عليّ وفاطمة بنت محمد وجعلهم أمام خيارين إمّا البيعة كما بايع الناس أو أن يحكم السيف بين الحزبين، وقد نقل أبو فداء في تاريخه هذا الأمر فقال: ثم إنّ أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى عليّ ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة رضى الله عنها ، وقال: إن أبوا عليك فقاتلهم، فأقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار[1] .

وقد نُقلت رواية أصرح من ذلك عن ابن شهاب الزهري: وغضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر، منهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فدخلا بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ومعهما السلاح، فجاءهما عمر في عصابة من المسلمين، فيهم أسيد وسلمة بن سلامة بن وقش، وهما من بني عبد الأشهل، ويُقال: فيهم ثابت بن قيس بن الشماس أخو بني الحارث بن الخزرج، فأخذ أحدهم سيف الزبير، فضرب به الحجر حتى كسره، قال موسى بن عقبة: قال سعد بن إبراهيم: حدَّثني إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنَّ عبد الرحمن كان مع عمر يومئذٍ، وأنّ محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير، والله أعلم[2] .

---

(1) المختصر في أخبار البشر 1/ 156 .

(2) السنة لعبد الله بن أحمد: 397، منقولة عن مغازي موسى بن عقبة التي تقدّم بيان صحّتها.

وذكر ابن أبي الحديد المعتزلي رواية مهمّة عن ابن شبّة النميري الذي له كتاب مؤلّف حول أحداث السقيفة لم يصل إلينا، نقلها عن الشعبي، قال: سأل أبو بكر، فقال أين الزبير؟ فقيل: عند علي وقد تقلّد سيفه، فقال: فقم يا عمر، قم يا خالد بن الوليد، انطلقا حتى تأتياني بهما. فانطلقا، فدخل عمر، وقام خالد على باب البيت من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ فقال: نبايع عليًّا. فاخترطه عمر، فضرب به حجرًا فكسره، ثم أخذ بيد الزبير، فأقامه، ثم دفعه، وقال: يا خالد دونكه فأمسكه. ثم قال لعلي: قم فبايع لأبي بكر. فتلكّأ واحتبس، فأخذ بيده، وقال: قم. فأبى أن يقوم، فحمله، ودفعه كما دفع الزبير، فأخرجه[1].

أمّا ابن قتيبة الدينوري فقد روى رواية مفصّلة تعتبر أطول ما روي في هذا الباب واحتوت التفاصيل، قال: وإنَّ أبا بكر تفقّد قومًا تخلّفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب، وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجنَّ أو لأحرقنّها على من فيها. فقيل له: يا أبا حفص، إن فيها فاطمة؟ فقال: وإن. فخرجوا فبايعوا إلّا عليًّا، فإنه زعم أنه قال: حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن. فوقفت فاطمة على بابها، فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين

(1) شرح نهج البلاغة 2/ 57.

أيدينا، وقطعتم أمركم بينكم، لم تستأمرونا، ولم تردّوا لنا حقًّا!! فأتى عمر أبا بكر، فقال له: ألا تأخذ هذا المتخلّف عنك بالبيعة؟ فقال أبو بكر لقنفذ وهو مولى له: اذهب، فادع لي عليًّا. قال: فذهب إلى علي، فقال له: ما حاجتك؟ فقال: يدعوك خليفة رسول الله. فقال علي: لسريع ما كذبتم على رسول الله. فرجع فأبلغ الرسالة، قال: فبكى أبو بكر طويلًا، فقال عمر الثانية: لا تمهل هذا المتخلّف عنك بالبيعة، فقال أبو بكر لقنفذ: عُدْ إليه، فقل له: خليفة رسول الله يدعوك لتبايع. فجاءه قنفد، فأدى ما أُمر به، فرفع علي صوته، فقال: سبحان الله! لقد ادَّعى ما ليس له. فرجع قنفذ، فأبلغ الرسالة، فبكى أبو بكر طويلًا[1].

فبالجمع بين النصوص نحن أمام تهديد بالقتل والحرق، ثمَّ اقتحام لبيت فاطمة - الذي أصبح مركزًا للمعارضة بحسب تصوّر أهل السقيفة- فاشتباك مع من فيه من صحابة، كلّ هذا لأجل أنّ هؤلاء لم يقبلوا ببيعة أبي بكر التي من المفترض أنّها كانت شورى!!

بضعة النبي ﷺ:

السؤال الأخطر في خضمِّ هذه الأحداث المتسارعة: ما الذي حدث لفاطمة البنت الوحيدة للنبي ﷺ والتي كانت متواجدة في هذا البيت الذي اقتُحم واشتبكت كتيبة السقيفة مع من فيه؟

(1) الإمامة والسياسة 1/ 20.

لم تتحدّث المصادر السُّنيَّة عن هذا الأمر، إلّا أنَّ مصادر الشيعة[1] قد نقلت هذه القضيّة مفصّلة، ومن أهمّ المصادر التي وثّقت ما جرى في يوم الدار كتاب سليم بن قيس الهلالي الذي سمع صاحبه هذه الأحداث ممّن قد شهدها وعاينها:

فقد روى عن سلمان الفارسي رواية لخّصت كلّ ما مضى، وفيها:... فقال عمر لأبي بكر: ما يمنعك أن تبعث إليه فيبايع؟ فإنّه لم يبق أحد إلّا وقد بايع غيره وغير هؤلاء الأربعة،...، فقال أبو بكر: من نرسل إليه؟ فقال عمر: نرسل إليه قنفذًا، وهو رجل فظّ غليظ جافٍ من الطلقاء، أحد بني عدي بن كعب، فأرسله إليه، وأرسل معه أعوانا، وانطلق، فاستأذن على علي، فأبى أن يأذن لهم، فرجع أصحاب قنفذ إلى أبي بكر وعمر - وهما جالسان في المسجد والناس حولهما- فقالوا: لم يؤذن لنا. فقال عمر: اذهبوا، فإن أذن لكم وإلّا فادخلوا عليه بغير إذن. فانطلقوا فاستأذنوا، فقالت فاطمة: «أحرّج عليكم أن تدخلوا عليَّ بيتي بغير إذن». فرجعوا

---

(1) اكتفيت بنقل أقدم مصدر للحادثة من كتب الشيعة الإماميّة، وإلّا فقد نقلت الحادثة في مصادر أخرى كثيرة: منها كتاب (تثبيت الإمامة) ليحيى بن الحسين إمام الزيديّة في اليمن، وذكر القضيّة القاضي النعمان داعية الإسماعليّة ومفتيهم في كتابه (الأرجوزة المختارة)، وكذلك النظّام رأس المعتزلة في عصره حيث طعنوا فيه بسبب ذكره لهذه الحادثة: قال الشهرستاني في الملل والنحل 1/ 57: وزاد في الفرية فقال: إنّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها، وكان يصيح: «أحرقوا دارها بمن فيها»، وما كان في الدار غير عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

وثبت قنفذ الملعون، فقالوا: إنَّ فاطمة قالت كذا وكذا، فتحرَّجنا أن ندخل بيتها بغير إذن، فغضب عمر، وقال: ما لنا وللنساء؟ ثم أمر أناسًا حوله أن يحملوا الحطب، فحملوا الحطب، وحمل معهم عمر، فجعلوه حول منزل علي وفاطمة وابناهما، ثم نادى عمر حتى أسمع عليًّا وفاطمة: «والله لتخرجنّ يا علي، ولتبايعنّ خليفة رسول الله، وإلّا أضرمتُ عليك بيتك النار»، فقالت فاطمة: يا عمر، ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب، وإلّا أحرقنا عليكم بيتكم. فقالت: «يا عمر، أما تتَّقي الله تدخل عليَّ بيتي؟»، فأبى أن ينصرف؛ ودعا عمر بالنار، فأضرمها في الباب، ثم دفعه فدخل، فاستقبلته فاطمة ، وصاحت: «يا أبتاه يا رسول الله»، فرفع عمر السيف وهو في غمده، فوجأ به جنبها، فصرخت: «يا أبتاه»، فرفع السوط، فضرب به ذراعها، فنادت: «يا رسول الله، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر»، فوثب علي ، فأخذ بتلابيبه، ثم نتره، فصرعه، ووجأ أنفه ورقبته، وهمَّ بقتله، فذكر قول رسول الله ﷺ وما أوصاه به، فقال: «والذي كرَّم محمدًا بالنبوة - يا ابن صهاك - لولا كتاب من الله سبق، وعهد عهده إليّ رسول الله ﷺ لعلمت إنك لا تدخل بيتي»، فأرسل عمر يستغيث، فأقبل الناس حتى دخلوا الدار، وثار علي إلى سيفه، فرجع قنفذ إلى أبي بكر وهو يتخوّف أن يخرج علي إليه بسيفه، لما قد عرف من بأسه وشدته، فقال أبو بكر لقنفذ: «إرجع، فإن خرج وإلّا فاقتحم عليه بيته، فإن امتنع فأضرم عليهم بيتهم النار»، فانطلق قنفذ الملعون، فاقتحم هو وأصحابه بغير إذن، وثار علي إلى سيفه، فسبقوه إليه وكاثروه وهم كثيرون، فتناول بعضهم سيوفهم،

فكاثروه وضبطوه، فألقوا في عنقه حبلًا، وحالت بينهم وبينه فاطمة عند باب البيت، فضربها قنفذ الملعون بالسوط، فماتت حين ماتت وإن في عضدها كمثل الدملج من ضربته، ثم انطلقوا بعلي يتلّ حتى انتهى به إلى أبي بكر، وعمر قائم بالسيف على رأسه، وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل والمغيرة بن شعبة وأسيد بن حضير وبشير بن سعد وساير الناس حول أبي بكر عليهم السلاح، قال – سليم-: قلت لسلمان: أدخلوا على فاطمة بغير إذن؟ قال أي والله، وما عليها خمار فنادت يا أبتاه يا رسول الله فلبئس ما خلفك أبو بكر وعمر، وعيناك لم تتفقأ في قبرك، تنادي بأعلى صوتها، فلقد رأيت أبا بكر ومن حوله يبكون ما فيهم إلّا باكٍ غير عمر وخالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وعمر يقول: أنا لسنا من النساء ورأيهن في شيء، قال: فانتهوا بعلي إلى أبي بكر وهو يقول: أما والله لو وقع سيفي في يدي لعلمتم أنّكم لم تصلوا إلى هذا أبدا، أما والله ما ألوم نفسي في جهادكم، ولو كنت استمسك من أربعين رجلا لفرّقت جماعتكم، ولكن لعن الله أقواما بايعوني ثم خذلوني، ولما أن بصر به أبو بكر صاح: خلّوا سبيله، فقال علي: يا أبا بكر ما أسرع ما توثّبتم على رسول الله ﷺ، بأيّ حقّ وبأيّ منزلة دعوت الناس إلى بيعتك؟ ألم تبايعني بالأمس بأمر الله وأمر رسول الله؟[1]

قال: ولما انتهى بعلي إلى أبي بكر انتهره عمر وقال: له بايع ودع

(1) كتاب سليم: 153

عنك هذه الأباطيل، فقال له علي : فإن لم أفعل فما أنتم صانعون؟ قالوا نقتلك ذلًا وصغارًا، فقال: إذا تقتلون عبد الله وأخا رسوله ﷺ قال أبو بكر: أما عبد الله فنعم، وأمّا أخو رسول الله ﷺ فما نقرّ لك بهذا، قال: أتجحدون أن رسول الله ﷺ آخا بيني وبينه؟ قال: نعم ، فأعاد ذلك عليه ثلاث مرات، ثم أقبل عليهم علي فقال: يا معشر المسلمين والمهاجرين والأنصار، أنشدكم الله أسمعتم رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم كذا وكذا وفي غزوة تبوك كذا وكذا، فلم يدع على شيئًا قاله فيه رسول الله ﷺ علانية للعامة إلّا ذكّرهم إياه، فقالوا: اللهم نعم، فلمّا تخوّف أبو بكر أن ينصره الناس وأن يمنعوه بادرهم فقال: كلما قلت حقّ قد سمعناه بآذاننا ووعته قلوبنا ولكن قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: بعد هذا إنّا أهل بيت اصطفانا الله وأكرمنا، واختار لنا الآخرة على الدنيا، وإنّ الله لم يكن ليجمع لنا أهل البيت النبوة والخلافة، فقال علي : هل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ شهد هذا معك؟ فقال عمر: صدق خليفة رسول الله، قد سمعنا هذا منه كما قال، وقال أبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل: قد سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ[1].

وعدم ذكر المصادر السُّنَّية لهذه الأحداث راجع إلى الرقابة الشديدة التي ضُربت على رواة الحديث والتي فصَّلنا البحث فيها في الفصول الأولى من الكتاب، ومن أصرح الشواهد على وجود رقابة على خصوص هذه الحادثة ما ذكره الذهبي في ترجمة ابن أبي دارم،

---

(1) كتاب سليم: 153

حيث نقل عن الحافظ محمد بن أحمد بن حمّاد الكوفي قوله: كان مستقيم الأمر عامّة دهره، ثم في آخر أيامه كان أكثر ما يُقرأ عليه المثالب، حضرته ورجل يقرأ عليه: إنَّ عمر رفس فاطمة حتى أسقطت بمحسن[1].

فهذا الراوي ضُعّف لا لعدم صدق لهجته ولا لرواياته أحاديث رديئة بحسب اصطلاح أحمد بن حنبل، بل لكون هذه الأحاديث الرديئة قد قُرئت بمحضره فاستحقَّ بذلك الترك!

ورغم فظاعة الصورة وعظم الجرم فإنّ عليًّا قد صمد في هذا الموقف ولم يظهر أيّ خضوع أو خنوع، بل كان موقفه البطولي في المسجد النبوي بمثابة الفضيحة لأصحاب السقيفة حيث أوصل للناس رسالة واضحة وصريحة مفادها: أنّ الشرعيّة الدينيّة هي لي وليست لأبي بكر.

محاولات التبرير:

تُعتبر هذه الأحداث نقطة سوداء في تاريخ أصحاب السقيفة، ورغم الرقابة التي ضُربت لمن تسرّب مثل هذه الأمور؛ فإنّ الأمر كما رأيت: شاع وانتشر في كتب التاريخ والسيرة والحديث، فلا مناص من إثباته والالتزام بصحّة وقوع هذه الأحداث، ولعدم إمكانيّة إنكار هذه الأمور عمد بعض المؤرِّخين إلى تبرير هذا الموقف العنيف من أهل السقيفة!

---

(1) ميزان الاعتدال 1/ 139.

وقد اختلفت كلمات المؤرّخين في التبرير لما جرى وتعدَّدت آراؤهم، إلّا أنّي سأكتفي بنقل تبرير ابن تيميّة الحرّاني لما يمثّله من ثقل ديني عند قومه، قال: وغاية ما يُقال: إنّه كبس البيت لينظر هل فيه شيء من مال الله الذي يقسمه وأن يعطيه لمستحقّه، ثم رأى أنَّه لو تركه لهم لجاز، فإنَّه يجوز أن يعطيهم من مال الفيء، وأما إقدامه عليهم أنفسهم بأذى فهذا ما وقع فيه قط باتفاق أهل العلم والدين[1].

فالهجوم بحسب نظره لم يكن لغرض إرغام القوم على البيعة وترهيبهم من معارضة حكومة السقيفة، بل كان الغرض الأساسي منه هو تفتيش البيت للبحث عن أموال الفيء التي هي بمثابة المال العمومي في هذا الزمن، فكلّ هذا الحصار وكلّ هذا التهديد والوعيد وما مرّ عليه في الروايات السابقة هو مجرّد حملة تفتيشيَّة روتينيَّة تقوم بها أجهزة الدولة!

أمّا من كان صادقًا مع نفسه فقد اعترف بوقوع الهجوم واعتبر الأمر هو مجرّد إجراء حكوميّ ضروريّ مع المعارضة، مثل ابن أبي عاصم الذي قال: وفي حديث عمر بن الخطاب ما يدلّ على أنّ الإمام إذا بلغه أنَّ قومًا يجتمعون على أمر يُخاف أن يحدث عن اجتماعهم ما يكون فيه فساد: أن يتقدّم إليهم ويوعدهم في ذلك وعيدًا يرهبون به...[2].

---

(1) منهاج السنة النبوية 8/ 291.

(2) المذكّر والتذكير والذكر: 97، ويقصد بكلامه حديث ابن أبي شيبة والذي فيه: وأيم الله لئن بلغني ذلك لأحرقنّ عليهم البيت؛ علمًا أنّ محقّق الكتاب قد صحّح هذه الرواية في هامش صفحة91.

وقعت حرب شديدة وبلاء طويل، فندم على ما أمره به، فلم ينم ليلته تلك حتى أصبح، ثم أتى المسجد وقد أقيمت الصلاة، فتقدّم فصلّى بالناس مفكّرًا، لا يدري ما يقول، وأقبل خالد بن الوليد متقلّدًا بالسيف حتى قام إلى جانب علي ، وقد فطن علي ببعض ذلك، فلمّا فرغ أبو بكر من تشهده صاح قبل أن يسلِّم: يا خالد لا تفعل ما أمرتك، فإن فعلت قتلتك. ثم سلّم عن يمينه وشماله، فوثب علي، فأخذ بتلابيب خالد، وانتزع السيف من يده، ثم صرعه، وجلس على صدره، وأخذ سيفه ليقتله، واجتمع عليه أهل المسجد ليخلِّصوا خالدًا، فما قدروا عليه، فقال العباس: حلّفوه بحق القبر لما كففت. فحلّفوه بالقبر فتركه، وقام فانطلق إلى منزله[1].

ورويت بتفاصيل أكثر في تفسير القمّي: فرجع أبو بكر إلى منزله، وبعث إلى عمر، فدعاه، ثم قال: أما رأيت مجلس علي منا اليوم؟ والله لإن قعد مقعدًا مثله ليفسدنّ أمرنا، فما الرأي؟ قال عمر: الرأي أن تأمر بقتله. قال: فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد. فبعثا إلى خالد فأتاهما، فقالا: نريد أن نحملك على أمر عظيم. قال: حملاني ما شئتما ولو قتل علي بن أبي طالب. قالا: فهو ذاك. فقال خالد: متى أقتله؟ قال أبو بكر: إذا حضر المسجد فقم بجنبه في الصلاة، فإذا أنا سلَّمت فقم إليه فاضرب عنقه. قال: نعم. فسمعت أسماء بنت عميس ذلك، وكانت تحت أبي بكر، فقالت لجاريتها:

---

(1) كتاب سليم: 395.

اذهبـي إلى منزل علي وفاطمة، فأقـرئيهما السلام، وقـولي لعلي: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فجاءت الجارية إليهما، فقالت لعلي: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ إنّ أسماء بنت عميس تقرأ عليكما السلام، وتقول ، فقال علي قولي لها: إنّ الله يحيل بينهم وبين ما يريدون. ثم قام وتهيّأ للصلاة، وحضر المسجد، ووقف خلف أبي بكر، وصلى لنفسه، وخالد بن الوليد إلى جنبه ومعه السيف، فلمّا جلس أبو بكر في التشهد ندم على ما قال، وخاف الفتنة وشدّة علي وبأسه، فلم يزل متفكّرًا لا يجسر أن يسلّم، حتى ظنّ الناس أنه قد سها، ثم التفت إلى خالد، فقال: يا خالد لا تفعل ما أمرتك به، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال أمير المؤمنين : يا خالد ما الذي أمرك به؟ قال: أمرني بضرب عنقك. قال: وكنت تفعل؟ قال: إي والله، لولا أنَّه قال لي: «لا تفعل» لقتلتك بعد التسليم. قال: فأخذه علي ، فضرب به الأرض، واجتمع الناس عليه، فقال عمر: يقتله ورب الكعبة. فقال الناس: يا أبا الحسن، الله الله بحقّ صاحب هذا القبر، فخلَّى عنه، قال: فالتفت إلى عمر وأخذ بتلابيبه، وقال: يا ابن الصهاك، لولا عهد من رسول الله ﷺ وكتاب من الله سبق لعلمت أيّنا أضعف ناصرا وأقل عددًا، ثم دخل منزله[1] .

والعجيب أنَّ أحد كبار علماء الشيعة المتقدّمين – الفضل بن

---

(1) تفسير القمي 2/ 158، ونقلها صاحب (الاحتجاج) بتفاوت بسيط 1/ 118.

شاذان النيسابوري- قد نقل هـذه القـضيّة عـن كُتـب أهـل الـسنَّة والجماعة، بل أصرَّ على شهرتها وشيوعها بينهم، قـال: روى سـفيان بن عيينة، والحسن بن صالح بن حيّ، وأبو بكر بن عياش، وشريك بن عبد الله، وجماعة من فقهائكم، أنَّ أبا بكر أمر خالد بـن الوليـد، فقال: إذا أنا فرغت من صلاة الفجر وسلّمت فاضرب عنق عـلي، فلمّا صلّى بالناس في آخر صلاته ندم عـلى مـا كـان منـه، فجلـس في صلاته مفكّرًا، حتى كادت الشمس أن تطلع، ثم قال: يـا خالـد لا تفعل ما أمرتك به (ثلاثا)، ثم سلّم، وكان علي يصلّي إلى جنب خالد يومئذٍ، فالتفت علي إلى خالد فإذا هـو مـشتمل عـلى الـسيف تحـت ثيابه، فقال له: يا خالد أو كنت فاعلًا؟ قال: إي والله، إذن لوضـعتُه في أكثرك شعرًا، فقال علي صلوات الله عليه: كذبت ولؤمت، أنـت أضيق حلقة من ذاك، أما والذي فلق الحبة وبـرأ النـسمة، لـولا مـا سبق به القضاء لعلمتَ أي الفريقين شرٌّ مكانًا وأضعف جندًا[1].

إلى أن يقول: فهذه روايـتكم عـلى أبي بكـر، إلّا أنّ مـنكم مـن يكتم ذلك، ويستشنعه فلا يُظهره، وقد جعلتم هذا الحـديث حُجَّـة في كتاب الصلاة، في بـاب مـن أحـدث قبـل أن يـسلّم وقـد قـضى التشهد، أنّ صلاته تامّة؛ وذلك أنّ أبا بكر أمر خالد بن الوليد بأمر، فقال: إذا أنا سلَّمتُ من صلاة الفجر فافعل كذا وكذا. ثم بدا لـه في ذلك الأمر، فخاف إن هو سلَّم أن يفعل خالد ما أمره به، فلما قـضى

(1) الإيضاح: 155.

التشهد قال: يا خالد لا تفعل ما أمرتك [به]. ثم سلَّم؛ وقد حدَّث به أبو يوسف القاضي ببغداد، فقال له بعض أصحابه: يا أبا يوسف: وما الذي أمر أبو بكر خالد بن الوليد [به]؟ فانتهره، وقال له: اسكت، وما أنت وذاك ؟![1].

وليس العجيب أن يروي الشيعة مثل هذه الأخبار فموقفهم معروف مشهور، لكنَّ العجب أن تسلم هذه الأخبار من الرقابة الحكوميّة المفروضة على المؤرّخين فتصل إلينا!

إذ أنَّ بعض المصادر السُّنيَّة قد نقلت لنا طرفًا من هذه الحادثة مطابقًا لما رواه الشيعة:

فمنها: ما ورد في كتاب (الأنساب) للسمعاني في ترجمة عبّاد بن يعقوب الرواجني، قال: روى عنه جماعة من مشاهير الأئمّة مثل أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري؛ لأنّه لم يكن داعية إلى هواه، وروي عنه حديث أبي بكر أنّه قال: لا يفعل خالد ما أُمر به؛ سألت الشريف عمر بن إبراهيم الحسيني بالكوفة عن معنى هذا الأثر، فقال: كان أمر خالد بن الوليد أن يقتل عليًّا، ثم ندم بعد ذلك، فنهى عن ذلك[2].

وعبّاد بن يعقوب من ثقات الرواة، ومن الذين روى لهم البخاري في صحيحه، بل أجمعوا على صدق لهجته رغم تسالمهم على

(1) الإيضاح: 158.

(2) الأنساب 3/ 95.

تشيّعه بل ترفُّضه على حدِّ تعبيرهم حتَّى قال قائلهم: حدَّثنا الثقة في روايته المتّهم في دينه عباد بن يعقوب[1].

ومنها: ما رواه الخلال في (كتاب السنة)، قال: ثنا الأثرم، قال: سمعت أبا عبد الله، وذُكر له حديث عقيل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ في علي والعباس، وعقيل، عن الزهري، أنّ أبا بكر أمر خالدًا في علي، فقال أبو عبد الله: كيف؟ فلم[2] عرفها، فقال: ما يعجبني أن تُكتب هذه الأحاديث[3].

فقوله: "أنّ أبا بكر أمر خالدًا في علي" إشارة إلى هذه الواقعة التي نحن بصدد تناولها، وسندها بحسب هذا النقل صحيح إلَّا أنَّ صرامة أحمد بن حنبل منعت من تداول هذا الحديث واشتهاره، ولعلّه كان متداولًا قبل هذا المنع.

سرّ السكوت العلوي:

لا يزال السؤال المحيّر الذي يؤرِّق الكثير من الذين بحثوا في التاريخ وتطرَّقوا لهذه الحوادث: ما هو سرّ هذا السكوت من طرف

---

(1) تهذيب التهذيب 5/ 95.

(2) هكذا وردت في كتاب السنّة للخلال، أمّا في تاريخ دمشق ٦٤/ ٤٧: "فلـمّا عرفها"؛ وبذلك تستقيم العبارة، فأحمد بن حنبل لمّا سمع تفاصيل الخبر نهى عن التحديث به.

(3) كتاب السنة: 505، وقد صحّح محقّق الكتاب هذا الأثر، لكنّه تورط في متنه، فقال: العبارة غير مستقيمة.

علي بـن أبي طالـب ، فلـم يحـاول أصـلًا مواجهـة القـوم ومحاولـة استرجاع حقّه الذي جعله رسول الله ﷺ له؟!

والجواب نأخذه من لسان الإمام علي الذي قدّم وصفًا دقيقًا لهذه الأحداث فقال: أما والله لقد تقمَّصها فلان وإنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى، ينحدر عنّي السيل، ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلتُ دونها ثوبًا، وطويتُ عنها كشحًا، وطفقتُ أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه، فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا[1].

إذن سكوته عن حقِّه حماية للإسلام وأهله، فلـو حـصل نـزاع مسلّح بين عليّ بن أبي طالب الذي يدين له بالولاء قسم كبير من المسلمين بعد أن سمعوا فضائله ومناقبه من النبي ﷺ، بل بايعوه قبل شهر في غدير خم، وعلى رأس هؤلاء الموالين الجيش المجهَّز لقتال الروم، الذي كان يقوده أسامة بن زيد هـذا مـن جهـة، ومـن جهة أخرى بين حزب السقيفة الذين تحالفوا مع بعض الأعراب الذين كانوا يحيطون بالمدينة، ومع بعض كبار قريش الذين كانوا يحملون أحقادًا بدرية أحدية حنينيّة في قلوبهم على عليّ، فستكون الخسائر فادحة من الطرفين، وستستغلّ الأطراف الخارجية كالفرس

(1) نهج البلاغة 1/ 31؛ تعرف هذه الخطبة بـ"الخطبة الشقشقيّة" وهي من أشهر خطب الإمام عليّ ، قالها في السنة الأخيرة من حياته.

والروم هذا الصراع الداخلي لاجتياح بلاد المسلمين وإعادة السيطرة عليهم، ولن تقوم للإسلام قائمة بعد ذلك اليوم.

ويظهر من بعض القرائن أنَّ بعض المنافقين كانوا ينتظرون وقوع مثل هذا الخلاف لزعزعة الإسلام من الداخل، فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرك أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى علي بن أبي طالب ، فقال: ما بال هذا الأمر في أقلّ قريش قلّة وأذلّها ذلّة؟! - يعني أبا بكر-، والله لئن شئت لأملأنّها عليه خيلًا ورجالًا. فقال علي: لطالما عاديتُ الإسلام وأهله يا أبا سفيان[1].

فاعتبر أمير المؤمنين عرض أبا سفيان وتحريضه على القتال عداء منه للإسلام وكيد منه لأهله.

وأفضل بيان لما قلناه هو ما نقله ابن أبي الحديد المعتزلي على لسان أمير المؤمنين ، إذ قال: وقد رُوي عنه أنَّ فاطمة حرّضته يومًا على النهوض والوثوب، فسمع صوت المؤذن: «أشهد أنّ محمدًا رسول الله»، فقال لها: أيسرّك زوال هذا النداء من الأرض؟ قالت: لا. قال: فإنّه ما أقول لك[2].

وقد لعب النبي ﷺ دورًا كبيرًا في تهيئة علي بن أبي طالب لهذه الأحداث الخطيرة، فهو الذي أنبأه عن انقلاب الأمّة من بعده وغدرها بوارثه الشرعيّ إذ يقول ﷺ: إنّ الأمَّة ستغدر بك بعدي

(1) المستدرك 3/ 78.

(2) شرح نهج البلاغة 11/ 113.

وأنت تعيش على ملَّتي وتقتل على سُنَّتي[1]؛ وهو الذي أمره بالصبر ما استطاع وعدم الانجرار إلى المواجهة التي ستجرّ وبال الفرقة على هذه الأمَّة فقال: سيكون بعدي اختلاف أو أمر، فإن استطعت أن تكون السلم فافعل[2].

---

(1) المستدرك على الصحيحين 3/ 142؛ علّق الحاكم على الحديث بقوله: صحيح، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(2) مسند أحمد 1/ 90؛ وقد صحّح الحديث أحمد محمد شاكر في تعليقه على المسند 1/ 496.

17

ردّة أم حرب أهليّة

قُمِعَتْ كلّ المعارضة في المدينة المنوّرة، وحُسِمَ النزاع لصالح أبي بكر، ودان له أهلها بالولاء إمّا ترغيبًا وإمّا ترهيبًا، ولم يبق على موقفه إلّا ثلّة قليلة من الناس تمكّنوا من تحمّل التضييق المفروض عليهم من قبل السلطات وحافظوا على موقفهم الديني والسياسي، إلّا أنّ المدينة ليست كلّ الإسلام: فالدولة الإسلاميّة كانت مترامية الأطراف وتعداد سكّانها عشرات الألوف فهل سيذعن هؤلاء للحكومة الجديدة أم سيكون لهم موقف آخر؟

المتنبّؤون:

لا يمكن التشكيك في وجود حركة ردَّة في أوساط العرب بعد وفاة النبي ﷺ، وكان يقود هذه الحركة المتنبّؤون الجدد الذين أرادوا أن تصبح لديهم سلطة دينيّة ودنيويّة كما كانت لرسول الله ﷺ، فيعلو ذكرهم ويرتفع كعبهم، ومن أشهر هؤلاء وأخطرهم: الأسود العنسي، طليحة بن خويلد الأسدي، مسيلمة بن حبيب الكذاب وسجاح، قال ابن إسحاق: ارتدّت أسد وغطفان وعليهم طليحة بن خويلد الأسدي الكاهن، وارتدّت كندة ومن يليها، وعليهم الأشعث بن قيس الكندي، وارتدَّت مذحج ومن يليها وعليهم الأسود بن كعب العنسي الكاهن، وارتدَّت ربيعة مع المعرور بن النعمان بن المنذر، وكانت حنيفة مقيمة على أمرها مع مسيلمة بن حبيب الكذاب وارتدت سليم مع الفجأة، واسمه أنس بن عبد ياليل، وارتدت بنو تميم مع سجاح الكاهنة[1].

ولا ريب أنَّ هؤلاء كانوا يطمعون في مُلك محمد ﷺ ويهدفون إلى الاستيلاء على عرشه، فكانت المدينة المنوّرة هي مقصدهم لأنّها العاصمة التي تُمثِّل الثقل السياسي عند العرب في ذلك الزمن، ولعلّ أخطر هؤلاء وأشدّهم كان طليحة بن خويلد الأسدي الذي دان له بعض الأعراب المحيطين بالمدينة، فكان قاب قوسين أو أدني من السيطرة عليها!

---

(1) البداية والنهاية 6/ 344.

لكن هناك أمران لابدَّ من التوقُّف عندهما:

الأوّل: لقد بدأت حركة الردَّة في زمن رسول الله ﷺ لا في زمن أبي بكر كما هي الرواية الرسميّة:

فمسيلمة الكذَّاب هو صاحب الرسالة المعروفة التي بدأها بقوله: من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله[1]، وأجابه النبي ﷺ بكتاب أوّله: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى أمّا بعد: فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[2]، ولقّب منذ ذلك اليوم مسيلمة الكذاب.

وأمّا طليحة بن خويلد فقد ادّعى النبوة في حياة النبي ﷺ، قال ابن الأثير: وكان طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خزيمة قد تنبّأ في حياة رسول الله ﷺ، فوجّه إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور عاملًا على بني أسد، وأمرهم بالقيام على من ارتدّ، فضعف أمر طليحة حتى لم يبق إلّا أخذه فضربه بسيف فلم يصنع فيه شيئا، فظهر بين الناس أنّ السلاح لا يعمل فيه، فكثر جمعه، ومات النبي ﷺ وهم على ذلك[3].

الثاني: إنّ المواجهة مع «المتنبّؤون» وأتباعهم بدأت أيضًا في حياة النبي ﷺ، وقد قدَّمنا ذكر كلام ابن الأثير في قضيّة طليحة

(1) تاريخ المدينة 2/ 572.

(2) تاريخ المدينة 2/ 572.

(3) الكامل في التاريخ 2/ 344.

الأسدي وكيف سعى المسلمون في قتله بأمر النبي ﷺ، بل نجحوا في قتل رأس من رؤوس المدّعين وهو الأسود العنسي الذي لازال يروَّج أنّه تنبَّأ وقومه في زمن أبي بكر والحال أنّه ارتدّ وقُتل في حياة رسول الله ﷺ، قال ابن كثير: وسيأتي ذكر مقتل الأسود العنسي في آخر حياة رسول الله ﷺ[1].

فبالجمع بين الأمرين نعلم أنّ حركة الردَّة بدأت في زمن النبي ﷺ وكانت تتحيّن الفرصة للانقضاض على المدينة وأهلها، ومنها بدأت المواجهة النبويّة لهؤلاء والسعي للتخلّص منهم، ولا شكّ في أنّ هذه الحركات قد توسّعت بعد النبي ﷺ، لكنّ مشكلتنا هو أنّ إعلام السقيفة سعى جاهدًا إلى تضخيم القضيّة وربطها بوفاة النبي ﷺ لأسباب سياسيّة تأتيك تباعًا.

سياسة خلط الأوراق:

إنّ مفتاح فهم هذه الأحداث هو التمييز بين القبائل التي واجهها أبو بكر: هل كانوا كلّهمْ أتباع المتنبئين بحيث يصدق عليهم فعلا أنّهم أهل ردّة كما سمّاهم المؤرّخون؟ أم كانت هناك دوافع أخرى لمواجهتهم والدخول معهم في حروب طاحنة؟

وردت في صحيح البخاري رواية تتحدّث عن دوافع الخليفة الأوّل لقتال – أهل الردّة–: لمّا توفّي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل

---

(1) البداية والنهاية 4/ 100.

الناس وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم منّي ماله ونفسه إلّا بحقّه وحسابه على الله"، فقال: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه[1].

والحديث يثبت أمورًا:

أوّلًا: أنَّ قتال هؤلاء كان موضع خلاف بين الصحابة، بل كان بين أقرب المقرّبين من بعض أبي بكر وعمر، فلو كان القوم أتباع المتنبّئين لما كان لهذا الخلاف معنى لوضوح الحكم فيهم.

ثانيًا: استدلال عمر بن الخطاب بقول النبي ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله" دليل صريح على أنَّ القوم الذين عزم أبو بكر على قتالهم من الذين يشهدون الشهادتين، فبحسب هذا الحديث فإنّ تلفّظ الشهادتين يُعتبر عاصمًا للدّم.

ثالثًا: يظهر من جواب أبي بكر أنّ سبب مقاتلة القوم هو منعهم الزكاة، وبتعبير أدقّ عدم حملهم زكواتهم للحاكم الجديد أبي بكر بن أبي قحافة، والتعبير بـ"منعوني" صريح في أنّهم لم ينكروا فرض الزكاة.

ومن خلال هذه النقاط الثلاث نعلم يقينًا أنّه لم يكن كلّ الذين قاتلهم أبو بكر من الكفّار المرتدّين، بل كان بعضهم من المسلمين

---

(1) صحيح البخاري 8/ 140.

الموحّدين الذين يشهدون أن لا إله إلّا الله محمد رسول الله، وقتالهم كان لأسباب أخرى تختلف عن الأسباب التي دعت لقتال المتنبّئين، وبالتالي فإنّ الذين قاتلهم أبو بكر هم على أصناف وليسوا صنفًا واحدًا لكن حصل خلط متعمّد في الأوراق لتضييع الحقيقة وإخفاء معالم الجريمة.

فالحديث عن ردَّة جماعيّة لكلّ بلاد المسلمين محض خيال، والمروّجون لهذا التصوّر هم أتباع أبي بكر والمتابعون له في سياسته، وعليه يجب أن ينصبّ البحث على الدوافع السياسيّة لقتال العرب الذين لم يرتدّوا فعلًا عن الإسلام.

بداية الانتفاضة:

إنّ هناك جُملة من الشواهد التاريخيّة التي تثبت أنّ بعض القبائل العربيّة التي اتُّهمت بالردّة لم تكن إلّا حركات معارضة انتفضت على حكومة السقيفة ورفضت الدخول تحت سلطانها، بل كانت تدعو صراحة إلى إرجاع الأمر لمن نصّبه النبي ﷺ وبايعه الناس في غدير خم الإمام علي .

فمن الشواهد ما رواه الطبري في تاريخه بسنده عن عبد السلام بن سويد: أنّ خيل طيء كانت تلقى خيل بني أسد وفزارة قبل قدوم خالد عليهم فيتشاتمون ولا يقتتلون، فتقول أسد وفزارة: لا والله، لا نبايع أبا الفصيل أبدًا، فتقول لهم خيل طيء: أشهد ليقاتلنّكم حتى تكنّوه أبا الفحل الأكبر[1].

(1) تاريخ الطبري 2/ 485.

وهذا النصّ صريح في أنَّ الاختلاف بين هـذه القبائـل لم يكـن حول الإيمان بالله أو برسوله أو بكتابه، وليس حول إقامـة الـصلاة وإيتاء الزكاة، بـل كـان حـول شخـصيّة الخليفـة الجديـد أبي بكـر، فهؤلاء لم يكونوا يرونه أهلا للخلافة ولـذلك كنّـوه تحقـيرًا بــ"أبي الفصيل".

وأصرح منه ما رواه ابن أعثم في فتوحه: ثم إنّ زياد بن لبيـد – عامل أبي بكر– رأى من الرأي لا يعجل بالمسير إلى أبي بكر، فوجّـه بما عنده من إبل الصدقة إلى المدينة مع ثقة، وأمره أن لا يخبر أبا بكـر بشيء من أمره وأمر القوم، قال: ثم إنّه سار إلى حي من أحياء كنـدة يُقال لهم بنو ذهل بن معاوية فخبّرهـم بما كان من... إليه ودعاهم إلى السمع والطاعة، فأقبل إليه رجل مـن سـادات بنـي تمـيم يقـال لـه الحارث بن معاوية، فقال لزياد: إنَّك لتدعو إلى طاعة رجل لم يعهـد إلينا ولا إليكم فيه عهد، فقال له زياد بن لبيد: يا هذا صدقت، فإنَّـه لم يعهد إلينا ولا إليكم فيه عهد، ولكنّا اخترناه لهذا الأمر، فقـال لـه الحارث: أخبرني لم نحّيتم عنها أهل بيته وهم أحقّ الناس بها لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؟ فقال لـه زياد بن لبيد: إنّ المهاجرين والأنصار أنظر لأنفسهم منك، فقال لـه الحارث بن معاوية: لا والله، ما أزلتموها عن أهلها إلّا حسدا منكم له، وما يستقرّ في قلبي أنّ رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم ينصب للناس علمًا يتّبعونه، فارحل عنَّا أيّهـا الرجـل فإنَّـك تـدعو إلى غـير رضا[1].

---

(1) الفتوح 1/ 48.

وهذا النصّ لا يحتاج بيانًا أو توضيحًا منّي، فهو صريح في أنّ قبيلة كندة رفضت بيعة أبي بكر لعدم شرعيّتها، والأهمّ من ذلك اعتقادهم بأحقيّة أهل البيت في القيام بهذا الأمر، ولذلك طردوا عامل الحكومة الجديدة وامتنعوا عن دفع الزكاة إليه.

وما ذكرناه غيضٌ من فيض إلّا أنّه كاف لتبيان أنّ حكومة السقيفة ضخّمت قضيّة الردّة ووسّعتها لتتمكّن من القضاء على كلّ حركات المعارضة المتمثِّلة في القبائل الكبيرة التي قد ترفع السلاح ضدّ حكومة السقيفة لإرجاع الحكم لأهله، فكانت النتيجة أن اعتبروهم كفّارا مرتدّين خارجين عند الإسلام.

وقد ورد نصٌّ تاريخيّ يذكر هذه الحقيقة بصراحة بحيث لا يدع مجالا للشكّ والارتياب:... فلمّا وصل الكتاب إلى الأشعث وقرأه أقبل على الرسول فقال: إنّ صاحبك أبا بكر هذا يلزمنا الكفر بمخالفتنا له ولا يلزم صاحبه الكفر بقتله قومي وبني عمّي! فقال له الرسول : نعم يا أشعث، يلزمك الكفر لأنّ الله تبارك وتعالى قد أوجب عليك الكفر بمخالفتك لجماعة المسلمين[1].

مسلسل الدم:

المؤسف في كلّ ما تقدَّم هو ما فعلته حكومة السقيفة لهؤلاء، حيث إنّه بمجرّد أن أشاعوا عن هذه القبائل المعارضة أنّهم ارتدُّوا بدأ مسلسل الدم، فحكومة السقيفة لم تكن مستعدَّةً للتفاوض أو

---

(1) الفتوح 1/ 54.

التشاور معهم في أمر الحكم بل صدر القرار الحكومي بتحكيم السيوف والرماح والأسنَّة، وسلَّط عليهم قائده المفضَّل "خالد بن الوليد" فحصل ما يندى له الجبين وبقي وصمة عار على مرّ التاريخ:

فقد ذكر ابن إسحاق: أنَّ أبا بكر الصديق بعث رجلًا من الأنصار إلى خالد يأمره أن يقتل من أنبت من بني حنيفة[1].

ونقل الطبري بعض بطولات خالد في حربه للمرتدّين فقال: فأقام على البزاخة شهرًا يصعد عنها ويصوَّب ويرجع إليها في طلب أولئك، فمنهم من أحرق ومنهم من قمطه ورضخه بالحجارة ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال[2]!

وذكر ابن الجوزي ما فعله خالد مع قبيلة كندة التي مرَّ عليك سبب معارضتها لأبي بكر، قال: وتحصَّنت ملوك كندة ومن بقي معهم في النجير وأغلقوا عليهم فجثم عليهم زياد والمهاجر وعكرمة، وكان في الحصن الأشعث بن قيس، فلمّا طال الحصار، قال الأشعث: أنا أفتح لكم باب الحصن وأمكّنكم ممّن فيه على أن تؤمّنوا لي عشرة، فأعطوه ذلك، ففتح باب الحصن، ثم عزل عشرة أنفس ولم يعدّ فيهم نفسه وهو يرى أنهم لا يحسبون به في العشرة، فقالوا: إنّما صالحناك على عشرة، فنحن نعفو عن هؤلاء ونقتلك

(1) تاريخ خليفة بن خيّاط 72.

(2) تاريخ الطبري 2/ 491.

لأنّك لم تعدّ نفسك فيهم، فقال لهم: وإنّ ظنّكم ليدلّكم على أنّي أصالح عن غيري وأخرج بغير أمان، فجادلهم وجادلوه، فقالوا: نردّ أمرك إلى أبي بكر فيرى فيك رأيه، وأمر زياد بكلّ من في الحصن أن يُقتلوا فقتلوا، وكانوا سبعمائة، وسبى نساءهم وذراريهم[1].

وتبقى قضيّة بني يربوع هي الأخطر من كلّ هذه القضايا، حيث يكاد كلّ المؤرّخين أن يُجمعوا على أنّ هذه القبيلة لم ترتدّ وبقيت على إسلامها، وقد نقل لنا ابن إسحاق القصّة كاملة: أنّ أبا بكر كان من عهده إلى جيوشه أن إذا غشيتم دارًا من دور الناس فسمعتم فيها أذانًا للصلاة فأمسكوا عن أهلها حتى تسألوهم ما الذي نقموا، وإن لم تسمعوا أذانًا فشنّوا الغارة فاقتلوا وحرّقوا، وكان ممّن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة، وقد كان عاهد الله أن لا يشهد مع خالد بن الوليد حربًا أبدًا بعدها، وكان يحدِّث أنّهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل فأخذ القوم السلاح، قال: فقلنا إنَّا المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، قلنا: فما بال السلاح معكم؟ قالوا لنا: فما بال السلاح معكم؟ قلنا: فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح، قال: فوضعوها، ثم صلّينا وصلّوا، وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال وهو يُراجعه ما أخال صاحبكم إلّا وقد كان يقول كذا وكذا. قال: أو ما تعدّه لك صاحبًا؟ ثم قدَّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه، فلما بلغ قتلهم

---

(1) المنتظم 4/ 87.

عمر بن الخطاب تكلّم فيه عند أبي بكر فأكثر وقال: عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته[1]!

إذن مالك وقومه مسلمون بل صلّوا مع جيش خالد ورغم هذا كان مصيرهم القتل، والعجيب أنَّ قتلهم لم يكن في معركة بل كان إعدامًا بعد أن خدعوهم ليضعوا سلاحهم ثم أسروهم، ولم يكتف خالد بمجرّد القتل بل قام بفعلين فظيعين:

الأوّل: قام خالد بن الوليد بالتمثيل بجثّة مالك بن نويرة وذلك بقطع رأسه وجعله أثفية لقدر طعامه.

الثاني: أنّه سبى إمرأته و"تزوَّجها" أو بتعبير عمر بن الخطاب: عدوّ الله عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته[2].

روى الذهبي في تاريخ الإسلام:... وقال لضرار بن الأزور: اضرب عنقه، فالتفت مالك إلى زوجته وقال: هذه التي قتلتني، وكانت في غاية الجمال، قال خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام، فقال: أنا على الإسلام، فقال: اضرب عنقه، فضرب عنقه وجعل رأسه أحد أثافي قدر طبخ فيها طعام، ثم تزوّج خالد بالمرأة[3].

ومن المضحك ما ذكره ابن الأثير في تاريخه، وغيره من

(1) تاريخ الطبري 2/ 503.

(2) تاريخ الطبري 2/ 503.

(3) تاريخ الإسلام 3/ 34.

المؤرِّخين، في محاولة منهم للتبرير لما فعله خالد بن الوليد؛ حيث قال: فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم، وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد أنّهم قد أذنوا وأقاموا وصلّوا، فلمّا اختلفوا أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء، فأمر خالد مناديًا فنادى أدفئوا أسراكم، وهي في لغة كنانة القتل فظنَّ القوم أنّه أراد القتل ولم يرد إلّا الدِّفْء، فقتلوهم فقتل ضرار بن الأزور مالكاً، وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمرًا أصابه[1].

فجعل قتل خالد لمالك بن نويرة مجرّد خطأ ارتكب بسبب اختلاف لغات العرب، لكن نسي أن يُبرِّر لنا لماذا جعل رأسه أثفية لقدره؟ ولماذا نكح إمرأته؟

والعجيب أنّهم نقلوا كرامة لرأس مالك بن نويرة حيث إنّه لم يحترق من نارهم، لكنّهم أرادوا طمسها بشيء يضحك الثكلى: كان مالك بن نويرة من أكثر الناس شعرًا، وإن أهل العسكر أثفوا برؤوسهم القدور، فما منهم رأس إلّا وصلت النار إلى بشرته ما خلا مالكًا، فإنّ القدر نضجت وما نضج رأسه من كثرة شَعره[2].

ولا أدري أيّ عقل يُفكِّر به هؤلاء عند كتابة التاريخ: فهل الرأس الذي فيه شعر كثيف يحترق أسرع من بقيّة الرؤوس أم أبطأ

(1) الكامل في التاريخ 2/ 358.

(2) تاريخ الطبري 2/ 503.

منها؟ إنّها العصبيّة المذهبيّة التي تُعمي كلّ بصير ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

الموقف العلوي:

كان لعليّ بن أبي طالب موقف مشرّف آخر، فرغم الانقلاب عليه والاعتداء على بيته وزوجته وعزله سياسيًّا واجتماعيًّا فإنّه كما قدَّمنا لم يقم بعمل مقابل لمواجهة من ظلموه، بل سكت والتزم بيته حفاظًا على بيضة الإسلام، أمّا موقفه الثاني المشرِّف فهو أنّه لم يستغلّ انشغال "حكومة السقيفة" بمواجهة تحرّكات المتنبّئين لينقضّ عليهم ويستردّ ما سلب منه، بل نجده ساندهم في حربهم عليهم وكان نِعم الناصح الأمين الوفيّ لأعدائه، بل يظهر أنّه شارك فعليًّا في دفاعه عن المدينة المنوّرة ضدّ هجمة جيش طليحة بن خويلد الأسدي[2].

وقد ثبَّت هذه الحقائق التاريخيّة في كتابه لمالك الأشتر لّما ولّاه مصر: أمّا بعد فإنّ الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ نذيرًا للعالمين ومهيمنًا على المرسلين، فلمّا مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنَّ العرب تزعج هذا

---

(1) ولعلّ الجميع قد رأى تطبيقًا عمليًّا لهذه الأمور عند داعش وأخواتها: كقطع الرؤوس وطبخها، وإلقاء الناس من الشواهق، وحرقهم أحياء، وكلّ هؤلاء كانت تهمتهم الوحيدة هي مخالفة الإسلام الداعشي؛ وبالتالي حكم عليهم بالارتداد ومن ثمّ القتل بهذه الصورة المتوحّشة.

(2)قراءة جديدة لحروب الردّة 41.

الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا أنّهم منحوه عنّي من بعده، فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد ﷺ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدمًا تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق[1].

لكنَّ القوم بعد أن استقرَّت الأمور لهم أشاعوا أنّ عليًّا بايعهم ووافقهم على ما هم عليهم، واستغلّوا هذه الدعاية لضرب القبائل التي امتنعت عن البيعة تحت عنوان شقّ عصا المسلمين التي جعلوها من مصاديق الردَّة، وشتَّان بين الوفاء العلويّ وغدر أهل السقيفة.

---

(1) نهج البلاغة 3/ 118.

18

رسالة من القلب

بعد هذه الرحلة المختصرة في خبايا التاريخ الإسلامي لاشكّ أنّه قد تغيَّرت نظرتك أيّها القارىء اللبيب إلى كثير من الأمور التي سبق وأن لُقّنتها أو اطّلعت عليها في تاريخنا المزوّر، هذا التاريخ الذي كُتِبَ بأقلام مأجورة والتي لم يكن غرضها هو نقل الحقيقة بل كان رضا الحاكم مقدّمًا على كلّ شيء.

الموضوعيّة في الطرح:

ولعلَّك قد سمعت بأحداث جديدة لم تسمعها أو تطَّلع عليها من قبل، فلا يكون عدم اطّلاعك على هذه الأمور مانعًا من التصديق بما ذكرته في فصول الكتاب، فإنّي طيلة البحث لم أعتمد إلَّا على المصادر التاريخيّة والحديثيّة التي لا يختلف فيها اثنان من المسلمين، وما ذكرته من مصادر مختصَّة ببعض الفرق الإسلاميّة فإنّما كان ذلك على سبيل التأييد والتدعيم، وبالتالي فيمكن اعتبار المادّة التاريخيّة لهذا الكتاب محلّ تصديق وإجماع بين المسلمين كافَّةً.

البعد النفسي:

وقد تجد في دخالة نفسك صعوبة في قبول بعض النتائج التي ذُكِرَت في طيّات هذا الكتاب ونفرة من التصديق بها، فلا تخف ولا تخش ذلك لأنّ مثل هذا الإحساس سيكون أمرًا طبيعيًّا جدًّا في مثل هذه الحالات بسبب القراءة التاريخيّة المقولبة في القالب المذهبي بحيث ترسم أمام كلّ باحث خطوطا حمراء تمنعه من تجاوزها.

هذه بضاعتي:

إنّ ما عرضته في هذا الكتاب هو عُصارة بحث مُطوَّل في كُتُب التاريخ والسير والأحاديث، ولا شكّ أنّ الكثير سيرفضون ما كتبته وسيكيلون الاتهامات إلى المؤلّف المسكين، والأولى أن يشمّروا عن سواعد الجدّ ويناقشوا هذه المادّة التاريخيّة التي مَرَّت عليك ويُقَدِّموا لنا قراءةً تاريخيّةً تنسجم مع هذه المعطيات.

وإن كنت ترى أنَّ ما كُتِبَ ذنب، فلتعلم أنَّه ليس ذنب العبد الفقير بل هو ذنب المؤرّخين الذين نقلوا هذه الأمور وأثبتوها في كُتُبهم حتَّى وصلت إلينا، وبالتالي فكُتُبهم أولى بالمحاربة من هذا الكِتَاب.

إلى الحاضر البائس:

إنَّ اختلاف المسلمين وتشرذمهم بل واقتتالهم ليس وليد الساعة كما يُقَال، وليس من تدبير المخابرات الغربيّة كما يُروَّج، بل هو وليد تراكمات تاريخيّة ضاربة في القدم بدأت منذ الأيّام الأخيرة لوفاة رسول الله ﷺ وانتقال السلطة لأبي بكر، وعليه فلا يمكننا حلحلة مشاكل حاضرنا إلَّا بفتح ملفَّات الماضي وفضّ نزاعه، أمّا السكوت ودسّ الرؤوس في الرمال فلن يفيد المسلمين في شيء بل سيرجعنا إلى المربّع الأوّل.

نسأل الله ﷻ أن يفتح بصائرنا لرؤية الحقِّ، وأن يرينا الحقَّ حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، ويؤلّف بين قلوب الناس ويجمع شملهم المشتَّت، إنَّه على كلِّ شيء قدير.

المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية:

القرآن الكريم

(أ)

1- **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**: أحمد بن أبي بكر البوصيري الكناني، دار الوطن للنشر، الرياض- السعوديّة، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، الطبعة الأولى، 1999م.
2- **الإحكام في أصول الأحكام**: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري، مطبعة العاصمة بالقاهرة، الطبعة الأولى.
3- **الأخبار الموفقيّات**: الزبير بن بكّار بن عبد الله القرشي المكّي، عالم الكتب، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1996م، تحقيق: سامي مكّي العاني.
4- **الاستذكار**: أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بـ "ابن عبد البر" القرطبي، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2000م.

5- أسد الغابة في معرفة الصحابة: مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثـير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

6- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبد الله بن عبد البر، دار الجيل بيروت - لبنان،الطبعة الأولى، 1992م.

7- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1415هـ.

8- الاحتجاج: أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مكتبة دار المجتبى النجف الأشرف العراق، الطبعة الأولى، 2009م.

9- أحوال الرجال: إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق الجوزجاني، مؤسسة تبوك للنشر والتوزيع، القاهرة، تحقيق: الدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي.

10- أخبار القضاة: أبو بكر محمد بن خلف البغدادي الملقّب بـ"وكيع"، عالم الكتب، بيروت - لبنان، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، الطبعة الأولى.

11- الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1994م.

12- الاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ.

13- الأرجوزة المختارة: القاضي أبو حنيفة النعمان المغربي، معهد الدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، 1970م.

14- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة السابعة.

15- الأنساب: أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، دار الجنان للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1988م، تحقيق: عبد الله عمر البارودي.

16- أنساب الأشراف: أحمد بن يحي البلاذري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1974م.

17- الإمامة والسياسة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع، تحقيق: طه محمد زيني.

18- الأمالي: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

19- الإيضاح: الفضل بن شاذان الأزدي النيشابوري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1982م.

(ب)

20- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1408هـ.

(ت)

21- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، 1998م.

22- تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، 1989م.

23- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ.

24- تاريخ خليفة بن خياط: خليفة بن خياط العصفري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق: سهيل زكّار، الطبعة الأولى، 1993م.

25- تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1996م.

26- تاريخ المدينة: أبو زيد عمر بن شبّة النميري، منشورات دار الفكر، بيروت - لبنان .

27- تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان.

28- تأويل مشكل القرآن: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، مكتبة دار التراث القاهرة، تحقيق السيد أحمد صقر .

29- تثبيت الإمامة: الهادي إلى الحق يحي بن الحسين بن القاسم الرسي، دار الإمام السجاد، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1419هـ.

30- تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

31- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.

32- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1985م.

33- تفسير عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1989م.

34- تفسير القمّي: علي بن ابراهيم بن هاشم القمي، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1404هـ.

35- تفسير مقاتل: مقاتل بن سليمان البلخي، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2002م، تحقيق: عبد الله محمود شحاته.

36- ترتيب المدارك وتقريب المسالك: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مطبعة فضالة المحمديّة المغرب، الطبعة الأولى.

37- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي اليماني، مكتبة المعارف الرياض السعودية.

38- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1983م.

39- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة 1406هـ، تحقيق: بشار عواد معروف.

(ث)

40- الثقات: أبو حاتم محمد بن حبان البستي- دار الفكر بيروت – لبنان، الطبعة الأولى1975م تحقيق شرف الدين أحمد.

(ج)

41- **جامع بيان العلم وفضله**: أبو عمر بن يوسف بن عبد البر، دار ابن الجوزي، الدمام- السعودية.

42- **الجامع الصحيح**: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1981م.

43- **الجامع الصحيح**: مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1981م.

44- **الجمل**: الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

45- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**: محمد بن أبي بكر المعروف بـ" ابن قيّم الجوزيّه، دار المعرفة، المغرب، الطبعة الأولى، 1997م.

(ح)

46- **حديث الغدير**: عبد الوهاب الطريري، دار وجوه للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1437هـ.

(د)

47- **دلائل النبوة**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1986م، تحقيق: محمد رواس قلعه جي.

(ر)

48- **الرياض النضرة في مناقب العشرة**: أبو جعفر أحمد المحب الطبري، المكتبة التوفيقية للطباعة والنشر.

(ز)

49- **زاد المعاد في هدي خير العباد**: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية 2010م.

(س)

50- سؤالات الآجري لأبي داود في معرفة الرجال وجرحهم وتعديلهم: أبو عبيد الآجري، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1997م.

51- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1993م.

52- كتاب سليم بن قيس: سليم بن قيس الهلالي العامري، مطبعة الهادي قم إيران، الطبعة الأولى، 1420هـ.

53- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى 1995م.

54- السنّة: أحمد بن محمد بن هارون الخلال، دار الراية للنشر والتوزيع الرياض- السعودية، الطبعة الخامسة، 2005م.

55- السنّة: عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، تحقيق: محمد بن سعيد القحطاني.

56- السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1991م.

57- السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة 2003م.

58- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر بيروت - لبنان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تعليق: كمال الحوت.

59- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الفكر بيروت - لبنان، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

60- سنن الدارمي: عبدالله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ.

61- سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

62- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، 1993م.

63- السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، دار الجيل بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1991م.

64- السيرة النبوية: محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي، دار الفكر بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1978م، تحقيق: سهيل زكّار.

65- السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي: عبد الشافي محمد عبد اللطيف، دار السلام القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ.

66- السيرة النبوية: أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1976م.

67- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: أبو حاتم محمد بن حبّان البستي، الكتب الثقافية بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة 1417هـ.

68- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، المطبعة الأزهرية بمصر - الطبعة الثانية 1932م.

(ش)

69- شرح نهج البلاغة: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني، الدار اللبنانية للنشر، الطبعة الأولى، 2009م.

70- شرح صحيح مسلم: أبو زكريا يحي بن شرف النووي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1987م.

71- الشريعة: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، دار الوطن الرياض- السعوديّة، تحقيق: عبد الله بن عمر الدميجي، الطبعة الثانية، 1990م.

(ص)

72- صحيح سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الثانية، 2000م.

73- صحيح الأدب المفرد: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف بالرياض، الطبعة الثانية، 2000م.

74- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: أبو حاتم محمد بن حبان البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ.

75- الصواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزندقة: أحمد بن حجر الهيثمي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(ط)

76- الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع البغدادي، دار صادر بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1968م.

(ع)

77- عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: بدر الدين محمد بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(ف)

78- فتح الباري في شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.

79- فتح المتعال في مدح النعال: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن يحيى التلمساني، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان.

80- فتح المغيث في شرح ألفية الحديث: محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ.

81- فتح الملك العليّ: أحمد بن محمد بن الصدّيق الغماري، الطبعة الثانية، 2007م، تحقيق: الدكتور عماد سرور.

82- الفتن والملاحم: نعيم بن حماد الخزاعي المروزي، دار البيان العربي الأزهر، الطبعة الأولى، 2002م.

83- الفتوح: أحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1991م.

84- الفصل للوصل المدرج في النقل: أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، دار الهجرة، الطبعة الأولى، 1997م، تحقيق: محمد بن مطر الزهراني.

85- فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان، تحقيق: دكتور وصي الله عباس.

86- الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994م.

(ق)

87- قراءة جديد لحروب الردّة: الشيخ علي الكوراني العاملي، الطبعة الأولى، 2011م.

(ك)

88- الكامل في التاريخ: عز الدين علي بن محمد ابن الأثير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1965م.

89- كشف المشكل من حديث الصحيحين: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الوطن الرياض، السعودية، تحقيق علي حسن البواب.

90- كشف الخفاء ومزيل الإلباس: إسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى.

91- كنز العمّال في سنين الأقوال والأفعال: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان.

(ل)

92- لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1971م.

(م)

93- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1988م.

94- المحتضرين: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بـ"ابن أبي الدنيا"، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1997م، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف.

95- المحلّى في شرح المجلّى بالآثار بالحجج والآثار: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار الفكر.

96- المختصر في أخبار البشر: عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

97- مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: محمد بن أبي بكر المعروف بـ"ابن قيم الجوزية"، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1996م.

98- المذكّر المذكر والتذكير والذكر: أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني، دار المنار للنشر والتوزيع، تحقيق: خالد بن قاسم الردادي.

99- المصنّف: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المجلس العلمي - جنوب أفريقيا، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

100- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: أحمد بن علي بن محمد المعروف بـ "ابن حجر العسقلاني"، دار العاصمة (الغيث) السعوديّة، الطبعة الأولى، 1419هـ.

101- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان .

102- المسترشد في إمامة أمير المؤمنين : محمد بن جرير بن رستم الطبري، مطبعة سلمان الفارسي، قم-إيران، الطبعة الأولى.

103- مرويّات الإمام الزهري في المغازي: محمد بن محمد العواجي، الطبعة الأولى، 2004م.

104- المعارف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

105- المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الثانية.

106- المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،1995م.

107- معجم البلدان: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1979م.

108- معجم ما استعجم: عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1983م.

109- المعرفة والتاريخ: يعقوب بن سفيان الفسوي، مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1401هـ، تحقيق: د.أكرم ضياء العمري.

110- المغازي: محمد بن عمر المعروف بالواقدي، مؤسّسة الأعلمي، بيروت - لبنان، تحقيق ماردسن جونس.

111- المغني في الضعفاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1997م.

112- المسند: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، دار صادر، بيروت - لبنان، مصوّرة على الطبعة الميمنيّة.

113- المسند: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

114- المسند: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1995م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

115- مسند البزّار: أبو بكر بن عمرو بن عبد الخالق البزّار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الدين، عادل بن سعد، صبري عبد الخالق الشافعي.

116- مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي، دار المأمون للتراث، دمشق- سوريا.

117- المصنف في الأحاديث والآثار: عبد الله محمد بن أبي شيبة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

118- الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار السرور، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1948م.

119- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1992م.

120- منحة الملك الجليل بشرح صحيح محمد بن اسماعيل: عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، دار التوحيد للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، 1434هـ.

121- منهاج السنة النبوية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار الحديث القاهرة مصر، الطبعة الأولى، 2004م.

122- الموطّأ: مالك بن أنس الأصبحي، برواية أبو مصعب الزهري، مؤسسة الرسالة، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، الطبعة الأولى، 1412هـ.

123- الموضوعات: جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الأولى.

124- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

(ن)

125- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى1979م.

126- نهج البلاغة: جمع الشريف محمد بن الحسين بن موسى الرضي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.

127- نهج الحقّ وكشف الصدق: الحسن بن يوسف ابن المطهّر المعروف بـ" العلامة الحلّي"، منشورات دار الهجرة قم إيران، الطبعة الأولى 1414هـ، تحقيق: عين الله الحسني الأرموي.

(و)

128- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، طبعة دار صادر، بيروت - لبنان.